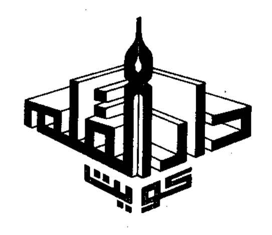
الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية

في الأقطار الإسلامية

أبو الحسن علي الحسني الندوي



الطبعة الرابعة
مزيدة منقحة
١٤٠٣ هـ ــ ١٩٨٣ م

دار القلم ــ الكويت
شارع السور ــ بجانب وزارة الخارجية ــ عمارة السور
ص . ب ٢٠١٤٦ ــ هاتف : ٤٥٧٤٠٧ ــ ٤٥٨٤٧٨ ــ برقياً : توزيعكو

الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية

في الأقطار الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الرابعة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ ، وبعد فقد صدرت الطبعة الثالثة لكتاب « الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية فى الأقطار الإسلامية » مزيدة منقحة من دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع الكويت ، سنة ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧م، ونال قبولا وحظوة فى الأوساط المعنية باتجاهات الأقطار الاسلامية وواقعها ، وموقفها من الفكرة الغربية ، وكان كتاب الساعة ، لأنه يبحث عن قضية مصيرية للأقطار الاسلامية ، ويعين مكانتها فى خارطة الاسلام المعنوية والمبدئية فى جانب ، وفى خارطة العالم الحضارية والاجتماعية فى جانب آخر ، ويحدد قيمتها الحقيقية من وجهة نظر الاسلام ورسالته ، وأهدافه.وكان من أهم كتب المؤلف فى نظر كثير من أصدقائه وقراء كتبه ، ويعتقد بعض القراء أنه يكون الحلقة الثانية من كتاب« ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» .

وقد جعل هذا الكتاب كونه كتاب الساعة والكتاب الذى يحكى عن واقع الأقطار الاسلامية ، وموقفها من الفكرة الغربية التى هى خاضعة للنمووالتطور ، والأحداث العالمية ، مفتقرا الى الزيادة والتنقيح والتغيير والتطوير أكثر من كتاب آخر ، لأن هذه الأقطار لا تعيش فى عزلة عما يقع فى العالم الخارجى ، وفى البلاد المجاورة ، من أحداث وثورات وتقلبات ، فضلا عما يقع فى داخلها من تحولات ، وتقلبات ، وثورات عسكرية ومدنية ،ومبدئية ومعنوية ، لذلك كان فى حاجة دائما إلى استعراض جديد للواقع وتسجيل للتطورات الجديدة .

وقد انقضت فترة طويلة لم يتمكن المؤلف لكثرة أشغاله وأسفاره ،من تناول هذا الكتاب بالزيادة والتنقيح ، مع شدة الحاجة اليه ، وقد تمكن من ذلك فى طبعته الأردية الصادرة فى صفر ١٤٠١ هـ - ديسمبر ١٩٨٠ م وقد كانت لمصر واليمن وليبيا ، والجزائر ، وأفغانستان وإيران النصيب الأكبر من هذه التطورات والأحداث

وقد أعانه فى هذا الاستعراض الجديد ، وفى هذه الزيادات ذات القيمة ، الأعزاء محمد الحسنى(*) رئيس تحرير مجلة « البعث الاسلامى » ، والاستاذ محمد رابع الحسنى الندوى عميد كلية اللغة فى جامعة ندوة العلماء ، والاستاذ واضح رشيد الحسنى الندوى رئيس تحرير صحيفة « الرائد » العربية ، وكان للأخير أكبر قسط فى هذه الزيادات تدل على عمق نظره وسلامة فكره ، بارك الله فى حياتهما وآثارهما .

وبذلك أصبحت هذه الطبعة هى الطبعة الجديدة بمعنى الكلمة ، ومطابقة لواقع الأقطار الاسلامية ، ونرجو الله أن ينفع بها ، وأن تكون منيرة للأبصار والبصائر ، مثيرة للعزائم والهمم .

والحمد لله اولا وآخراً .

أبو الحسن على الحسنى الندوى
دار العلوم ندوة العلماء

١٤ / شعبان ١٤٠١هـ
١٧ / يونيه ١٩٨١ م

(*) انتقل إلى رحمة الله تعالى فى ١٤ يونية سنة ١٩٧٩ م ، وهو فى الرابعة والأربعين من سنه ، رحمه الله وتقبل منه صالح أعماله والجهاد بالقلم .

بســم الله الرحمن الرحيــم

كلمة بين يدى الكتاب

إن هناك صراعاً فكرياً ، بل معركة فكرية فى عبارة أصح ، فى جميع الأقطار الإسلامية فى هذا الوقت ، نحن نستطيع أن نسميها صراعاً ومعركة بين الأفكار والقيم الإسلامية ، والأفكار والقيم الغربية ، وهى المعركة الحامية الحاسمة الحقيقية التى يخوضها العالم الإسلامى اليوم وهى التى ستقرر مصيره ، وهى معركة تتضاءل أمامها جميع المعارك التى يغالى فى تصويرها أو تهويلها الكتَّاب والمؤلفون ، فكل معركة – غير المعركة الكبرى التى ننوه بها – إما معركة محلية ، أو معركة فرعية ، أو معركة وهمية . إن تاريخ هذه الأقطار القديم وحب الشعوب المسلمة للإسلام وصلتها القوية العميقة به ، والاسم الذى قاتل دونه المقاتلون وتيسر به الظفر بالحرية أو المحافظة عليها إذا كانت من قبل ، كل هذه الحقائق تثبت أن هذه الأرض التى نشبت فيها هذه المعركة لا مكان فيها إلا للأفكار الإسلامية والقيم الإسلامية ، ولايسمح فيها إلا لمنهج ونظام دعا إليهما الإسلام .

لكن الطبقة التى تملك زمام هذه البلاد إن عقليتها وثقافتها وتربيتها ومصالحها الشخصية والسياسية كل ذلك يقضى أن تزدهر فيها القيم الغربية والأفكار الغربية وأن تتبع هذه البلاد الدول الغربية شبراً بشبر وذراعاً بذراع ، وهى تغير مفاهيمها الدينية وتقاليدها القومية وقوانينها الإسلامية بالأوضاع الغربية أو تطورها إذا عاكست هذا الهدف وحالت دون الوصول إلى هذه الغاية ، وفى عبارة وجيزة : تصهر هذه البلاد بتؤدة وأناة ولكن بوعى وإلحاح فى بوتقة الحضارة الغربية .

ومن هذه الأقطار ما قد قطع أشواطاً بعيدة فى هذه الرحلة ووصل إلى هدفه المنشود أو كاد ، ومنها ما وقف حائراً على مفترق الطرق ولكن يبدو أن موعده قريب .

إننى أعتقد أن ذلك أضخم مشكلة للأقطار الإسلامية ، وهى مشكلة حقيقية لا صلة لها بالأوهام والأحلام ، إن ضعف الأقطار الإسلامية الداخلى ونفوذ الحضارة الغربية واحتلالها واستيلاء الأفكار الغربية المادى والسياسى يرسم فى الأفق علامة استفهام واضحة ضخمة أمام الأقطار الإسلامية كلها ، ولا تستطيع أن تتقدم خطوة واحدة بدون أن تجيب عليها جواباً حاسماً .

أى موقف تتخذه هذه البلاد نحو هذه الحضارة

أى منهج تسير عليه لتوثيق مجتمعها بالحياة العصرية وتحقيق مطالب العصر الحديث !؟

وإلى أى مدى تثبت ذكاءها وشجاعتها الخلقية لمواجهة هذه المعضلة ؟

إن وضع الجواب على هذا السؤال هو الذى يحدد مكانة هذه الشعوب فى خريطة العالم ويعرف به مستقبل الإسلام فى هذه البلاد ومدى وفائها لرسالة الإسلام الخالدة العامة .

كنا نشعر بحاجة شديدة إلى إستعراض هذه المسألة وما قام به العاملون الموجهون من جهود فى اتجاهات مختلفة ، ودراستها دراسة مؤرخ محايد وباحث نزيه ، وتحليلها من غير بخل وإسراف ، والتنبيه إلى طريق سوى لنهضة المجتمع الإسلامى الذى لا يتحتم عليه التمسك بالعقائد والأخلاق ومنهج الحياة الإسلامية فحسب ، بل عليه تقع مسئولية الدعوة والتوجيه والقيادة والوصاية على العالم أيضاً ولاتتحتم عليه المسايرة لركب الحياة السريع فحسب بل قيادته كذلك .

إن جميع الأقطار الإسلامية وأخص منها ما تحررت حديثاً فى حاجة إلى بحث عميق فى هذا الموضوع لأن أدنى انحراف أو زلة قدم سوف تهوى بها إلى مكان سحيق وتبعدها عن هدفها الصحيح بعدة قرون وأجيال .

وبهذا الدافع كتبت مقالا مسهباً فى أوائل سنة ١٣٨٢ هـ لم يلبث أن تحول إلى كتاب نشر فى شعبان سنة ١٣٨٢ هـ – فبراير ١٩٦٣ باسم « موقف العالم الإسلامى تجاه الحضارة الغربية » واعتنت به الأوساط العلمية والدينية فى العالم العربى .

وقد أُتيح لى السفر إلى أوربا بعد نشر الكتاب ورأيت مركز هذه الحضارة ومعقلها عن كثب ، وشاهدتها فى بيتها وعقر دارها ، واستفدت من هذه الرحلة فى الاطلاع على بعض المصادر العلمية الحديثة . وزدت فيه زيادات قيمة مهمة جاءت ضعف ما كان عليه الكتاب حتى أصبح بذلك كتاباً جديداً ، وهو ينشر الآن تحت عنوان « الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية فى الأقطار الإسلامية » .

وأدعو الله أخيراً أن يوفق قادتنا وزعماءنا إلى فهم مسئوليتهم الدقيقة الضخمة وأداء هذه المسئولية بحول الله وقوته بأحسن ما يمكن .

وقد ساعد المؤلف فى تأليف الكتاب ونقل بعض المواد إلى العربية الأساتذة سعيد الأعظمى ومحمد اجتباء الندوى ومحمد الحسنى مساعدة غالية فلهم شكر المؤلف وتقديره ودعواته .

أبو الحسن على الحسنى الندوى
بستان نور ولى — المدينة المنورة
٩/ ١/١٣٨٥هـ — ١٠/٥/١٩٦٥م

الموقف الأول
من الحضارة الغربيّة

الموقف السلبى

العالم الإسلامى أمام مشكلة الحضارة الغربية :

واجه العالم الإسلامى فى منتصف القرن التاسع عشر المسيحى مشكلة فى غاية الدقة والتعقد والخطورة ، وعلى الموقف الذى يتخذه تجاه هذه المشكلة الحاسمة يتوقف مستقبله كعالم له شخصيته وكيانه .

هى مشكلة الحضارة الغربية الفتية ، الدافقة بالحياة والنشاط والطموح وقوة الانتشار والاستيلاء ، وهى من أقوى الحضارات البشرية التى عرفها التاريخ ، والتى لم تكن إلا مظهراً من مظاهر العوامل التى تكونت واختمرت قديماً ، وظهرت فى أوانها .

واجه العالم الإسلامى هذه المشكلة وجهاً لوجه ،لأنه هو زعيم الرسالة الدينية والخلقية ، وصاحب الوصاية على المجتمع البشرى ، بعدما انسحبت الديانات القديمة من معترك الحياة ، وصاحب القوة الكبرى التى يحسب لها الحساب ، وصاحب الدول الواسعة فى هذا القرن ، فكان تحدى هذه الحضارة ، المادية الآلية للعالم الإسلامى أعظم من تحديها لأى أمة ، ولأى حضارة ، ولأى مجتمع بطبيعة الحال .

المزيج الغريب :

وكانت هذه الحضارة – بمعناها الواسع – مجموع عقائد ومناهج فكرية ، وفلسفات ونظم سياسة واقتصادية ، وعلوم طبيعية وعمرانية اجتماعية ، وتجارب خاصة مرت بها الشعوب الأوربية التى تزعمت هذه الحضارة فى رحلتها الطويلة ، وكانت

مظهر تقدم العلم البشرى وعلوم الطبيعة وعلم الآلات والعلوم الرياضية ، ومجموع نتائج جهود علماء وباحثين عبر القرون .

فكانت مزيجاً غريبا من أجزاء لا يكون الحكم عليها واحداً متشابهاً ، كانت مزيجاً من السليم والسقيم ، ومن الصواب والخطأ ، فى النتائج والأحكام . ومن البديهات فى العلم التى لا تقبل الجدال والشك ، ومن التخمينات والتحكمات فى الآراء والدعاوى التى تقبل المناقشة الطويلة والجدال الكثير ، ومما هو خميرة من الاختبارات والبحوث الطويلة ، ومما هو فج لايزال فى دور التجربة والاختبار ، والنشوء والارتقاء ، ومما لا يختص بإقليم أو عنصر ، من علوم تطبيقية ، وبالعكس مما تجلت فيه الطبيعة الأوربية ، وأثَّرت فيه البيئة الغربية وولدته حوادث تاريخية خاصة اكتوت بنارها هذه الأمم ، ومما له صلة قوية عميقة بالدين والعقائد ، ومما لا صلة له بالدين مطلقاً ، وذلك الذى زاد تعقد هذه المشكلة وخطورتها ، وأحرج مركز العالم الإسلامى ، وكان فيه بلاء ومحنة لذكاء قادته وزعمائه ، وأصحاب التوجيه فيه .

الموقف الأول السلبى :

وكانت هنالك ثلاثة مواقف يستطيع العالم الإسلامى أن يقفها أمام هذه المشكلة الطريفة ، لا أرى لهذه الثلاثة رابعاً .

كان الموقف الأول السلبية ، وهو أن يرفض العالم الإسلامى هذه الحضارة وما جاءت به بتاتاً ، ويقف منها موقف المعارض الثائر ، أو موقف المعتزل الحائد ، لا يقتبس منها شيئاً ولا يسمح بدخول علم من العلوم التى كان للأوربيين فيها التفوق والاختصاص ، ولا ينتفع بتجارب الغرب فى مجالات الطبيعة والكيمياء والرياضة وعلم الميكانيكا ، ولا يستورد شيئاً من الآلات ، والصنائع والأجهزة ، وأدوات الحرب والبضائع ومرافق الحياة .

حكم هذا الموقف طبعيا وشرعيا ، ونتائجه :

وهذا لابد ينتج التخلف الشديد عن ركب الحياة ، ويقطع صلة هذا الجزء عن باقى العالم ، ويكون جزيرة منقطعة لا مناعة لها ولا قيمة ، والبر لا مكان فيه للجزر المنقطعة الصغيرة ، ولاحرب مع الطبيعة البشرية ، ومنطق الحوادث والحقائق ،

وهو – بصرف النظر عن كل هذا – ضيق فى العقل ، وتعطيل للقوى الفطرية وجناية على الإسلام ، وسوء تفسير للدين الذى يحثّ على استعمال العقل والتفكير فى الكون [1] واقتباس الصالح النافع أينما كان مصدره [2] ويأمر بإعداد القوة الممكنة للدفاع عن الدين وإرهاب العدو [3] وينظر إلى الإنسان كخليفة الله فى هذه الارض [4] سخّر له البحار والأنهار ، وسخّر له الشمس والقمر ، وسخّر له الليل والنهار ، وآتاه من كل ما سأله بلسان المقال أو بلسان الحال [5] وامتنّ على عباده بإنزال الحديد الذى فيه بأس شديد ومنافع للناس [6] وضرب رسوله المثل لأمته باقتباس بعض أساليب الحرب والدفاع من غير المسلمين وغير العرب ، فحفر الخندق فى الأحزاب كما كان يحفره الفرس . وعلى هذه السيرة سار أصحابه وفقهاء أمته من بعده ، فكانوا يسايرون الزمن ويجارون الأمم فى الأساليب الحربية واتخاذ آلات الحرب ووسائل القوة ، وتعلم العلوم النافعة ، ويسبقونها أحياناً .

ولو حاول قُطر من الأقطار أن يطبق عينه وسمعه عن تحدى هذه الحضارة الصارخ ، أو أن يرفضها رفضاً باتاً ، صمَّم على أن يعيش فى عزلة عن العالم

---

(١) ﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ﴾ (آل عمران ١٩٠ – ١٩١) .

(٢) « الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها » (الترمذى : أبواب العلم) .

(٣) ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ﴾ (الأنفال ٦٠)

(٤) ﴿ إنى جاعل فى الأرض خليفة ﴾ (البقرة – ٢٠) .

(٥) ﴿ الله الذى خلق السماوات والأرض ، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار ، وآتاكم من كل ما سألتموه ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار ﴾ (إبراهيم ٣٢ – ٣٣ – ٣٤) .

(٦) ﴿ وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ﴾ (الحديد – ٢٥) .

المعاصر ، منطوياً على نفسه ، لما استطاع ذلك ، ولواجه ثورات لا آخر لها ، وعصياناً وتمرداً فى الداخل ، لأنه يعارض الفطرة الإنسانية الوثابة الطموح ، الولوع بالجديد ، الطالبة للمزيد ، الطامحة دائماً إلى المجد والقوة والتجديد ، ويعارض كذلك السنن الكونية وطبائع الأشياء ، ولو فعل ذلك قطر من الأقطار لتسربت هذه الحضارة إلى أُسر هذا القطر وبيوته ، كما يتسرب الماء فى القرية أو المدينة إذا أحاط بها السيل من كل جانب ، وطغى عليها الفيضان .

مصير الاقطار التى تعيش فى عزلة عن العالم :

لقد كانت الفترة التى عاشت فيها بعض الأقطار الإسلامية بعيدة عن الحضارة الحديثة بخيرها وشرها ، زاهدة فى مرافقها وأساليبها ، منطوية على نفسها ، لقد كانت هذة الفترة دائماً قصيرة مضطربة مهددة بالغزو الحضارى والثقافى من الخارج ، وموجات هذه المدنية العاتية التى تتغلغل إلى الجذور والأعماق ، وتذهب بالقيم والمفاهيم ومبادىءالأخلاق ، ويشك كل عاقل عرف قوة نفوذ هذه الحضارة وسعته ، وعرف ضعف هذه الأقطار الروحى والمادى ، وفقدها ما يقاوم هذه الحضارة من إيمان وقوة شخصية وثقة ، يشك فى بقاء هذه الأقطار فى سلخها[٧] وحصارها المدنى والثقافى والاجتماعى ، ويشك فى طول هذه الفترة ، — لأنها مع وجود هذا الضعف فى الشخصية والفقر فى القوة المعنوية — غير صالحة للطول والامتداد، فضلا عن البقاء والاستمرار .

جزيرة العرب :

زار الأستاذ محمد أسد — الذى عاش فى أوربا وتجول فى العالم الإسلامى — الجزيرة العربية الوادعة الهادئة فى سنة ١٩٣٢ م وهى لاتزال متمسكة بتقاليدها العربية الاسلامية أشبه بالماضى منها بالحاضر ، لم تجس خلالها الحضارة الغربية ، ولم تقتحم سورها — الرملى — الأساليب الغربية والمصنوعات الحديثة ،

---

(٧) سلخ الحية ، قشرها .

فشك فى طول حياة هذه العزلة ، والبعد عن تأثير الحضارة الغربية التى طوقت الجزيرة ، فقال :

« وعندما وصلت بتفكيرى إلى هذا الحد ، سألت نفسى فجأة ، إلى متى يستطيع زيد[٨] وقوم زيد (العرب) أن يحتفظوا بتماسكهم الروحى فى وجه الخطر الذى يطبق عليهم بكثير من الخداع والمكر وبصورة لا تعرف الرحمة ، أو اللين ؟ نحن نعيش فى زمن لم يعد الشرق فيه يستطيع أن يبقى ساكناً سلبياً فى وجه الغرب الآخذ بالإطباق عليه ، إن آلافاً من القوى - السياسية والاجتماعية والاقتصادية - تطرق أبواب العالم الإسلامى ، فهل يخضع هذا العالم ويستسلم إلى حضارة الغرب ويفقد خلال التفاعل لأشكاله وأنظمته التقليدية فحسب بل جذوره الروحية أيضاً »[٩] .

نعم لم تطل هذه الفترة فلم تلبث هذه البلاد المقدسة أن غزتها الحضارة الغربية وتدفق فيهاسيل المصنوعات الحديثة ، والمستوردات الغربية ، وأكثر من أسباب الترف ومن « الكماليات » ، فشحنت الأسواق ، وملأت البيوت ، وقضت على التقشف فى الحياة وصفات الفتوة والفروسية التى عرف بها العرب من قديم الزمان ، وكانت من أسباب قوتهم وانتصارهم ، وظهر اتصال الجزيرة بالغرب عن طريق الحضارة الثقافية والسياسية وعن طريق البترول ، وكان هذا الاتصال وهذا الاقتباس من الغرب فى مجال الحضارة والتجارة والثقافة ، عن ارتجال وتهور ومن غير تفكير هادىءوتصميم سابق ، فأصبح هذا الاستسلام ، الذى تخوف منه الأستاذ محمد أسد أمراً واقعاً ، وأصبحت الجذور الروحية - فضلا عن الأشكال والأنظمة التقليدية - مهددة .

ويشعر الأوروبيون بذلك ، ويتعجبون من هذا التحول ، والتطور الجذرى وانتشار الاختراعات الغربية فى صحارى جزيرة العرب الوادعة الصامتة الهادئة ، ووسائل الراحة والطمأنينة ، ووفرة وسائل العيش والترف والبذخ ، وارتفاع مستوى الحياة ، وتعقد الحياة العملية الساذجة البسيطة من قرون ، يقول مؤلف أمريكى Don Leretz[١٠] فى كتابه (الشرق الأوسط اليوم) : The Middle East - today .

---

(٨) البدوى العربى الذى كان مرافق محمد أسد فى مغامراته ورحلاته فى صحراء العرب ، ودليله فى هذه الرحلة .

(٩) الطريق إلى مكة ص ١٤٠ .

(١٠) The Middle East today, P. 402

وليكن من المقررات التي لا تقبل الشك أن الجزيرة العربية اليوم هي غرس محمد ﷺ وثمرة دعوته وجهاده ، وله ولأصحابه وللمؤمنين بدعوته وحدهم الحق عليها ، فيجب أن يكون كل شيء يقوم فى هذه الجزيرة – من تنظيمات وتصميمات ومخططات ومؤسسات – مقرراً لهذه الحقيقة ، متجاوباً معها ، وأن تكون هذه الأرض بعيدة كل البعد عن كل ما ينافى هذه الحقيقة ، وكل ما يهدد سلامتها العقائدية والفكرية ، ويضعف شخصيتها ، وإلى ذلك نظر رسول الله ﷺ بنظره البعيد ، فأوصى بإخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب ، ونهى عن أن يجتمع دينان فيها[١٣] ولا شك أن وصيته النبوية الحكيمة لا تقتصر على إخراج غير المسلمين أجساماً ظاهرةً ، بل إنها تشمل إخراج نفوذهم وتوجيههم وحضارتهم ودعواتهم ، كما يفهمه كل عاقل .

وزيادة على ذلك فإن فى هذه الجزيرة الحرمين : البلد الأمين الذى ولد فيه الرسول ﷺ وأكرم بالرسالة ، ويقع فيه الحجُّ ويدور حوله ، والمدينة التى هاجر إليها الرسول ﷺ وقام فيها مسجده . ومدرسته ، والمجتمع الإسلامى المثالى الأول . ومنها انطلقت الدعوة الإسلامية والمد الإسلامى إلى أنحاء العالم . وهذه مسئولية عظيمة خالدة ، فيجب أن تكون هذه البيئة أمينة للحياة الإسلامية ، مرآة صافية لها ، حتى يستطيع كل وارد إليها أن يلمسها ويتذوقها بسهولة ، لأن الله قد قضى أن تكون هذه الأرض مركز الحج إلى آخر الزمان ، ومثابة للمسلمين فى كل سنة ، ولهم الحق بأن يؤمنوا بأنهم يقصدون بلداً هو معدن الطهر ، ومولد الدين وعاصمة الإسلام الروحية والخلقية ، بعيد عن التيارات المعادية للإسلام ، والأخلاق المنافية لتعاليمه وتأثيره ، بُعداً يمكن وقوعه وتصوره فى هذا العصر المتطور ، لم يخضع للحضارة الغربية وقيمها ومثلها ، خضوع بلد واقع فى أقاصى العالم الإسلامى ، لايحمل هذه الشخصية ، ولا يضطلع بهذه المسئولية .

وأن يكون على شئ من البساطة والطبيعية ، وعلى شئ من التقشف فيستشعر فيه الوافدون من أنحاء العالم البعيدة ، الجو الذى كان المسلمون الأولون يقضون فيه

(١٣) راجع صحيح ملسم وكتب الحديث .

مناسكهم ، ويشعرون بشعورهم أو قريب من شعورهم ، وأن لا يبقى البيت وحده والحرم وحده ، جزيرة مختصة بالعبادة والتأمل والهدوء ، يموج حولهما بحر المدنية المادية الهائج ، تضرب أمواجه العاتية أسوارهما ، وقد تجوس خلال الديار .

التقاليد والعادات لا تستطيع أن تقاوم الحضارة الجديدة :

ولن تطول هذه الفترة ــ السلبية ــ فى أى قطر من أقطار الشرق، لأن التقاليد والعادات والجهاز الاجتماعى أو الإدارى الذى ليس وراءه عقيدة راسخة قائمة على فقه وبصيرة ، وليس معه ذكاء وألمعية ، والمقدرة الكافية على تطبيق الحقائق والمبادئ الدينية الخالدة على الحياة المتطورة وحاجاتها الجديدة والتمييز بين ما يصلح للاقتباس من الحضارة الجديدة ومنتجاتها وما لا يصلح ، لا يستطيع ان يقف طويلاً فى وجه هذه الحضارة العارمة ، وكل قطر أو قيادة تمنى نفسها بالاحتفاظ بالقديم والانحصار فى دائرتها من غير هذه المقومات التى ذكرناها ومن غير إيمان جديد قوى وعقل واع منتج مهددة بالانهيار عاجلاً أو آجلاً .

وإذ لم يكن الاقتباس من الحضارة الغربية ومرافقها ومنتجاتها عن إرادة وتصميم ، وباختيار وتمييز ، وعن فقه وبصيرة ، هجمت على هذا القطر أو المجتمع غصباً ، وعلى الرغم من قادته وولاة الأمر فيه ، وعلى الرغم من العلماء زعماء الدين، ورحَّب بها أهل البلاد ، وفتحوا لها الأبواب ، والتهموها – بصالحها وفاسدها – نهامة وجشعا ، واكتسحت القيم الدينية والخلقية وغُلِب قادة البلاد أو ولاتها على أمرهم ، وأفلت منهم الزمام إلى آخر الأبد .

لابد من التخطيط وإصلاح الأوضاع :

لقد أصبحت الأقطار الشرقية – من غير استثناء تقريباً – فريسة الحضارة الغربية فى الزمن الأخير ، وانحرفت فى سيلها العارم من غير امتناع ومقاومة ، لفقد العقل الراجح المتزن فى القيادة وفقد « عملية التمييز والاختيار المحكمة » فى الوجهين ، وعدم وجود التصميم أو التخطيط الحكيم فى نظام المعارف وتنظيم البلاد تنظيماً جديداً قائماً على التجارب الحديثة . وبسبب وجود نظم وأوضاع كانت نتيجة الانحراف عن التعاليم الإسلامية الصحيحة ، لا يقرها العقل والعدل ، ولا تصلح للبقاء فى أى عصر من العصور فضلا عن هذا العصر القلق الثائر .

أفغانستان :

وهذه قصة أفغانستان التى عُرفت فى الشرق بشدة محافظتها وتمسكها بالقديم والتقاليد الأفغانية القديمة ، فقد استطاعت أن تعيش بعيدة عن تأثير الحضارة الغربية ، محتفظة بتراثها القديم من ثقافةواجتماع ، تزهد فى الجديد الصالح مدة طويلة من الزمان ، ولقد كانت تقع بين روسيا والهند وكانت تحت الحكم الانجليزى وكانت تقع على أكتافها مسئولية عظيمة لوضعها الجغرافى والسياسى ، والاستراتيجى ، وتستهدف لأخطار عظيمة ، ولكنها - رغم كل ذلك - كانت بلداً متخلفاً فى مجال التعليم والصنائع ، والقوة الحربية ، لقد كانت بمعزل فى أوائل القرن العشرين وقد نشبت الحرب العالمية الأولى ـعن العلوم الحديثة ، والتنظيمات العصرية ، وعن كل مظهر من مظاهر التمدن الحديث ، وتقدم المدنية والتجارة فى العالم الحديث ، وهنا نلتقط بعض المعلومات عن هذه البلاد التى كادت تكون مجهولة للعالم الحديث من رحلة لشاب هندى مثقف [١٤] قام بها سنة ١٩١٥ م ، وعاش فيها عدة سنوات كمواطن ، وخاض فى سياستها وحركاتها الاستقلالية ، تلقى بعض الضوء على تخلّف هذه البلاد ، وانعزالها عن العالم المتمدن ، يقول ظفر حسن :

« قد كانت افغانستان متأخرة جداً فى مجال التعليم فى هذه الفترة التى قضيناها فى افغانستان ، لقد كانت نسبة المتعلمين من الشعب ، لاتزيد على اثنين فى المائة ، وكان جلُّ هؤلاء المعلمين قد تلقّوا ثقافتهم فى المدارس الدينية القديمة ، والكتاتيب ، لعلّ الملوك فى الزمن القديم ، كانو يخافون أن يتعلم أهل بلادهم فتتفتح عيونهم ، ويقودهم ذلك فى بعض الأحيان إلى الثورة على حكمهم المطلق المستبد ، فلم يكن يوجد فى عهد الأمير حبيب الله خان (الملقب بسراج الملة والدين) إلا ثانوية مدنية

---

(١٤) هو الأستاذ ظفر حسن إيبك أصله من كرنال الهند ، وكان من الشباب (المرجوين اللامعين) حمله العداء للإنجليز ولحماسته الدينية على أن يهاجر من الهند ، فسافر إلى كابل ، وأقام هناك ثمانى سنوات ، وحاز ثقة الملك نادر خان (القائد العام يومئذ) ثم سافر إلى روسيا ، فتركيا وأصبح ضابطاً للمدفعية فى الجيش التركى ولايزال هناك ، وصدرت مذكراته حديثاً فى باكستان ..

حكومية،وكانت تسمّى « مكتب حبيبية » ومدرسة حربية ابتدائية ، كانت تسمّى « مكتب حربية» ، وكانت هذه هى الخطوة الأولى التى قام بها الأمير حبيب الله خان فى عهده والذى يستحق أن يعتبر المؤسس الأول للنهضة التعليمية فى البلاد ، فقد كانت افغانستان فى عهد والده (ضياء الملة والدين عبد الرحمن خان) لاتعرف شيئاً من ذلك (١٥) .

ويقول فى موضع آخر :

« ولم تكن توجد فى غير كابل من المدن مدرسة جديدة ، كان التلاميذ يقرأون القرآن الكريم فى الكتاتيب ، أما الكتّاب الذين يشتغلون فى الإدارات ، والذين كانوا يعرفون فى افغانستان بلقب مرزا ، فقد تلقّوا ثقافتهم بأنفسهم واجتهادهم،وكانت ثقافتهم محدودة جداً ، وقد دخل التعليم الحديث فى افغانستان بعدما زار الأمير حبيب الله خان الهند فى سنة ١٩٠٥ م ، وكان لايزال هذا النظام فى دور الطفولة » (١٦) .

ويعرف مدى تأخر البلاد فى المدنية ، ووسائل الثقافة ممّا ذكره المؤلف المذكور استطراداً ، يقول :

« خرجنا نبحث فى جلال آباد عن الورق الذى نكتب عليه الرسائل ، والظروف التى نغلّفها فيها ، فعرفنا أنه لا يوجد فى البلد دكان يباع فيه القلم والدواة ، أو المرسم ، أما الورق فيباع فى دكان الجزّار ، أما القلم والدواة فلا وجود لهما فى السوق » (١٧) .

أما المصنوعات والبضائع التجارية التى لا يستغنى عنها بلد ، فقد كانت البلاد فقيرة فيها ، يدل على ذلك ما ذكره المؤلف ، يقول :

« كان فى كابل مصنع وحيد للأحذية الجديدة ، كان يسُدّ فى غالب الأحيان حاجة الجيش ، وكان لأهل البلاد نصيب ضئيل فيه ، وكانت الأحذية التى توجد فى أسواق كابل من صنع الهند أو انكلترا ، وكانت لاتوجد غالباً إلا المنسوجات الوطنية

---

(١٥) مذكرات ظفر حسن إيبك الجزء الأول ٥٤ – ٥٥ .

(١٦) أيضاً ٨٠ .   (١٧) أيضا ٦٧ – ٦٨ .

من صنع اليد ، أو ما صُنع فى المغازل البلدية ، أما الصوف ، فكانت له مصانع لا بأس بها فى « هرات » . كانت صناعة السجاجيد الصوفية راقية » .

أما المواصلات ، فيتحدث عنها الكاتب ، فيقول :

« لم تعرف افغانستان فى ذلك العهد الخط الحديدى ، وكانت الشوارع قليلة وبدائية ، أما الطرق المرصوفة ، فكانت محدودة فى مدينة كابل وحواليها ، ولم تكن القناطر على جانب كبير من الإحكام والمتانة ، وكانت تتضرَّر فى أيام المطر ، وكان الاعتماد الغالب فى الحمل والنقل على الخيل والبغال والجمال وكانت المركبات والعربات محدودة فى كابل وجلال آباد ، أما السيارات فكانت مخصوصة للأمير حبيب الله خان ، وكان الأمراء والوزراء يركبون الخيل غالباً فكانت عندهم الجياد العتاق فى اصطبلاتهم .

وكان نظام البريد بدائيا فى البلاد ، وكان يستخدم غالباً فى نقل المراسيم والبلاغات إلى حكّام الولايات والمديريات ، وكان الناس يحملون الرسائل إلى أصدقائهم وإخوانهم إذا سافروا من مكان إلى مكان ، فكان الناس لايلتجئون إلى مركز البريد إلّا فى النادر ، وكان البريد يأتى من الهند مرتين فى الأسبوع أيام الصيف ، ومرة فى الأسبوع فى فصل الشتاء ، وكان هذا البريد يحمل بعض الجرائد ، وكان بين كابل وجلال آباد خط تليفونى واحد ، وكان يشتغل جيداً أيام إقامة سموّ الأمير فى جلال آباد ، وكان مقصوراً على الأغراض الحكومية ، أما التلغراف ، فلم يكن له وجود فى البلاد » [١٨] .

أما ما كانت عليه البلاد من استعداد للحرب ، وما كانت تملكه من ذخائر ومعدات حربية ، وسلاح حديث ، فيظهر ذلك من وصف الكاتب لوضع البلاد فى هذه الأيام العصيبة التى كان العالم يواجه فيها حرباً عالمية كبرى ، وكان يمتد لهيبها إلى أفغانستان ، يقول ظفر حسن :

« كان سلاح الجيش الافغانى فى دور بدائىّ جداً . وكانت الفيالق فى العاصمة وحدها ، هى التى تحمل البنادق من الطراز الحديث ، وكانت عند الجيش

---

(١٨) مذكرات ظفر حسن إيبك الجزء الأول ٥٦ – ٥٧.

رشَّاشات محدودة ، وعدد من المدافع الحديثة ، وكان أكثر المدافع من الطراز القديم الذى يُشعل فيه الفتيلة ، ولم تعد تستخدم فى بلد راق متمدن ، ولم تعرف البلاد بعد نظام [إدارة الميرة للجيش] ، فكان أفراد الجيش يأخذون مرتبات شهرية لم تكن تكفى لأسرهم وعائلاتهم ، وكانوا مضطرين إلى أن يشتروا الدقيق ويطبخوا الخبز ، ويهيئوا الإدام ، ويجلبوا الحطب ، ويضيّعوا الشئ الكثير من أوقاتهم فى الطبخ وتهيئة الطعام »[١٩] .

أما العناية بالصحة والعلاج ، والوقاية من الأمراض والأوبئة ، فيعرف ذلك من الحقائق التالية :

« لم يكن يُوجد فى طول البلاد وعرضها إلّا مستشفيان فى كابل ، أحدهما مستشفى مدنى والآخر مستشفى عسكرى ،يُشرف على الأول طبيب تركى ، وعلى الثانى طبيب هندى من لاهور »[٢٠] .

وفيما قدّمنا كفاية لمعرفة تخلُّف هذه البلاد فى المدنية ، وعن ركب الحياة فى العالم المعاصر .

وقد كانت هذه الحال فى افغانستان حين طفرت طفرة واسعة إلى الحضارة الغربية ، ورفعت الحجاب بينها وبين الحضارة أخيراً ، وبدأت تهجم على الحضارة الغربية وعاداتها وتأخذها بنهامة وشغف .

وقد حدثت هناك ثورة فى الاوضاع فى خلال ٣٢ سنة ، فالمجتمع الافغانى الذى ثار على أمان الله خان الامير العريق فى الملك والشرف لأجل اصلاحات وتطويرات قام بها ، اضطرته تلك الثورة إلى التنازل عن العرش والجلاء الدائم ، وأصبح هذا المجتمع الأفغانى يُقبل إلى المدنية الحديثة وأوضاعها المخالفة للتقاليد الإسلامية الافغانية بخُطى سريعة واسعة ، وأصبحت أفغانستان المحافظة المصون تتطور تطورا سريعاً لايعرف أحد مداه ونهايته ، ويستطيع الإنسان أن يُقدِّر ذلك بما نقدمه من تقرير لأحد الصحفيين الأوربيين ، يقول المراسل الأوربى الشهير Ritcdie Golder

---

(١٩) أيضاً :٥٩ .

(٢٠) أيضاً : ٦٣

للصحيفة الهندية الانجليزية Times of India وقد حضر عيد الاستقلال الأفغانى عام ١٩٦٣ م فى عددها الصادر - ٢٨يوليو ١٩٦٣ م - :

« إن الألعاب النارية الواسعة النطاق (التى لم أرها فى أفغانستان من ذى قبل) كانت تثير هتافات وتصفيقات نصف مليون متفرج ، وهكذا كانت أفغانستان تحتفل بأسبوع عيد استقلالها ، وقال لى وزير خارجية أفغانستان (الذى كان بجوارى على المقاعد الملكية على شاطئ البحيرة حيث كانت الألعاب النارية متواصلة مستمرة) : إنك لم تحسن اختيار الوقت الذى تزور فيه هذه البلاد ، نحن نحتفل الآن بعيد الاستقلال ونحن فى متعة وفرح لانستطيع أن نتحدث معك عن تفاصيل مشاريعنا التقدميّة لخمس سنوات .

قلت له :« لا ياصاحب المعالى !إنها فرصة حسنة لائقة وهى أفضل مناسبة لاختبار مآثر بلادٍ ومدى تقدمها ، اننى أُريد أن أرى السيدات الأفغانيات باسمات » وهنالك تقدمت إلينا فتاة أفغانية جميلة وابتسمت .

إن ذلك يلقى ضوءاً على مدى التطور الذى نشأ فى أفغانستان أقوى من الأضواء التى تنير كابل ، بالتخطيط الكهربائ ، ومن مبانيها كلها والصناعات الحديثة ومن الرقى المادى كله .

كانت نساؤها متمسكات بالحجاب قبل ثلاث سنوات ، وإن سمح لهن أن يخرجن لمثل هذه المناسبات ، فكن يأتين إليها متغطيات بالملاءة والأردية التى تغطيهن من الأرجل إلى الرؤوس ، ويخفى وجوههن القناع الذى فتحت فيه ثقوب للنظر .

ولكن الآن تغير كل شئ ، ويشاهد اليوم عدد كبير من النساء اللواتى يشهدن الحفل مستترات بالأقنعة التى تميزهن.ولم يتعودن إلى الآن أن يكشفن وجوههن بحرية وانطلاق ، ولكن الأغلبية الساحقة من النساء أصبحن سافرات .

يعسر على الذين يسكنون خارج افغانستان أن يقدورا مدى تأثير هذا التطور على نساء الأفغان ، قد خلع العلماء الملك أمان الله خان وحرم عرش آبائه قبل ٣٢ عاماً لأنه سمح لعقيلته بأن تخرج سافرة .

ويصح أن يقال أن إلغاء الحجاب السائد فى المجتمع إنما جاء عن طريق نظام القابلات ودور الولادة الطبية ، وعندما حلت الدكتورة ايناميرياجيد (Anna Maria gada) (وهى الآن رئيسة المركز الاقليمى لدائرة الصحة الدولية بدهلى) افغانستان من الدانمرك قبل عشر سنين ، ولم تكن هناك فى ذلك الحين طبيبة للتوليد ، وكان فى افغانستان كلهامئة وعشرون طبيباً وكلهم كانوا رجالًا ولم يسمح لطبيب أن يفحص النساء ، ولم تكن القابلات المحلية يعرفن بتاتاً طرق المعالجة الحديثة .

بدأت الدكتورة جيد تربى النساء وتعلمهن القبالة ، وكانت تشترك معها سيدات الأسر الملكية أيضاً ،وأُقيمت مراكز التوليد والصحة ، وبدأت تتردد عليها النساء المحجبات كثيراً ولم يتمتعن هناك بفوائد جسمية وصحية فحسب ، بل نشأ بذلك تطور ثورى وتغير جذرى فى التفكير وأساليب الفكر والنظر ، بل عرفن بعد الاجتماع مع الطبيبات والقابلات أن النساء يستطعن أن يكسبن أرزاقهن أيضاً بهذه المهنة كالرجال ، واسترعت هذه المراكز الطبية انتباه المريضات إلى خطورة شخصياتهن وشعرن انهن لسن من أثاث المنازل الذى يبقى فى زوايا البيت ولا يرى ضوء الشمس .

وقد أُسست اليوم مستشفيات راقية ممتازة لهؤلاء النساء وألقيت مسئولياتها وإدارتها على كواهل نساء أحرزن شهادات عالية ، يتمسكن بقوانين الصحة وأسسها القوية الحسنة وبغاية من النظافة والأناقة ، ويراعين تلك التقاليد التى تركتها الدكتورة (جيد) ويرتبطن بها ارتباطاً وثيقاً .

بدأت نساء الأفغان يخرجن سافرات من آب (أغسطس) عام ١٩٥٩ م اثر منشور ملكى سمح للنساء بالسفور ولم يفرض ذلك عليهن فرضاً ، سألت السيدة معصومة الكاظمى وكانت قد تخرجت من جامعة كابل بشهادة الليسانس الداخلية فى الطب وكانت صورة حية للظرف وخفة الروح مليئة بالحياة: ماذا فعلت بعد صدور هذا المنشور ؟ ..

قالت : إننى وأختى طرحنا الملاءة وأردية القناع فى التنور وسجرناها وحلفنا أننا لا نرجع إليها أبداً ، إن معصومة وأختها فيروزة ابنتا صاحب مصرف وأنهما ستكملان دراستهما الطبية وتحرزان شهادة الدكتوراه فى سنة ١٩٦٥ م ، وسيتخرج

الفوج الأول للطبيبات بعد إنهاء مناهج الطب لسبع سنوات عام ١٩٦٤ م .

ويوجد التعليم المختلط فى جامعة أفغانستان اليوم ، وكانت الطالبات فى السابق ، يأتين متغطيات بالأردية والملاءة الساترة ويدرسن فى الصفوف المستقلة المنقطعة عن الطلاب ، والدراسة والتربية فى الجامعة مجانية ، تدفع الحكومة الرسوم الجامعية والكتب والملابس والأطعمة ، وسيتخرج عدد كبير من الطالبات من الجامعة ويُعين معلمات فى الجامعة ، والجامعة الآن فى حاجة ماسة ملحة إلى الأساتذة الرجال والنساء ، لأن الدراسة فى الجامعة تعتمد إلى حد كبير على الاساتذة الأجانب [٢١] .

وقد اتفق للمؤلف أن يزور أفغانستان فى سنة ١٣٩٤ هـ (١٩٧٤ م) وأن يشاهد الأوضاع هناك بعينه ، وقد أبدى الملاحظة التالية فى رحلته التى أسماها « من نهر كابل إلى نهر اليرموك » يقول فى هذا الكتاب ، وقد ذكر حديثاً مع السيدات الأفغانيات المتجددات :

« لاحظنا أن المدنية الغربية قد قطعت شوطاً بعيدا فى هذه البلاد ، وأن الثقافة الغربية قد آتت أُكلها يانعة ناضجة ، وأن المسافة بين الفترتين ١٩٢٨ - ١٩٧٣ م كانت واسعة بعيدة فقد كان الشعب الأفغانى إلى عهد أمان الله خان متمسكا بالتقاليد الإسلامية الأفغانية عاضاً عليها بالنواجذ ، حتى بلغ فى ذلك حد التطرف والمغالاة ، وكان نتيجة ذلك أن خروج الملك أمان الله خان عن بعض هذه التقاليد أحدث ثورة أطاحت بعرشه ، أما الوضع الآن فمختلف جداً ، إنها مسافة قصيرة بالحساب الرياضى ، وهى مدة خمس وأربعين سنة ، ولكن المسافة الفكرية والثقافية ، هى مسافة شاسعة يقطعها بعض الشعوب فى قرن ، فقد أصبح الحجاب الآن رمزاً للتخلف والجهل والفقر ، ولذلك انكمش ولجأ إلى القرى والأرياف ، وبيوت بعض العلماء المحافظين والفلاحين البعيدين عن العاصمة : .. وعلى كل فقد اتسعت الفجوة بين الطبقتين ، طبقة العلماء ممثلى الدين والطبقة المثقفة ، واتسع الخرق على الراقع [٢٢] .

---

(٢١) Times of India, 28 July 1963 (٢٢) ص ٢٦ - ٢٧ ، طبعة دار الهلال . بيروت .

« وكانت المناقشة في ندوة نسوية في « كابل » حادة في موضوع الحجاب ، وتعدد الزوجات وحق الرجل في الطلاق ، وقد دل كل ذلك على القلق الفكرى الشديد الذى يوجد فى المجتمع النسوى الأفغانى ، ومدى تأثير الدعاية الاجنبية فى ثقافته [٢٣] .

وفى عام ١٩٧٨ م اطيح بنظام الجنرال داؤد خان فى انقلاب عسكرى وتولى العنصر الاشتراكى فى الجيش زمام البلاد بعد حرب داخلية ، واضطهاد وارهاب للناس ، وقامت علاقات خاصة بين هذه الحكومة وبين الاتحاد السوفياتى واعتقل العلماء والشباب المسلمون ، واستهدفوا للتنكيل والتعذيب ، والقتل والتشريد ، ونتيجة لهذا الظلم والاضطهاد ولحمية الأفغان الدينية وغيرتهم على الاسلام ، وحبهم للدين ثارت فيهم مقاومة شديدة ضد النظام الشيوعى فتدخلت روسيا ، ثلاث مرات ، وغيرت حكام البلاد ، فلم يغن ذلك شيئاً ، فزحفت بجيوشها واستولت على البلاد مباشرة وتولت زمام الأمور ، فأثار هذا التدخل ادانة معظم البلدان فى العالم لروسيا ، واعتبر هذا التصرف عدوانا سافرا ، واعادة لذلك العصر الذى كان يزحف فيه بلد قوى الى بلد ضعيف ويخضعه بقوته وسطوته ، ويستعبده لمصلحته .

إن هذا الأجراء الذى لا يوجد له نظير فى السنوات الماضية أثار احتجاجا خلقيا عالميا ضد السوفيات ، وكان صدمة عنيفة لدعاوى الشيوعية الصارخة للمساواة الانسانية ، وحماية المظلومين ، وأورثت فى قلوب البلدان الصغيرة المسالمة الأبية — التى تحتفظ بعقائدها وتقاليدها ومنهج حياتها الخاص — خوفا وارتيابا وقلقا ، ولعل الله يحدث بعد ذلك أمراً .

اليمن :

وتكاد تكون هذه قصة اليمن ، وجميع الأقطار الإسلامية التى أقامت حولها سوراً عالياً يمنع من دخول كل جديد ، من العلوم المفيدة والتنظيمات الصالحة ، والوسائل البريئة وطرق ترفيه الشعب ، وتقوية البلاد عسكرياً وصناعياً وتموينياً .

---

(٢٣) أيضاً ، ص ٢٩ .

وتستطيع أن تقدر إلى حد ما حالة اليمن ، ومشاريعها التقدمية ونظمها الادارية الداخلية وعلاقاتها الدولية ، وسيرها فى مضمار الحياة الراقية الحديثة إلى عام ١٩٥٥ م ، من المعلومات التالية التى التقطها المشرف على ركن الشؤن العربية فى مجلة « روزاليوسف » الأسبوعية المصرية « الأستاذ ممدوح رضا » فى مقابلة صحفية مع نائب وزير خارجية اليمن السيد محمد عبد الله العمرى ، ونشرتها الصحيفة فى عددها الصادر فى ٧ فبراير (شباط) سنة ١٩٥٥ م محادثة جرت بينهما ، ونصل منها إلى حقائق تالية :

« لم يجر فى اليمن إحصاء عام منظم إلى عام ١٩٥٥ م وكانت وسائل الدخل مقصورة على الضرائب والجمرك ، وكانت الزراعة وحدها وسيلة العيش والحياة لسكانها ، وللرى طريقان اثنان فحسب : الأمطار والآبار ، وكانت ميزانية البلاد السنوية خمسة عشر مليونا ، وكان رصيد البلاد وثروة الامام الخاصة لاتتجاوز ٨٠ مليون جنية .

ولم تكن فى البلاد شوارع عامة ، وفتح شارع طويل يمتد ١٢٠ كم بين البلدين « مخا » « تعز » قبل زمن يسير ، ولم يكن تاماً مبلطاً إلى سنة ١٩٥٥ م .

وكان ستمائة كتاب فى البلاد ، وكانت مدارس ابتدائية فى جميع المدن ما عدا هذه الكتاتيب ، والمدارس الثانوية فى تعز ومخا والحديدة ، وكانت للجيش أنواع ثلاثة ، والعسكر الذى كان يؤدى خدماته يتكون من ستة ضباط ، والعسكر الثانى الذى ترك بعد التدريب للاحتياط والأعمال العرفية ، كان يتكون من ١٤ ضابطا وكان عشرون ألف جندى من القبائل المختلفة ، والحيوانات هى وسيلة المواصلات ، وكانت بعض السيارات الخاصة فى البلاد ولم تكن أية طائرة عسكرية ، وكانت إحدى عشرة طائرة فحسب ، بينها ثلاث طائرات من قسم « داكوتا » ولم يكن فندق ولا مطعم فى البلاد ، ولا معمل ولاالشرطة ، وقد اتفقت الحكومة مع بعض الشركات الأوربية للتنقيب عن الفحم والبترول والزيت » .

إن هذا الانحطاط والتخلف للبلاد وظروف الدنيا المحيطة بها ونهضة البلدان المجاورة لها اضطرت الحكومة إلى أن تأخذ ببعض أسباب الرقى والتطوير والإصلاح ، وكان لذلك سبيل واحد هو المساعدات من البلاد الراقية ، فاتفقت حكومة اليمن مع الاتحاد السوفيتى وجمهورية الصين الشعبية بمعاهدات مختلفة ، ومنحت تلك الدول

حكومة اليمن قروضاً ضخمة ، تولت مسؤوليات بعض المشاريع الإنمائية الخطيرة ، ولذلك قبلت الصين عام ١٩٥٨ م على اثر معاهدة أن تدفع لليمن سبعين مليوناً من الفرنك السويسرى ، بدون الربا والمنافع ، وتنفق فى المشاريع التالية :

١ – فتح شارع بمسافة ٥٠٠ كم ، ويصل الحديدة بصنعاء .

٢ – تأسيس معمل للسكر .

٣ – معمل للأسماك المجففة .

٤ – تأسيس معمل للأقمشة .

٥ – تأسيس معمل للزجاج (٢٤) .

لم يكن مصير هذا التخلف والبعد عن الركب النشيط المتحرك السائر (الذى لم يكن مؤسساً على المشروع والتخطيط المحكم ولا منبعثاً من الثقة والعاطفة الدينية ، ولكن من الكسل والفتور والجهل الذى خيم على هذه البلاد المنجبة الغنية زمناً طويلا) إلا أن يفتح هذا الباب المغلق على مصراعيه بفعل العواصف والتيارات الجارفة ، فلا يميز بين الصالح والطالح والحابل والنابل وبين القشور واللباب ، ويجرف تيار الحضارة الحديثة والنظم الجديدة بمحاسن النظام القديم والأفكار الصالحة والقيم السليمة ، ويصاب اليمن (الذى كان يسمى « اليمن الميمون » وشهد بقوة إيمان أهله ، وحكمتهم الدينية ، اللسان النبوى الصادق بكلمات يغبط عليها اليمن كل قطر وكل بلد إسلامى ، فقال فى مناسبة قدوم وفد من اليمن : « أتاكم أهل اليمن أرق أفئدة وألين قلوباً ، الإيمان يمان ، والفقه يمان ، والحكمة يمانية » (٢٥)) يصاب هذا البلد العريق فى الإيمان والحكمة والعلوم الدينية ، بالاضطراب الفكرى والخلقى والسياسى ، ويصبح ضحية الاشتراكية ، والحروب الطاحنة والثورات المتوالية .

وقد أبدى مؤلف هذا الكتاب قبل أن تحدث هذه الثورة فى أوضاع اليمن بإحدى عشرة سنة تخوفه وإشفاقه من هذا المصير الذى سار اليه اليمن أخيراً ، فى

---

(٢٤) اليمن – للاستاذ أمين سعيد ص ٢٨١ .
(٢٥) صحيح البخارى .

حديث جرى بينه وبين سيادة القاضى محمد عبد الله العمرى وكيل وزارة الخارجية اليمنية ، وذكر له الطريق المتزن المتوسط الذى يجب أن يسلكه اليمن فى الاقتباس من الحضارة الغربية ، الذى يستطيع وحده أن ينقذ البلاد من التطرف المتهور الذى وقعت فيه الأقطار الإسلامية الأخرى ، وكان هذا الحديث فى فندق « قصر الجزيرة » فى القاهرة ، وهنا ننقل قطعة من كتاب « مذكرات سائح فى الشرق العربى » للمؤلف :

يقول الكاتب فى مذكرة يوم الثلاثاء ٧/٥/٧٠ هـ ١٣/٢/٥١ م بعد ما يذكر لقاء لسعادة وكيل وزارة الخارجية اليمنية وما جرى بينهما من تحية واحتفاء وحديث تمهيدى :

« قلت لسعادته : إن الأقطار العربية قد أصبحت لا تملك من أمرها شيئاً فهى مندفعة مع التيار الغربى وليس لها الخيار ، أما اليمن فلا يزال على اختياره ولايزال يملك أمره ، فأرجو أن لا يستعجل ولا يتهور فى الاقتطاف من الحضارة الغربية ونظم تعليمها ومنهج حياتها ولا يتساقط عليها تساقط الظمآن على الماء ، أو الفراش على النور ، فيختار منها ما يوافق حياته ودينه وطبعه ورسالته ، ويدع فضولها وشرورها ، وقد عاش اليمن فى العزلة عن العالم وهو يعتقد أنه تخلف عن الركب ، فأخاف أن يستعجل السير ليلحق بالقافلة فيعثر أو يضل الطريق ، ويقع ما لا يمكن تداركه ولاتقال عثرته .

قلت : ودعامة الحياة الصحيحة عندى فى البلاد الإسلامية وجود الشعور الدينى الصحيح القوى فى الشعوب ، ولايكون هذا إلا عن طريق الدعوة العامة والاتصال بالشعب وتربيته الدينية ، وإيجاد الوعى فى طبقاته .

والدعامة الثانية : منهاج التعليم الصحيح ، والجمع بين العلم المأخوذ من الوحى والنبوة الذى لا يتطرق إليه الخطأ ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وهو علم كل عصر وأساس كل حياة ومدنية فاضلة ، وبين العلوم الطبيعية والمعلومات العصرية ، والتجارب والاكتشافات التى سبق إليها الغرب وانتصر بها على الشرق .

وأرجو أن يوفق اليمن للجمع بين هاتين القوتين ، وإذ نرجو أن يكون له شأن

غير شأن الأقطار العربية الأخرى التى أصبحت لا اسلامية ولا أوربية(٢٦)

وقد أبدى مثل هذه الانطباعات مؤلف غربى W. Erichbethmann. فى كتابه « اليمن على العتبة » Yeman on the threshold وقد زار هذا المؤلف اليمن فى عام ١٩٥٩ م فى عهد الامام أحمد عندما كانت أبوابها مغلقة للنهضات الجديدة ، وقد أعرب هذا المؤلف عن فرحه وتخوفه بالكلمة التالية :

« — إن الناس هنا يبدون فرحين مستبشرين رغم أنهم لا يملكون كثيرا من مرافق الحياة ووسائل الترفيه ، ولايحنّون إليها كذلك ، وقد حاول المرحوم الإمام يحي والإمام أحمد الحالى(٢٧) أن يظل الباب مغلقاً لكل جديد مع شعورهما بأن تيارات العصر الحاضر الجارفة ستحدث فى حياة اليمن — التى اعتادتها — كثيراً من التطوير الذى يأتى بنتائج خطرة ، ونجحا فيه إلى حد كبير ، ولكن يُشك فى أن تبقى هذه الأوضاع إلى مدة طويلة .

إن العصر الحديث يقرع أبواب اليمن ، وقد دخلت الطائرات والسيارات ، والهاتف والإذاعة والأضواء الكهربائية فى البلاد ، وستصلها الأشياء الأخرى على إثرها. سيحدث هذا الاصطدام تبلبلا عظيماً وستدخل مرحلة انتقالية ولاندرى أن هذه المرحلة ستمر بدون اضطراب ، أم تنشىء فى البلاد الفوضى والقلق ؟ يعتمد ذلك إلى حد كبير على السبل التى يختارها ، والخطوة التى يخطوها اليمن لتأليف حكومة على طراز جديد ، تكون مؤسسة على التنظيم الاقتصادى العصرى ! يجب أن تقطع هذه المرحلة الانتقالية تدريجاً إلى حكمة بليغة وبصيرة نافذة ، وأن تكون الخطوات البدائية متزنة والطرق التى تتخذ لتقدم البلاد سليمة مستقيمة(٢٨) .

وبعدما ذكر المؤلف المشاريع والنظم والتطورات الجديدة الرئيسية الهامة التى يتخذها لتدعيم البلاد ، ويتحدث عن الخبراء الفنيين الذين يستطيعون أن يقدموا لبناء البلاد القويم المحكم وترقيتها اقتراحات صحيحة مخلصة ، يدعو إلى الانسجام السليم

---

(٢٦) مذكرات سائح فى الشرق العربى ٧٠و٧٢   (٢٧) قد توفى أيضاً رحمه الله .

(٢٨) Yeman on the threshold P. 71

بين المادية والروحية ونهضة البلاد المقتصدة ، الذى كان متوقعاً من مفكر مسلم شرقى أكثر من عالم غربى ، فيقول :

« – لاريب أن اليمن سيحاول للرفاهة والسعادة فى نطاق الاقتصاد محاولة جادة ، ولكن يجب أن يكون ذلك مع المحافظة على التراث الدينى والروحى القيم ، ولايستطيع الرقى المادى وحده أن يداوى الأمراض الإنسانية ، وأن يمنح الإنسان السرور والطمأنينة بسرعة ، تجرب ذلك البلاد التى وصلت إلى القمة فى الرقى والنهضة كل يوم بكل أسف وحزن ، وحينما يحافظ على القيم الإنسانية الأساسية ويحتل التراث الدينى والروحى مكانة مرموقة فى ضمائر الأفراد (الذين تتألف منهم الأمة) يصبح الرقى المادى نعمة كبرى ، وتثرى كل ناحية من نواحى الحياة .

إن اليمن يصبح « جنة عدن » لبلاد العرب التى يعيش فيها الناس بكل طمأنينة وهدوء إذا احتفظ بحكمته البليغة وبتراثه الروحى الثمين واقتناء قدر من الرقى المادى الذى يحتاج اليه وينسجم مع حياته وظروفه ، ويستطيع أن يساهم اليمن بهذا الانسجام الحسن بين الحكمة والنهضة مساهمة مقتصدة ليس فى ترقية العالم الإسلامى فحسب ، بل فى ترقية العالم كله على الجملة (٢٩) .

ولقد كان الوعى الإسلامى كافياً وكافلا لإصلاح هذه الأوضاع ،ولكنه كان ضعيفاً أو مغلوباً على أمره ، حتى جاءت هذه الحضارة المادية الثائرة تنادى فى شئ كثير من الغلو والإسراف بالحرية والمساواة ، وتدعو إلى قلب الأوضاع القديمة مهما كانت ، فتفشى القلق والتذمر فى هذا المجتمع ، قوى الشعور وتضخم بفساد هذه الأوضاع وعدم صلاحيتها للبقاء وجاشت النفوس بالكراهة والثورة على الأوضاع القائمة مهما كانت عاقبتها ، وهذا سر ظهور الثورات العسكرية فى الاقطار الإسلامية ... ثورة بعد ثورة وحكم عسكرى على إثر حكم عسكرى آخر .

وتولى زمام الدولة بعد وفاة الامام احمد فى شهر سبتمبر عام ١٩٦٢ م ابنه الامام بدر ، وكان قد رحل الى مختلف بلدان العالم فى عهد والده ، كوزير للخارجية ،

---

(٢٩) Yeman on the threshold p. 74 .

وسافر عدة مرات إلى أوربا ، وشاهد التطورات الجديدة فى العالم الحديث عن كثب ، فكان جديرا بأن يعرف الأوضاع المتغيرة أكثر من غيره ، إلا أن سلطته لم تدم أكثر من أسبوع ، ولم يكتب للتاريخ أن يشهد أعماله ومآثره ، وثار عليه عبد الله السلال رئيس الحرس الوطنى بايعاز من حكومة مصر الثورية وكان يسانده جمال عبدالناصر رئيس الحكومة المصرية الثورية فاختار حاكم اليمن الجديد سياسة عبدالناصر الاشتراكية التجددية ، وبدأ المحاولات المتواصلة لقلب اليمن وتغييرها تغييرا سريعا ، وقد كان هذا التغيير على اساس العلمانية والالحاد فظهرت صبغة المدنية الجديدة فى تلك الجوانب والطبقات التى كانت تتأثر بالحكومة الجديدة ، وتنفعل بها بسرعة ، وكان ظهور هذا النمط الجديد والصبغة الجديدة فى حياة المدن أبرز وأوسع من ظهورهما فى القرى والأرياف ، إذ أنها كانت تحت سلطان قادتها وزعمائها القدامى ، فلم تستسلم أمام الحكومة الجديدة ، ولم تقبل أى تغيير .

وأنتج ذلك نشوء جبهتين متعارضتين ، جبهة التجدد والثورة التى أمسك بزمامها القادة المتجددون الماديون ، وكان على رأسهم امامهم جمال عبد الناصر ، والجبهة الثانية جبهة المحافظين المتمسكين بكل قديم ، وكان يساندهم عن طريق الامام بدر ، الحكام السعوديون واستمر هذا الصراع بين الجبهتين فى المجالات العسكرية والفكرية أعواما وسنين ، وجر هذا الصراع دمارا رهيبا على البلاد ، وخسرت القيم الاسلامية والمثل الدينية ،وتضررت حيث كانت سيطرة الحكومة الثورية ، ولكن حظيت البلاد فى نفس الوقت بوسائل جديدة وتسهيلات مدنية كثيرة واتجهت حياة المدن الى التطور والرقى ، ولكن كانت الشقة واسعة بين القديم والجديد ، ولم يكن بينهما طريق وسط ، يربط القديم بالجديد ، وأثرت الطبقة الجديدة – لسيطرتها العملية ، ونفوذها فى الحكم – تأثيرا بالغا ، ولم تزل هذه الطبقة تحاول جهدها فى صبغ البلاد بصبغة العلمانية المحضة ، بل بصبغة الالحاد ، وكان على الطرف الآخر طبقة الجمهور غير المتعلم ،وزعماؤه الرسميون التقليديون ، الذين تربوا وتثقفوا فى الكتاتيب والمدارس القديمة التى لم تكن لتناقش قضايا العصر الجديد ومشكلاته ، وتحدياته ولا تفكر فى اتخاذ الوسائل الناجحة الملائمة للظروف والمقتضيات العصرية ، لمقاومتها وسدّ سيلها العارم ، وكانت مناهجها الدراسية ، عاجزة عن إعداد رجال أكفاء يتفطنون لفتن العصر فى أوانها ، ويتخذون الاجراءات المؤثرة للقضاء عليها ، فظلت

القيم والأفكار التى كان يحملها هؤلاء القادة الدينيون ، تفقد مكانها وسيطرتها على النفوس .

وتقع فى جنوب اليمن منطقة عدن ، وحضرموت التى كانت — لحقبة من الزمن — تحت سيطرة الانكليز ، ونشأت فى أيامهم هناك طبقتان متعارضتان. ولما نالت هذه المنطقة الاستقلال ، وانضمت الامارات والمشيخات السبع عشرة المتوزعة تحت لواء واحد باسم اليمن الجنوبية ، وبدأت تخطو بتأثير الانكليز نحو المدنية الحديثة ، والتقدمية المزعومة ، وفى خلال شهرى أغسطس وأكتوبر عام ١٩٦٧ الميلادى قامت هناك ثورة على أيدى الاشتراكيين المتطرفين ، فأعلنت عقب ذلك حرب عوان — بقيادتهم فى هذه المنطقة على جميع القيم والتقاليد القديمة ، والحياة الاسلامية ، ووقعت هذه المنطقة الاسلامية نتيجة هذه التصرفات الجديدة ، والاجراءات التعسفية ، بعد أعوام قليلة فى إلحاد سافر ، فقامت الدعايات للنزعات الالحادية ، واستهزىء بالشعائر الدينية ، وبدأت العملية لاستئصال القيم الدينية والمثل العليا من جذورها ، وظهر للقضاء على الحياة الاسلامية من الطرق والوسائل ما لاتجدها فى البلدان الكافرة الملحدة ، ويجرى تنفيذ هذا المخطط تحت قيادة الاشتراكيين الذين لا يشكلون عدداً كبيراً فى المنطقة ، ولكن سيطرتهم على الجيش ومنابع القوة أعطتهم تأثيراً بالغا بعيد المدى .

أما اليمن الأصيلة التى تسمي جمهورية اليمن ، فهى أحسن حالا وأخف وطأة بما للمملكة السعودية عليها من تأثير سياسى واقتصادى .

وتسمى المنطقة الجنوبية التى تشتمل على عدن وحضرموت باليمن الجنوبية واليمن الديمقراطية ، حيث يسود ما أشرنا اليه آنفا من صراع وحرب تقوم على قدم وساق ضد الدين ، ولحكامها وقادتها علاقات وثيقة مباشرة بالسوفيات ، والبلدان الاشتراكية الأخرى ، ينتظرون منها التعاليم والارشادات ، ويرجون منها العون والمدد .

سبب حدوث الثورات فى العالم الاسلامى وعلاجه :

ولعل العالم الاسلامى كان أكثر استعداداً وتهيؤا لهذه الثورات لوجود الوعى الدينى الذى يبعث على القلق والانكار فى هذه البلاد أكثر من أى عالم آخر أو مجتمع آخر ،

أو لفساد الأوضاع فيه أكثر من أى ناحية ، وما دام التخلف فى الحياة والقوة ، وما دام الفقر المدقع فى بعض الطبقات الذى لا يجد معه صاحبه ما يقيم الصلب ويكسو العورة ويمسك الرمق ، وما دام الثراء الفاحش ، والاكتناز المحرم ، والعبث بالأموال إلى حد السفاهة والجنون ، وما دام الترف والفجور والاستهتار فى طبقات الأمراء والأغنياء تروى قصصه المضحكه المبكية فى كل ناد وكل صحيفة ، وما دام الجهل ضارباً أطنابه على الشعب ، وما دام العلماء وزعماء الدين يتقاصرون عن أداء واجبهم الدينى ، وإزجاء كلمة الحق أمام الأقوياء والأغنياء ، ويتنافسون فى المناصب والوظائف ، ويتصارعون على التافه من الخلافيات ، والخسيس من المادة ، وحكاياتهم تروى وتتناقل ، وما دامت التربية الدينية والأمثلة العملية – فى الورع والزهادة وسمو النفس والشجاعة الدينية – مفقودة ، أو نادرة فى حكم المعدوم ، وما دامت الدعايات والدعوات تتسرب إلى المجتمع وتجد مرتعاً خصباً فى النفوس ، وأدلة ومؤيدات فى الأوضاع ، وما دام هذا الوضع غير الطبيعى وغير الإسلامى سائدا فى هذه الأقطار الإسلامية .

وكان وضع كثير من الأقطار الإسلامية كما صوره شاعر تركيا الإسلامى الكبير محمد عاكف فى إحدى قصائده وهو قوله :

« – يسألنى الناس : إنك كنت فى الشرق مدة طويلة ، فما الذى شهدت ياترى ! وماذا عسى أن يكون جوابى ؟ إننى أقول لهم :

إننى رأيت الشرق من أقصاه ، فما رأيت إلا قرى مقفرة ، وشعوباً لا راعى لها ، وجسوراً متهدمة ، وأنهاراً معطلة ، وشوارع موحشة ، إنما رأيت وجوهاً هزيلة متجعدة وظهوراً منحنية ، ورءوسا فارغة ، وقلوباً جامدة ، وعقولا منحرفة ، رأيت الظلم والعبودية ، والبؤس والشقاء ، والرياء والفواحش المنكرة المكروهة ، والأمراض الفاشية الكثيرة ، والغابات المحرقة ، والمواقد المنطفئة الباردة ، والحقول السبخة القاحلة والصور القذرة ، والأيادى المعطلة ، والأرجل المشلولة ، رأيت أئمة لاتابع لهم ورأيت أخاً يعادى أخاه ، ورأيت نهاراً لاغاية له ولا هدف ، ورأيت ليالى حالكة طويلة لا يعقبها صباح مسفر ونهار مشرق » .

فإنهامهددة – لا محالة – بالفوضى الخلقية والسياسية ، معرضة للثورات

العسكرية أو الشعبية ، واقفة على فوهة بركان ، متهيئ للانفجار فى أى وقت كان .

ولا يمنع من ذلك سلطة قوية أو عقاب صارم ، أو محاسبة دقيقة ، أو مراقبة تحاسب الناس على الأنفاس ، وتتبع الخواطر والهواجس ، ولادعايات صحفية أو إذاعية و لابذل أموال طائلة على أصحاب الأغراض والمطامع ، ولا مآدب سخية فى السفارات ولامشروعات ترضى أصحاب العاطفة الدينيةولا المؤتمرات العالمية الاسلامية والندوات العلمية الدينية التى يعلن منها ارتباط هذه الدول بالاسلام وشغفها به . إنما سبيله مواجهة الحقائق بشجاعة وعلم ، وإصلاح الأوضاع بإخلاص وصدق ، وإزالة ما يجب إزالته من الفساد . وتحقيق ما يجب تحقيقه من المطالب . وتحقيق العدالة الاجتماعية كما أمر الإسلام وثبت فى صريح القرآن وصحيح السنة . والسعى الحثيث لرخاء الشعب . وأن يجد كل فرد من أفراد الشعب – بقدر الإمكان – قوته ، ومنع البذخ الذى يحول بين الشعب وقوته و « حاجياته » . وان يسبك نظام المعارف سبكا جديداً يتفق مع عقيدة هذه البلاد ورسالتها . مع تطور العصر الحديث وعلومه الجديدة . ويخلق فى الجيل الجديد الإيمان والخلق والاستقامة والثقة بالنفس . والاعتزاز بالدين والحماسة فى سبيله . ويخلق فيه روح الابتكار والاستقلال الفكرى . والعصامية ومواجهة الغرب بشجاعة وذكاء . وإعادة الروح الدينية والايمان القوى . والشعور الخلقى والوعى الاسلامى فى الشعب . وإزالة القلق والتذمر بإزالة أسبابهما ودواعيهما . وبإصلاح الأوضاع والسير والاقتباس من الغرب ما يصلح الأوضاع والسير والاقتباس من الغرب ما يصلح لشعب إسلامى . ويتفق مع عقيدته السمحة . وما له قيمة عملية إيجابية وما يقوى الشعب وينفعه فى كفاح الحياة والمجد والدعوة إلى الله .

هذا هو السبيل الوحيد لإقرار الأمن والسلام فى هذه المناطق الشرقية الاسلامية . وبقاء هذه الشعوب على إسلاميتها وعقيدتها وسيرتها الدينية . وبعبارة علمية مركزة « إن العالم الإسلامى وأقطاره فى حاجة إلى بناء مجتمع إسلامى تقدمى تستطيع فيه الطريقة الاسلامية فى الحياة أن تعبر عن نفسها تعبيراً عملياً وثقافياً[٣٠]

(٣٠) استفدنا فى هذا التعبير من بعض ما جاء فى كتاب « الطريق إلى مكة» للاستاذ محمد أسد ص ٢٢٠ .

الموقف الثانى

حركة التغريب «التقدمية» فى العالم الإسلامى
أنصارها ومنتقدوها

موقف الاستسلام والتقليد :

والموقف الثانى ، موقف الاستسلام والخضوع الكامل ، موقف المقلد ، المؤمن المتحمس ، والتلميذ البار الصغير الذى لم يبلغ بعد سن التمييز ، وهو أن يقبل العالم الإسلامى أو جزء منه – هذه الحضارة المادية الآلية ذات الطبيعة الخاصة بحذافيرها ، يقبلها بعقائدها الأساسية ، ومناهجها الفكرية ، وفلسفتها المادية ونظمها الاقتصادية والسياسية التى نشأت واختمرت فى بيئة بعيدة عن بيئة هذه الأقطار تحت ضغط عوامل وحوادث خاصة ، وبتوجيهها ، ويحاول تطبيقها فى هذا البلد الإسلامى برمتها ، ويتحمل فى سبيل ذلك كل صعوبة وعنت ، ويدفع له أعظم ثمن ، وأبهظ قيمة

حركة « التغريب » فى تركيا ، وأسبابها :

وقد سبقت – إلى هذا الأسلوب من التفكير والمنهج من العمل – تركيا الإسلامية،وكان ذلك نتيجة طبيعية لعوامل كثيرة ، ورحلة طويلة ، فقد حاربت أوربا مدة طويلة من غير أن تستعد لهذه الحرب ، وتتسلح بسلاح عدوها العلمى والصناعى ، وفرّطت فى اقتباس العلوم المفيدة من أوربا والصناعات والفنون الحربية والتنظيم الإدارى تفريطاً مجرماً ، وأبدى العلماء وزعماء الدين ضعفاً وقصوراً فى توجيه الأمة والبلاد توجيهاً علمياً وفكرياً ، وفى الإشراف على اتجاهاتها التى يفرضها الزمان والمكان ، وتغير الأحوال فى العالم كله ، وتقرير الصالح منها ، وتزييف الطالح ، ووقفوا على ما وقف عليه العلم والمعرفة والتفكير فى القرن الثامن عشر ، وفوق كل ذلك فقد

استغل السلاطين – إلا من عصم ربك – اسم الدين واسم الخلافة لصيانة مصالحهم الخاصة ، وتحقيق رغباتهم ، وكانوا من أسباب تأخر البلاد ، والهزائم والانتكاسات التى حاقت بالأمة ، وممالأة الأعداء فى أحيان كثيرة .

إن هذه الجوانب وإن كانت شخصية أو فردية ولكنها لم تكن سراً مكتوماً، وكانت تثير السخط والكراهة فى نفوس الشباب والحريصين على سلامة البلاد ومجدها .

المرحلة الدقيقة العسيرة :

إن المحنة التى كانت تواجهها تركيا فى أواخر القرن التاسع عشر مع أنها كانت أول تجربة لبلد إسلامى من نوعها ، وكان قد مر المجتمع الاسلامى من قبل بنوعين من التجارب :

كانت التجربة الأولى التى مر بها المجتمع الاسلامى فى القرنين الأول والثانى ، هى أن المجتمع الاسلامى كان قويا فتياً دافقاً بالحيوية وصلاحية التقدم ، وكانت ترافقه حركة لاتزال فى سبيل الغزو والانتصار ، وكانت بإزائه الحضارتان القديمتان العظيمتان ، إحداهما : الحضارة الرومية واليونانية فى الغرب ، والثانية : الحضارة الإيرانية فى الشرق ، وكانت الحضارتان غنيتين فى العلوم والصناعات والثقافة والأدب والنظم الفلسفية ، وفى أرقى أساليب المدنية والاجتماع ، والمجتمع الاسلامى الذى كان بعيداً عن كل من أنواع « **مركب النقص** » وحافلا بالثقة والاعتداد بالنفس ، اقتطف من هذه الذخائر ما يلائمه وينسجم مع طبيعته ويفى بحاجته ، بدون أن يصاب بالرق الفكرى والدهشة والخضوع الزائد ، أخذ جميع ما يناسبه ويجدر به ، والذى رآه غير جدير به صاغه فى قالبه أولا ثم وضعه فى مكانه ، ولم يجن هذا الاقتطاف المحدود والتلقى على روح ذلك المجتمع ونزعاته الخلقية لاستقلاله وسيادته .

والتجربة الثانية هى التى مرّ بها هذا المجتمع الاسلامى فى القرن السابع عندما استولى التتار على قلب العالم الاسلامى ومركزه ، وأصبح المسلمون خاضعين لهم ومفتوحين سياسياً ، وواجه المجتمع الإسلامى فى ذلك الحين فاتحاً كان فقيراً قليل البضاعة فى الحضارة والمدنية والعلم والصناعة والقانون والتشريع . لم تكن لديه حضارة ولا فلسفة للحياة . وكان من الناحية المدنية والاجتماعية والرقى الفكرى فى حالة

بدائية شأن الأمم الوحشية وسكان الصحارى . لذلك لم يكن هناك أى معنى للخضوع والتلمذة وانصهار المجتمع الإسلامى المفتوح فى حضارة الفاتح ومدنيته وفلسفة حياته وأفكاره وقيمه ، بالعكس من ذلك بدأت الأمة الفاتحة تتأثر يوما فيوما بالأمة المفتوحة . وتتأثر شيئاً فشيئاً بحضارتها ومدنيتها وعلومها وطرق حياتها الراقية وآدابها الجميلة الواسعة ، وعقائدها الدينية السامية وأفكارها النبيلة . وأخيراً اعتنقت تماما دين الأمة المفتوحة وحضارتها . وصارت بعد أن اصطبغت بصبغتها حامية للإسلام ورفعت رايته بحماسة وتفان .

ولكن الوضع الذى واجهه الأتراك العثمانيون فى أواسط القرن التاسع عشر كان يختلف عن التجربتين السابقتين ، إنهم وإن كانوا يحكمون مملكة حرة واسعة الأرجاء ، ولكنهم فقدوا – إلى حد – روح الثقه بالنفس وعرفان الذات ، بمر العصور وكر الليالى والدهور ، لم يكن فيهم حماس القرون الأولى ولاقوة الإيمان واليقين ، وإزاء ذلك كانت الحضارة الغربية فائضة بالروح الجديدة والطاقات الجديدة ، وممتلئة بالحماس الجديد والآمال الجديدة ، كانت قد حملت معها ثورة صناعية وعلمية وفكرية كانت توسع آفاقها ونطاقها يوما فيوما ، ولم يكن يستطيع الأتراك أن يغمضوا أعينهم عنها ، وكان مركز حكومتهم فى قلب أوروبا ، ولم يكن لهم سابق لمثل هذه التجربة فى التاريخ الإسلامى الماضى ، ولايجدون توجيهاً للتغلب على هذه المشكلة من تجارب الأمة الماضية وتاريخها الطويل ، فإن الوضع الذى كانوا يواجهونه كان بدعاً وكان وليد ظروف وعوامل خاصة وزمن خاص ،ولايساعدهم فى ذلك العالم الإسلامى المعاصر الذى لم يجرب هذه المحنة من قبل ، وكانت أنظار قادته متجهة إلى تركيا ، كيف تخرج من هذه المحنة وكيف تتغلب على هذه المشكلة وأى طريق تختاره ؟

وكان الخروج من هذه المرحلة الدقيقة بنجاح يحتاج إلى ذكاء وقاد ومعرفة صحيحة عميقة للإسلام والحضارة الغربية فى وقت واحد ، وشجاعة أدبية وبطولة ، وكان ذلك عملا عملاقاً فى الواقع ، وكان لابد لتركيا أن تعمله وكان العالم الإسلامى كله على استعداد تام لاتباعها والسير فى ركابها ، وكان يرتبط به مستقبل العالم الإسلامى الحضارى والفكرى والدينى والسياسى ، إلى حد كبير ، ولم يكن ذلك يقبل أى تأجيل أو إهمال ، ولا يمكن أن تمر به تركيا مراً خاطفاً سريعاً .

الطائفتان القديمة والجديدة :

وكانت هذه المهمة الدقيقة إما تنوء بها الطائفة القديمة أو الطائفة الجديدة ، فقد كانت تركيا موزعة بين هاتين الطائفتين وهما اللتان توزعان القيادة والمسئولية ، أما الطائفة القديمة فقد كانت مؤلفة من العلماء القدامى ، الذين لايعرفون مع الأسف المقتضيات الجديدة والتطورات الحديثة إلى حد كبير ، ولم تكن تعرف خطورة الموقف وضخامة الخطر الذى نشأ لتركيا بتأثير القوة الناهضة من أوروبا ، وكانت هذه الطائفة قد عارضت التنظيمات العسكرية والإصلاحات الجديدة التى قام بها السلطان سليم الثالث (١٧٨٩ - ١٨٠٧) وخليفته السلطان محمود (١٨٠٨ - ١٨٣٩) لتؤهل تركيا لمجاراة الشعوب الأوربية عسكرياً وعلمياً ولمسايرة العصر الحديث .

أما الجيل الجديد ، الذى كان قد تلقى ثقافته فى عواصم أوروبا أو فى بعض الكليات العصرية فى تركيا ، فقد نشأ على الاستهانة بقيمة الدين واليأس من مستقبله ، وكراهة رجاله واحتقارهم ، وعلى تقديس الحضارة الغربية ، وفقد فى هذا الجيل العقل النابغ المتعمق الذى يقدر على نقد فلسفة الحياة الغربية ومعرفة جوانب الضعف فيها ، وجوانب الإفراط والتطرف ، ومعرفة ما يصلح لتركيا الزعيمة للعالم الإسلامى اقتباسه والإفادة منه ، وما لا يصلح ولا يتفق مع طبيعتها وتاريخها ومكانتها فى العالم ومركزها فى الشرق الإسلامى ،وأكثرهم من نوع « **العسكريين** » والمعلمين الذين لم تكن ثقافتهم واسعة ولا عميقة ولا حرة [1] أو الذين انتهت بهم تجارب

---

[1] تقول الفاضلة خالدة أديب خانم فى كتابها « الصراع فى تركيا بين الغرب والشرق » : كان أعضاء جمعية الاتحاد والترقى الشبان من صغار الموظفين الرسميين ، أو ضابطاً فى الجيش ، ولم يكن فيهم فى أول الأمر فرد واحد ، حائزا على مكانة علمية سامية ، ويفهم الفرق بين العصر القديم والعصر الحديث فى ضوء التعليل والنقد العلمى . ولكن هؤلاء الشباب كانوا أقرب إلى التعصب وكانوا إنتاجاً وطنياً خالصاً ، وكان معظمهم من أهل مقدونية الذين اشتهروا بحب الواقعية والقسوة ، ولايتحاشون عن شىء فى سبيل الوصول إلى غايتهم . لذلك رغم أنهم كانوا يهدفون إلى غاية نبيلة ، فقد كانوا يستخدمون جميع الوسائل للوصول إلى غرضهم من غير احشام وتورع .

Conflict between and West and Turkey p. 78.79.

حياتهم الخاصة ، وما لقوا من العلماء و« **المحافظين** » من تثبيط أو عدم تشجيع ، وما جربوه فيهم من جمود وضيق تفكير ، وما رأوه فى الجيل المسلم القديم ، وزعمائه من النفاق ، يقولون مالا يفعلون ، وينهون عن شيء ويأتونه ، أو ما شاهدوه فى البلاد من تأخرّ وضعف ، انتهى بهم كل ذلك إلى الثورة على كل قديم ، وعلى كل موجود ، وإلى التصميم على « **تغريب** » تركيا .

ضياء كوك ألب وفلسفته :

ضياء كوك ألب ولد فى ديار بكر بعام ١٨٧٥ م أو ١٨٧٦ م وكانت أسرته مرتبطة بوظائف رسمية رفيعة ، التحق بالمدرسة الثانوية لديار بكر بعد أن تخرج من المدرسة الثانوية العسكرية ، وكان له ولع خاص وشغف زائد بالأدب والرياضيات ، وكان على مغرفة جيدة بالتاريخ ، وتلقى فى المدرسة نفسها اللغة الفرنسية والعلوم الشرقية ودرس بإشراف عمه الفاضل وتعاونه مفكرى الإسلام : الغزالى والرومى وابن عربى وابن رشد وابن سينا والفارابى وغيرهم ، وقد أعجب بكتاب « **المنقذ من الضلال** » للإمام الغزالى لأنه أيضاً كان يعانى صراعاً فكرياً .

وكانت الأفكار التى قامت عليها الثورة الفرنسية تسيطر على كثير من الشباب المثقف وتحرك ساكنهم ، وكان مدير المعهد الذى يدرس فيه ضياء يحمل أفكاراً حرة ويحب الحرية الفكرية والعملية ، وكانت ديار بكر فى ذلك الحين مركز جماعة من الزعماء ومحبى الحرية الأتراك الذين نفوا عن البلاد ، وارتبط معها ضياء بوشائج وثيقة متينة ، وهناك قرأ ضياء مقالات لنامق كمال وضياء باشا وأحمد مدحت أفندى وغيرهم ، وازداد ارتباطه بالحركة السرية بعد قدوم عبد الله جودت ، وكان دكتوراً كرديا ملحداً ، وكان معجباً بهيجل (Haeckel) وبشنر (Buchner) واسبنسر (Spencer) ولى بون (Le Bon) إعجاباً كبيراً ، وقد حدث لديه فى ذلك الزمن صراع العقيدة والعقلية بتأثير من أستاذ يونانى وأراد أن يطمئن ويخفف من قلقه بالفلسفة والتصوف الإسلامى ولكنه كما يقول : لم ينجح فيه ، ووقع فى ارتياب وشك (Agnosticism) سافر فى سنة ١٨٩٦ م إلى القسطنطينية ، ولم يجد منحة إلا فى كلية البيطرة (Veterıinoedy College) ولكنه كان يشتغل

بالسياسة أكثر من الثقافة والتعليم ، لذلك انتخب عضواً لجمعية الاتحاد والترقى التى كانت تعمل فى سر كالماسونية ، وقدأُقصى من المدرسة لبعض مقالاته الثورية وألقى القبض عليه وفرضت عليه إقامة جبرية فى ديار بكر بعد إطلاق سراحه ، ودرس فى هذه المدة دراسة عميقة ، وكان له شغف وعناية خاصة بالفلسفة الغربية والفرنسية خاصة وعلم النفس وعلوم العمران ، وأصبح بسرعة شخصية قوية رئيسية لجماعة أحرار ديار بكر ومحبى الانطلاق والحرية ، وثارت هذه الجماعة فى عام ١٩٠٦ م ضد النظام الجائر والسلطات الإدارية يقودها ضياء ، وبعد أن خُلع السلطان عبد الحميد خان فى عام ١٩٠٩ م وجد ضياء وزملاؤه فرصة سانحة للعمل ، وأصدر جريدتين « بيام » و Decle .

وعندما آثر ضياء سالونيكا بالإقامة المستقلة ، صار زعيما وطنياً لتركيا ووجد هنا فى ثغور تركيا الغربية فرصة اللقاء والتودد إلى المتنورين الأتراك ، والأفاضل الغربيين ، وترعرعت فيه فكرة الوحدة والتنظيم على أساس القومية التركية التى لم يكن الإسلام فيها عنصراً أساسياً (Factor) وقد انفصلت عن الحكومة التركية بعض الأقطار الإسلامية (ألبانية فى عام ١٩١٢ م والحجاز عام ١٩١٦ م على أثر حرب البلقان ١٩١٢ م . وظهر بذلك أن الحركة القومية والطورانية هى أقرب إلى الواقعية والعملية وكسبت أنصاراً أكثر ، وقد قوى وتوسع نطاق التأثير الفكرى لكوك ألب فى الجيل التركى الجديد عندما عين الأستاذ الأول لعلم الاجتماع بجامعة استانبول عام ١٩١٥م) (وذلك بمواهبه الشخصية وكتابة مقالات ، وبلا شهادة عالية ولا تخرج فى جامعة) وقد اضطر عام ١٩١٨ م كالزعماء الوطنيين الأتراك إلى أن يغادر استنبول ، ولما انتصر مصطفى كمال فى عام ١٩٢١ م على اليونان أفرج عنه ، وعين بسنة ١٩٢٢ م رئيساً للجنة التأليف والترجمة ، وكان يؤيد مصطفى كمال بقوة وحماس ، وقد لعب دوراً كبيراً فى المعركة الانتخابية ، مع أن الأواصر الشخصية بينهما لم تكن عميقة قط ، ولما انتخب البرلمان فى سنة ١٩٢٢ م كان نائب ديار بكر ، وقد مرض بعام ١٩٢٤ م وأراد كمال أتاتورك أن يتكفل جميع تكاليف علاجه فى أوروبا لكن كوك ألب اعتذر عن ذلك وطلب العناية بأسرته والعطف عليها ، وتهيئة وسائل لنشر كتابه عن الحضارة التركية ، وقد توفى ضياء فى ٢٥ من تشرين الأول

(أكتوبر)١٩٤٢ م في الثامنة والأربعين أو التاسعة والأربعين من عمره ودفن بمقبرة السلطان محمود [٢] .

إن ضياء كوك ألب دعا بكل قوة وصراحة إلى سلخ تركيا من ماضيها القريب وتكوينها تكويناً قومياً خالصاً ، وإيثار الحضارة الغربية على أساس أنها امتداد للحضارة القديمة التي ساهم الأتراك – على زعمه – في تكوينها وحراستها ، يقول في مقالة له :

« إن الحضارة الغربية امتداد لحضارة حوض البحر الأبيض المتوسط القديمة . وكان مؤسسو هذه الحضارة – التي نسميها بحضارة البحر الأبيض المتوسط – من الأتراك مثل السومريين ، والفينيقيين والرعاة لقد كان في التاريخ عصر طوراني قبل العصور القديمة ، لأن سكان آسيا الوسطى القدامى كانوا أجدادنا ، وفي زمن متأخر جداً رقى الأتراك المسلمون هذه الحضارة ونقلوها إلى الأوربيين . وبتحطيم الامبراطوريتين الرومانيتين الغربية والشرقية ، أحدث الأتراك انقلابا في تاريخ أوروبا . لذلك نحن جزء من الحضارة الغربية ولنا سهم فيها » [٣] .

ويذكر موجبات اعتناق الحضارة الغربية ومايحدث ذلك من انقلاب . وما يفيض من قوة وروح جديدة ، ومركز في العالم . وأنه لا يستلزم الانسلاخ من الدين القويم فيقول :

« حين تقطع أمة شأواً بعيداً في نشوئها ، ترى من الواجب أن تغير حضارتها أيضاً .لما كان الأتراك قبائل رحالة في آسيا الوسطى دانوا بحضارة الشرق الأقصى . ولما انتهوا إلى عصر « السلطنة » دخلوا في مساحة الحضارة البيزنطية والآن في طور انتقالهم إلى الحكومة الشعبية ، هم مصممون على قبول حضارة الغرب » [٤] .

---

٢ – استفيد من كتاب : Foundations of Turkish Nationalism لمؤلفه (Heyd U.) :

(3) Trukisk Nationalism and western Civilization p. 297

(٤) أيضاً :P.261

« إن شعوباً تدين بديانات مختلفة يمكن أن تدين بحضارة واحدة .إن اليابانيين واليهود يشاركون الأوربيين فى حضارة واحدة »[٥] وبعبارة أخرى فالدين والحضارة عنده شيئان مختلفان . لذلك من المغالطة أن تسمى « **حضارة إسلامية** » كما لا يصح أن تسمى « **حضارة مسيحية** » ، الدين محدود فى العقيدة والطقوس التى لاصلة للفنون والعلوم بها ، يقول :

« ليست هناك مؤسسة مشتركة بين الأحزاب والجماعات التى ترتبط بالأديان المختلفة ، فما كان الواقع أن الدين اسم لمجموعة من المؤسسات المقدسة والعقائد والتقاليد فحسب ، فالمؤسسات التى لاتحمل قدساً وتمجيداً دينياً (**كالأفكار العلمية التطبيقية والأدوات الصناعية ومُثل الجمال**) تؤلف نظاماً مستقلا يخرج عن نطاق الدين ، والعلوم الإيجابية كالرياضيات والعلوم الطبيعية وعلم الحياة وعلم النفس والاجتماع والطرق الصناعية والفنون الجميلة لاتمت بصلة إلى الدين ، لذلك لايصح أى ارتباط لحضارة بالدين ، ليست هناك حضارة مسيحية ولا حضارة إسلامية ، فكما أنه لا يصح أن تسمى الحضارة الغربية حضارة مسيحية هكذا بالضبط لا يصح أن تسمى الحضارة الشرقية حضارة إسلامية »[٦] .

ويضرب لهذه الخطوة الثائرة مثلا لروسيا التى احتضنت الحضارة الغربية الراقية ، رغم خضوعها للكنيسة المسيحية المتصلبة المحافظة الأرثوذكسية ورغم تمسكها بحضارة من الطابع الشرقى ، استطاعت أن تقف بجوار الشعوب الغربية القوية الحرة :

« لما حرر الغربيون أنفسهم من رواسب القرون الوسطى كان المسيحيون الخاضعون للكنيسة الأرثوذكسية فى روسيا لايزالون عبيداً لها ، وقد عانى بطرس العظيم صعوبات شديدة فى كفاحه لتحرير الشعب الروسى من سيطرة الحضارة البيزنطية ، وتقديمه إلى الحضارة الغربية ، ولكى يعرف الإنسان ما هى الوسائل والأساليب التى يجب أن تستخدم لتغريب البلاد وطبعها بطابع الغرب يكفى أن يدرس تاريخ إصلاحات بطرس ، وكان الناس يعتقدون إلى ذلك الحين أن الروسيين لايصلحون للتقدم ولكنهم بعد الثورة بدأوا يتقدمون بسرعة زائدة ، ويقطعون شوطاً بعيداً فى

---

(٥) أيضاً : P. 269-270

(6) Turkish Natioaalasm and Western Civilisation, p. 271-272

ميدان النهضة ، وهذه الحقيقة التاريخية تكفى لإثبات أن الحضارة الغربية هى الشارع الوحيد إلى التقدم[٧] » .

ثم هو يقرر أنه لابد للحرية والمحافظة على المجد القومى من امتلاك ناصية الحضارة الغربية والسيطرة عليها فيقول :

« علينا أن نختار إحدي الطريقين ، إما أن نقبل الحضارة الغربية أو نظل مستعبدين لقوى الغرب ، لابد أن نختار أحد الأمرين ، يجب علينا أن نسيطر على الحضارة الغربية لندافع عن حريتنا واستقلالنا[٨] » .

يَحتل ضياء كوك ألب مكانة خطيرة بين المؤسسين الفكريين لتركيا الجديدة ، إنه قدم الأساس الفكرى والفكرة الجديدة التى تأسست عليها الدولة الجديدة والمجتمع الجديد من الناحية الفكرية والأساسية ، وقد ذكر ذلك الأستاذ نيازى بركس فى مقدمة مجموعة مقالاته المختارة التى نشرها ، وقال إنه لاتزال تسيطر فكرته على أسس الإصلاحات الجديدة فى تركيا ، هو يقول :

ورغم أن ضياء كوك ألب توفى فى المرحلة البدائية لتطوير أتاتورك الثورى ، ولكن توجد فى كتاباته أفكار تعتبر أسساً لتلك الاصلاحات ، وأن أفكاره فى موضوع الإصلاح الإسلامى قد جنت عليها العلمانية المتطرفة فى العهد الذى بدأ بعد وفاته . مع ذلك أعتقد أنه لو عاش لاستطاع أن يرضى نفسه بسياسة أتاتورك وموقفه لأن تصوراته عن الخلافة كانت تختلف عن نتائج فكرته القومية المنطقية ، وكان يتخيل القومية التركية كأساس دولى عالمى ويرى فيها عوضاً عن الخلافة الإسلامية ، ونحن نعلم أن نقاط العلمانية وحرية الإرادة والضمير وحرية الفكر فى الدستور كانت من تفكيره وقلمه ،لأن اللجنة التى ألفت فى سنة ١٩٢٤ م لوضع الدستور الأساسى كان عضواً فيها ، ولعله لم يستطع أن ينسجم مع السياسة الثورية للإصلاح المثالى التى اتخذها كمال أتاتورك ، ..ورغم أنه كان هنالك بعض انحراف عن أفكاره فى العمل

---

(٧) ص ٢٧٥ .

(٨) ص ٢٦٦ Turki

والتطبيق ، مع ذلك لا تزال مبادئه تسيطر على النقاط الأساسية لإصلاحات تركيا الجديدة [٩] » .

ويزيد المؤلف المذكور فيذكر أعمال ضياء كوك ألب وأفكاره العلمية ويقرر أهميته كقائد مفكر ومؤسس مدرسة فكرية :—

« ومع أن دراسته عن الاجتماع والمدنية الشعبية والتاريخ ليست لها قيمة علمية كبيرة إذا قورنت بمؤلفات علماء تركيا الحاضرة وغيرها،ولكنه لا يستهان بقيمته كزعيم لهذا الاتجاه ومؤسس هذه المدرسة ، ولو أن بعض مفاهيمه نسيت أو أغفلت فى تركيا الجديدة أو أنها تعتبر اليوم تافهة ولا يلاحظ فيها ابتكار وطرافة ، مع أنها كانت تبدو فى عصره جديدة ومبتكرة فذلك لأنها أصبحت الآن حقائق ، ويتجلى من ذلك عمق تأثيره وسعة أفقه ونظره [١٠] » .

دور تركيا التقليدى :

إن قادة هذا الفكر والدعوة التى يتزعمها ضياء كوك ألب ، كانوا يستحقون إعجاباً كبيراً من المؤرخين المنصفين ، ورجال الفكر الأحرار فى العالم الإسلامى ، وإن تركيا كانت تحتل مركزاً خطيراً فى خريطة العالم السياسية ، والثقافية ، والاجتماعية ، وقد تغير مجرى التاريخ إذ سيطرت على الحضارة الغربية ، وامتلكت ناصيتها ، تقودها وتسير بها إلى غاية مرسومة ، وتتصرف فيها تصرف القائد الحر ، الذى يملك إرادته ،والعالم المجتهد الذى يفكر بعقله ، وكانت القدوة الحسنة للشعوب الشرقية الإسلامية التى تعانى الصراع المخيف ، بين الشرق والغرب ، وتواجه تحدى الحضارة الحديثة السافر ، وتنظر إلى تركيا كزعيم وإمام ، وأول من اكتوى من الشعوب الإسلامية بنار هذا الصراع بين الغرب والشرق وواجه زحف الحضارة الغربية وفسلفة الحياة الحديثة .

---

(9) Berkes Niyozi Turkish Nationlism and Western Civilization (Cokalpziya) p. 13, 14

(١٠) نفس المصدر ص ٣٠ — ٣١

ولكن ذلك – مع الأسف – لم يتحقق ، إن الذى تحقق هو تقليد تركيا للحضارة الغربية وتمسكها ببعض شعاراتها ومظاهرها السطحية ، والاصلاحات السطحية التى لاتقدم ولاتؤخر فى حياة الشعوب والأمم والمجتمعات والمدنيات ، ولا صلة لها بالقوة الحقيقية والعظمة السياسية ، والتى فصلت تركيا عن ماضيها القريب ، وعن التراث العلمى والفنى الذى ساهمت فى تكوينه الأجيال الكثيرة والعقول الكبيرة ، وفصلت تركيا – زعيمة العالم الإسلامى بالأمس – عن العالم الإسلامى ، وأحدثت فجوة عميقة بين رجال الحكم والتوجيه ، وبين الشعب المسلم القوى ، الفائض بالحب والإيمان والعاطفة الدينية ، الذى ملأ قلوب العالم مهابة وإجلالا لقوة هذه العاطفة وتدفقها ، واستطاع أن يقف فى وجه أوروبا وغارتها الساحقة ، ومؤامراتها الدقيقة المستمرة ، التى لم تنقطع ولم تقف يوماً واحداً والتى لاقِبَل لأمة عادية بها ، رغم الضعف الشديد المستمر فى الطبقة الحاكمة ، والخيانة فى الضباط ، وأفقد الشعب النشاط والثقة والحماسة التى كانت من أبرز مزايا هذا الشعب المسلم الخالد ،وأحدثت اضطراباً فى المجتمع وفتوراً فى إجابة الدعوات التى تصدر من القيادة ومركز الحكم ، واحتاجت الحكومات المختلفة إلى كبت هذا الشعور وكبح هذه العاطفة ، وتحويل الأمة إلى المادية والقومية والحضارة الغربية ، والانحصار فى دائرة التفكير الضيقة والمساحة المحدودة كل ذلك بعنف وقسوة لا نظير لها ، ذهب ضحيتها رجال كان فيهم الغناء الكبير للأمة ، والخير الكثير للبلاد ، ولا يزال الصراع قائماً بين العقلية الحاكمة وعقلية الشعب المغلوب على أمره ، ولا تزال الشرارة – الإيمانية – كامنة فى النفوس والقلوب ، ومستعدة للالتهاب بأدنى حركة وأضعف إشارة [11] .

---

(١١) وقد تحقق ذلك تدريجاً فى الفترة التى حكم فيها الحزب الديمقراطى الذى كان يقوده عدنان مندريس ، وأزيل هذا الحزب بتدخل الجيش فى سنة (١٩٦٠) م وشنق عدنان (١٩٦١) م ولكن الشعب لم يهدأ ، ولم يرض بالحكم اللادينى الدكتاتورى ، وأسفرت الانتخابات الأخيرة (١٩٦٨ م) عن انتصار « حزب العدالة » بأغلبية ساحقة ، وأثبت الشعب التركى وفاءه للاسلام ، وحنينه إلى العهد الذى كان يتمتع فيه بممارسة أحكام الإسلام ، ويقود العالم الإسلامى باسم الخلافة ، وحماية الإسلام .

إن دور الشعب التركى فى اقتباس الحضارة الغربية كان دوراً تقليدياً يخلو من كل « **أصالة** » ومن كل ابتكار ، ومن كل عصامية ، ومن كل إنتاج ، فلم تعمل شيئاً جدياً للسيطرة على هذه الحضارة التى انطلقت من الغرب المادى ، السيطرة التى دعا إليها وحلم بها ضياء كوك ألب فى مقالته السابقة ، ولم تعمل شيئاً لامتلاك ناصيتها والتغلب على قيادتها ، إنما كان دورها دور الاستيراد ودور الاستعارة ودور التطبيق ، لا أقل ولا أكثر ، ولم ينبغ فيها فى هذه الفترة نابغة فى العلوم التطبيقية ، ولاعملاق فى العلوم والآداب ، ولا مؤسس مدرسة جديدة من مدارس الفكر والفلسفة ، ولا من يمد هذه الحضارة بشىء أصيل له قيمته العلمية ، ولذلك بقيت شعباً متوسطاً يعيش على هامش الشعوب الأوربية ، ولم يكن هذا قيمة ما ضحى به هذا الشعب من السطوة السياسية والحماسة الدينية ، والدوافع الخلقية ، والزعامة فى العالم الإسلامى .

نامق كمال :

ولد نامق كمال فى (Rhobosto) فى عام ١٨٤٠ م وكان ينتمى إلى أُسرة ثرية ذات اليسار والغنى ، درس فى بيته اللغة العربية والفارسية والفرنسية ، وتولى وظيفة رسميه فى السابعة عشرة من عمره ، وقد أُعجب فى شبابه بالزعيم التركى الوطنى والمفكر الشهير إبراهيم شيناسى(١٨٢٦ – ١٨٧١ م) وانضم إلى رئاسة تحرير مجلته الشهيرة « **تصوير أفكار** » ولما التجأ شيناسى إلى فرنسا فى سنة ١٨٦٥ أصبح مسئولا عن تحرير المجلة واشتهر ككاتب وصحفى سياسى ، واضطر أن يغادر الوطن عام ١٨٦٧ لمقالاته وأفكاره الجريئة المتحمسة ، وقد قضى ثلاث سنوات من نفيه فى لندن وباريس وفينا ، ودرس هناك وطالع القانون الجديد والاقتصاد ، وعاد فى ١٨٧١ م إلى تركيا ، ونفى مرة ثانية إلى قبرص من جراء التمثيلية الطائرة الصيت التى كتبها وسماها « **الوطن** » والتى بعثت فى قلوب الناس الحماس الوطنى ، وعاد فى سنة ١٨٧٦ م بعد أن خلع السلطان عبدالعزيز ، ولكن نقمت عليه الحكومة بعد مدة يسيرة ، وتوفى عام ١٨٨٨ م بعد أن قضى عامه الأخير من حياته فى النفى .

ويقول برناردلويس Bernard Lawis فى كتابه The emerge of Modern Turkey « كان نامق كمال مسلماً صادقا متحمساً مع حماسته الوطنية وفكره ، إن

الوطن (تركيا) الذى يتغنى به فى مقالاته وإن كان أساسه على الاقليم ولكنه عنده وطن إسلامى خالص ، كما أن الدولة العثمانية عنده دولة إسلاميةخالصة ، وقد ظل مرتبطا طول حياته بكل قوة وإخلاص بقيم المسلمين وعقائدهم الموروثة ، وقد انتقد زعماء التنظيمات انتقادا لاذعاً فى كثير من الأحيان وعاب عليهم أنهم أخفقوا فى الحفاظ على التقاليد الإسلامية القديمة ، وأنهم استوردوا من أوربا الأفكار « **والمؤسسات** » الجديدة .

وقد حمل نامق كمال لواء القيم الإسلامية،وقد انتصر للإسلام وأبرز فضله ومآثره رداً على أولئك المؤلفين الذين كان لايزال ديدنهم الحط من شأن الإسلام وقدم فكرة الاتحاد الإسلامى العالمى فى قيادة العثمانيين الأتراك ، لأنه كان يعتقد أن هذه الحركة إذا انتشرت فى آسيا وإفريقيا ووجدت أنصاراً أصبحت كتلة قوية إزاء الكتلة الغربية ، فيحدث بذلك توازن القوى فى العالم .

وكانت دعوة نامق كمال الذى سبق ضياء كوك ألب إلى الافادة من الحضارة الغربية والعلوم الغربية ، وتفسيره للعلاقة التى يجب أن تقوم بين تركيا والغرب الجديد أكثر اتزاناً وأكبر عمقاً ، من دعوة ضياء كوك ألب وأنصاره ، فقد دعا نامق أمته وبلاده إلى الإفادة من الغرب فى المجالات التى يرجع إليها الفضل فى تقدم الشعوب الغربية وفى رخائها وسيادتها ، وكانت السبب المباشر لتفوق الغرب ومكانته فى العالم .

يقول الأستاذ نيازى فى مقدمته على « **مجموع مقالات ضياء كوك ألب** »

إن الرجل الذى وفق فى وصف الوضع الحاضر وتحديد ضعفه وعلته واعتبره عرقلة كبيرة فى تأسيس دولة جديدة كان ذلك نامق كمال (١٨٤٠ - ١٨٨٨ م) إنه حاول أن يعرض صورة مثالية « **للمؤسسات** » الدينية والأخلاقية والقانونية التى تنسب إلى الإسلام ، وعرض صوراً مثالية أصلية للمؤسسات السياسية أيام ازدهار التقاليد العثمانية القديمة ، وأبرز نواحى الحضارة الغربية التى تدين لها الشعوب الأوربية فى تقدمها ورخائها وسيادتها ، ووصل بعد دراسة هذه العوامل الثلاثة إلى أنه لا يوجد بينها خلاف أساسى ، وإنه يعتقد أن الإسلام يهيىء الأسس الخلقية والقانونية للمجتمع ، وكان يرى أن أفضل طريق لتركيا الحديثة أن تتخذ التقليد العثمانى وسياسة التسامح الواسع التى كان يعامل بها العثمانيون القوميات المختلفة والديانات

المختلفة كأساس ودعامة للجهاز السياسى،وأن تأخذ من الغرب المناهج والأساليب المادية التطبيقية التى تمنح هذا النظام قوة ومناعة فى العالم المعاصر الذى يقوم على التقدم الاقتصادى .

هكذا أفرز نامق كمال عوامل تركيا الثلاثة فى القرن التاسع عشر وبيّن حدودها ومعالمها ، وكان العامل الأكبر لإخفاق التنظيمات فى رأيه هو الاضطراب الفكرى فى موضوع العوامل الثلاثة هذه ، فقد هجرت الشريعة أى القانون الاسلامى مثلا لأجل اقتباس القانون الفرنسى ، مع أنها لم تقتبس الأساليب والطرق الغربية للتعليم والحكومة والعلوم والاقتصاد والزراعة .

وقد خضع دعاة الاصلاح الذين كانو ينتمون إلى « تنظيمات » فى أمانيهم الصبيانية لتحويل الدولة التركية دولة جديدة للحكومات الغربية وحملوا مِنّتها فى دائرة الاقتصاد والسياسة من غير حاجة إلى ذلك ، وقد فقدت بذلك الدولة العثمانية حريتها وسلامتها ، لم يطبق هؤلاء الدعاة أى مبدأ من مبادىء النظم الديموقراطية الجديدة فى مجال الإدارة والتنظيم ، مع أنه لم يكن شىء فى المؤسسات السياسية العثمانية القديمة ولا فى التشريع الاسلامى يستحيل انسجامه مع الديموقراطية أو التقدم أو العلوم التطبيقية (١٢) » .

ولكن من الإعجاب العام بنامق كمال والتأثير العميق الذى تركه فى الجيل التركى الجديد وفى ضياء كوك ألب نفسه ومعاصريه ، الذى اعترفت به (خالدة أديب خانم) بهذه الكلمات :

« كان نامق كمال يتمتع بأكبر إعجاب وإجلال فى تركيا ، إنه لم يتغن بأحد فى تاريخ الأفكار والسياسات التركية مثل ما تغنى به ولم يهم الهائمون بأحد مثل ما هاموا به » (١٣) .

---

(12) Berkes Niyazi Turkish Nationalism and Westeren Civilization (Gokalap Ziya) P. 17,81

(13) Halide Edib Turkey Faces West' P. 84.

لم تؤثر دعوته المعتدلة وفكره القويم فى تكوين تركيا الحديث ، ولم تلعب دورها مثلما فعلت دعوة ضياء كوك ألب المتحمسة المتطرفة لاعتناق الحضارة الغربية وأسس سياستها ، وكان ذلك لأنه وجدت لفسلفة ضياء وفكـــره ولتنفيذه شخصية قوية إيجابية فى تركيا ، حققت أكثر ما أراده ودعا إليه ضياء كوك ألب وصممت على سبك تركيا الإسلامية فى الغرب العلمانى اللادينى ، كانت هذه شخصية كمال أتاتورك .

كمال أتاتورك ،نموه الفكرى ، طبيعته وعقليته وخصائصه الطبيعية :

ولد مصطفى كمال باشا بن على رضا بك بمدينة سلانيك سنة ١٢٩٨ هجرية ١٨٨١ م ، وأصل أسرته من قرية بالأناضول ، والتحق بمدرسة ابتدائية تسير على النهج الأوربى الحديث ، ثم بمدرسة أهلية ثانوية فمكث بها سنة ثم تركها ودخل مدرسة حربية ، ثم انتقل إلى المدرسة الحربية بأستانبول وتخرج منها ضابطاً ، وكان ذلك فى عهد السلطان عبد الحميد الثانى ، ودخل فى بعض المؤمرات ضده ، فقبض عليه ونفى إلى دمشق وهرب منها إلى سلانيك ، والتحق بجمعية « **الاتحاد والترق** » والتحق بالجيش ، وعهد إليه بالإشراف على سكة حديد مقدونية ، وخُلع السلطان عبد الحميد سنه ١٣٢٧ هجرية — ١٩٠٩ م .

سافر عام ١٩١٠ م إلى فرنسا كملحق عسكرى لمهمة عسكرية ، وقد جعله هذا السفر لا يطمئن إلى ما حققته تركيا من التقدم والازدهار ، واضطرب لازدياد نفوذ ألمانيا ، وكان يحكم تركيا فى ذلك الوقت أربعة أشخاص فعلا وهم : أنور وطلعت وجاويد وجمال ، وكان معهم مصطفى كمال على خلاف شديد ، ولم يكن له شغف ولا هم بالأهداف الدولية ولا فى توسع نطاق الحكومة العثمانية فى خارج تركيا ، وكان يرى هذه السياسة للبلاد خطراً ، وكان أنور يكرهه بدوره ، ونشبت حرب بلقان فى سنة ١٩١٢ م ، وقد تأثر بشقاء فئات اللاجئين والمهاجرين الأتراك من المدن البلقانية ،وعين أنور وزير الحربية وقد بلغ قمة الرقى والمجد ، وكان أنور يسعى لجمع المسلمين كلهم تحت لواء خليفة المسلمين ، وقد فوض أنور مسئولية تنظيم الأمور العسكرية إلى الألمان ، وكان مصطفى كمال يكره ذلك كرهاً شديداً ، ونشبت

الحرب العالمية الكبرى عام ١٩١٤ م وحالفت تركيا ألمانيا تحت ضغط أنور وزملائه وخاضت الحرب ، وكان كمال يرى أن تلتزم تركيا الحياد وتستفيد من الكتلة التى تفوز فى هذه الحرب ، وحارب كمال فى جوار زملائه وقواده بشجاعة وبطولة على رغم اتجاهه ورأيه فى هذه الحرب ، وكان له موقف عظيم فى معركة نابيولى سنة ١٩١٥ م فذاعت به شهرته ، وأرسل سنة ١٩١٦ م إلى جبهة قفقاس ، وفوضت إليه قيادة الجيش فى الحجاز فى بداية عام ١٩١٧ م ، ولكن تخلت الجيوش العثمانية عن الحجاز قبل أن يستلم كمال مركزه ، ومنح فى هذا العام رتبة اللواء وأرسل إلى ديار بكر نائب القائد .

وانتهت الحرب سنة ١٩١٨ م بهزيمة ألمانيا وتركيا ، واحتلت انجلترا وحلفاؤها إستانبول ، واضطرب الأمن فى بلاد الأناضول ، فاختير كمال ليقوم بحفظ النظام سنة ١٩١٩ م وأعلن الحرب على اليونان الذين استولوا على ازمير وانتصر عليهم سنة ١٩٢١ م فى معركة سقارية ولُقِّب بالغازى ، وأقام فى أنقرة حكومة مستقلة ، وألغى الخلافة وسلطنة آل عثمان ، وأقام حكومة جمهوية علمانية كان أول رئيس لها سنة ١٩٢٤ م ، واستمر على ذلك حتى توفى سنة ١٩٣٤ م .

إن العلمانية والثورة على الماضى والتغرب المتطرف والدكتاتورية العسكرية التى آلت إليها تركيا لا تفهم العوامل التى ساعدت عليها والدوافع التى دفعت إليها زعامة كمال أتاتورك إلا بمعرفة طبيعة زعيم هذه الحركة الأكبر ونشأته الفكرية وتطورها وطبيعته وميوله ، لأن البلاد التى تخضع لدكتاتور عسكرى تصبح مرآة لشخصيته وطبيعته ، وظلا وامتداداً لميوله وعقائده مع الدعاوى البراقة للشعبية والجمهورية ، ويحتاج لفهم نظمها الجديدة فهم العناصر التى تتكون بها شخصية هؤلاء الأنانيين والدكتاتوريين ، وبهذه المناسبة نقتصر على أن نقدم قطعاً من كتاب « **أتاتورك**[١٤] » (**لعرفان أوركا**) الذى ألفه عن إخلاص وإعجاب بشخصية كمال وهى تصوره تصويراً لا مبالغة فيه ولا تشويه :

---

(14) Irfan Orga Margarete; «Atataurk» (Michael Joseth Ltd, London) 1962

« كان قليل الاختلاط ، غير محبب بين الأصدقاء فى حياته المدرسية ، كان أصدقاؤه قليلين جداً ، كان يثور ويهيج بسرعة ، وكان فى صفه طالباً مثالياً ذكياً مجتهداً متواضعاً ، وكان شديد الغرام بالإناث ، يجذبه هذا الجنس (Sex) كالمغناطيس .

وكان يتسلى بالخمر ويشغل نفسه بها فإنه لا يجد ما يسلى به نفسه وروحه كالإيمان بالله واليوم الآخر لأنه كان لا يؤمن بهما [١٥] »

« وكان يشعر بفرح وسرور حين يعتدى على الآخر ويسطو به ، وكانت هذه طبيعته التى فطر عليها ، وقد تجلت هذه الطبيعة فى تصرفاته .

ولم يكن يعترف بعواطف غيره لأنه لا يرى أحداً يوازيه ، وكان مفطوراً على حب التغلب على الآخرين وإخضاعهم لإرادته وهواه ، وكان يحب أن يبقى على القمة دائماً ، وقد اطلع على كتابات والتر ، وروسو ، فى مناستر التى بعثت فيه روح الثورة وأيقظت فيه عواطفها الخامدة [١٦] » .

« وقد هضم فى شبابه مع أفكاره الثورية تعاليم ضياء كوك ألب هضما جيداً ، وقد كافح ضياء كوك ألب للتنور والحرية الدينية ، وكان رائد التنور الفكرى الغربى ، وقد تكهن فى سنة ١٩٠٠ م بانقراض الدولة العثمانية واضطراب حبلها ، وأنه واقع لا محالة لأنها عضت بالنواجذ على أسس الحكومة الفردية ، وكان يقول فى أكثر الأحيان:

«إن الحكومة الدينية حليفة وفيه للحكومة الفردية دائما» وقد انتصر للتحرر عن السلطة الدينية انتصاراً قوياً وكان يرى أن تحدد سلطات العلماء ويجب أن تحدد الجماعات الدينية المختلفة ويحظر على الاحزاب المتحمسة للدين ويضيق الخناق عليها لأنها (كما يقول) تقع فريسة الشيطان فتهتف بالجهاد ، وقد دعا بقوة إلى إلغاء الشريعة وإقصاء قضاة المحاكم الدينية الذين هم يشرحون القانون ويفسرونه ، وكان يرى أن تقام المحاكم الحديثة والمحاكم المدنية »[١٧]

---

(15) P. 251

(16) P. 246

(17) P. 251

ويقول متحدثاً عما كان يضمره كمال عن الدين عامة ، وعن الاسلام بصفة خاصة وعن وجهة نظره فى كل ذلك :

« قد اقتنع بأن كفاحه يجب أن يوجه إلى الدين ، فإنه الأكبر ، وكان يعتقد من صغره أنه لاحاجة إلى الله ، انه اسم غامض خداع مجرد عن كل حقيقة ، وكان لايؤمن إلا بالمشاهد المحسوس[١٨] .

وكان يرى أن الإسلام إنما ظل عاملاً هداماً فى الماضى ، وأنه قد جنى على تركيا جناية كبيرة وألحق بها خسائر فادحة وقد تناسى أن الإسلام وحده هو الذى أسس الأمبراطورية العثمانية الواسعة ، وكان يرى أن الناس قد أصبحوا فريسة الأوهام والجمود بتأثير الإسلام ، وكان يبغض الرجل الذى يخضع للقضاء والقدر ويقول : « **هكذا أراد الله** » « **وهذا الذى قدّر لى** » وكان يعتقد أنه لاوجود للإله ، والإنسان يصنع قدره ، وكان يقول فى أكثر الأحيان : أن قوة العقل وقوة الإرادة تتغلبان على « **قسوة** »الإله ،ولكن يقول المتدينون :« **الله يمهل ولا يهمل** » كان يقول ألم يطلع هؤلاء المتدينون على الطاقة الكهربائية التى تشتغل بسرعة ؟ » وكان مصمماً على سن القانون لتحريم الدين فى تركيا ، ولو احتاج ذلك إلى استخدام القوة وإلى الخدعة والتضليل –[١٩] .

ويقول فى موضع آخر :–

« – ولم يكن لديه معنى لمبادىء علم النفس وللنظريات والفلسفات ، لذلك لم يمنعه شىء عن أن يعتبر الدين غير لازم لتركيا وشيئاً لا حاجة إليه ، ولكن الذى أعطاه للأمة التركية عوضاً عن الدين هو « **الاله الجديد** » أى الحضارة الغربية ، وليس من الغريب أن الأمة قد حاربت لروحها وقد تعلم درساً من تاريخ المدنيات الأخرى أن الآلهة القديمة تموت بصعوبة وعسر « لذلك لاتخرج عقيدة الإله من قلب الأمة التركية إلا بعد مدة طويلة) –[٢٠] » .

---

(١٨) وقد ذكر المؤلف فى كتابه أن كمال فى آخر عهده ، كان يرفع قبضته ويشير بها إلى السماء ساخراً مهدداً .

(19) P.236-238

(20) P.246

كان يعشق الخمر والنساء والموسيقى وكان يكره كل أولئك الذين يختلفون معه ، وإن كان هو يستغلهم لأهدافه وغاياته وكانت قد بلغت به قوة عزمه وعناده وتصلبه وصفاء عقله وفكره إلى قمة المجد ، وقد التقت طبيعته وعصره وتقدما جواراً بجوار وبلغا الأوج ، وكان سر عظمته أنه كانت أهدافه محدودة ومعينة : تأسيس دولة على طراز عصرى فى حدود معينة واضحة ، وكانت له ميزة وهى أنه كان لايعدل عن فكرته فى أحلك ساعة وأدقها – (٢٧) » .

اصلاحات اتاتورك وخطواته الثورية :

لم يكن كمال أتاتورك كما تجلى من تاريخه الذى أوجزناه عالماً واسع الثقافة ، أو مفكراً عيمق النظر ، إنما كان زعيماً قومياً قوى الارادة وحاكما قوياً شديد التنفيذ ، ويوجز وصفه مؤرخه الانجليزى الشهير فيقول :

« فى مواهبه وكفايته كان جندياً وفى غريزته كان معلم ثانوية وفى اتجاهه كان سياسياً (٢٨) » .

ومأثرته التاريخية أو بطولته – كقائد وزعيم – مقصورة على « **عملية النقل والتحويل** » التى قام بها ونجح فيها أكثر من غيره يقول المؤرخ السابق ملخصاً دوره العظيم الذى مثّله فى تاريخ تركيا الأخير :

« انطلق كمال أتاتورك يكمل عمل التحطيم الشامل الذى شرع فيه ، وقد قرر أنه يجب عليه أن يفصل تركيا عن ماضيها المتعفن الفاسد ، يجب عليه أن يزيل جميع الأنقاض التى تحيط بها ، هو حطم فعلا النسيج السياسى القديم ونقل السلطنة إلى (ديموقراطية) وحوّل الامبراطورية إلى قطر فحسب ، وجعل الدولة الدينية جمهورية عادية .

إنه طرد السلطان (الخليفة) وقطع جميع الصلات عن الامبراطورية العثمانية ، وقد بدأ الآن فى تغيير عقلية الشعب بكاملها وتصوراته القديمة وعاداته ولباسه وأخلاقه

---

(٢٧) P. 296-297

(٢٨) H. C. Armstrong ; Greywoolf P. 294

عابداً وفياً ، وقد نشر هذه الكلمة « **الحضارة** » من أقصى البلاد إلى أقصاها وعندما يتحدث عن هذه الحضارة تتّقد عيناه لمعانا وإشراقاً ، ويظهر على وجهه إشراق كإشراق الصوفية عند مراقبة الجنة[٢٣] » .

ماذا كانت فكرته عن الحضارة وكيف كان يريد أن يرى الأمة التركية ؟ يُقدَّر ذلك من الكلمات التالية التى يذكرها المؤلف :

« – يقول مصطفى كمال لشعبه : يجب علينا أن نلبس ملابس الشعوب المتحضرة الراقية ، وعلينا أن نبرهن للعالم أننا أمة كبيرة راقية ، ولا نسمح لمن يجهلنا فى الشعوب الأخرى بالضحك علينا وعلى موضتنا القديمة البالية ، نريد أن نسير مع التيار والزمن[٢٤] – » .

« – كان يتصور تركيا متطورة مصوغة فى صياغة جديدة ولكن المواد الخام الإنسانية التى رزقها (الشعب التركى) كانت مجموعة بشرية تتسم بالتشاؤم والكآبة ولم تتناولها يد صناع حاذق شأن الأغمار الذين يدخلون فى الخدمة العسكرية جديداً ، بدأ يشتغل وحيداً وهو دافق بالحياة لايثق إلا بنفسه ولايستريح ، وقد أصبح التدخل فى شئون غيره عادة وهواية له ، وكان ممتلئاً بالحيوية والقوة الفكرية »[٢٥] .

وقد قرر منع الطربوش وغطاء الرأس ، وألزم لبس القبعة على الرأس عوضاً عن ذلك لكى ينصبغ الشعب التركى بصبغة الأمم الغربية بأسرع ما يمكن ، ويندمج بها اندماجاً كلياً ، ولا تبقى ميزة يمتاز بها الشعب التركى عنها .

استعمل القسوة النادرة والعنف البالغ فى تحقيق هذا الغرض كأنه لا إصلاح أكبر وأهم من هذا ، وكأن سعادة الشعب كانت تتوقف فى ذلك ، وكأنه الشرط الأساسى لمجد تركيا وكرامتها ، وإن حرب القبعة الدموية تحولت إلى حروب صليبية ، يذكر مؤلف سيرته التركى هذه المعركة ويقول :

---

(23) P. 233

(24) P. 270

(25) P. 244

« وقد حدثت ثورات واضطرابات عظيمة هددت سلامة تركيا ، حتى أصدرت الحكومة أمرها لبارجة بالبقاء فى ميناء البحر الأسود ، وأُقيمت المحاكم فى كل ناحية وصوب وفى أمكنة مختلفة للبلاد ، وبدأت تشتغل وتحكم ، إن هذه الأحكام أهاجت الثوار أكثر من ذى قبل ، وأُعدم رجال الطبقة الدينية الذين نفخوا فى قلوب الناس روح المقاومة والحماس الدينى القوى ، أو اضطروا لأن يختفوا عن الأنظار ، ولم يستعمل رفقاً ورحمة ومسامحة فى مناسبة ، وقرر مصطفى كمال تنفيذ المشروع وإتمامه ، ولم يكن يحتفل بالوسائل والطرق التى يستخدمها فى هذا الشأن ، يلقى القبض على الناس وكانوا يشنقون لمجرد أنهم وجدوا يسخرون من هذه الأحكام ، واستهدف لذلك الأبرياء والمجرمون سواء .

إن كمال لم يؤنب المحاكم على اجراءاتها العنيفة ولم يتوقف فى تحطيم ارادة الشعب .

وكان يقول فى ذلك الحين فى فخار وكبرياء .« **أنا تركيا ، هزيمتى هزيمة تركيا** » وقد أثارت هذه الأنانية الجنونية أولئك الذين كانوا يعدونه منقذ تركيا ، وقد كسبت معركة القبعة أخيراً وفازت المحاكم واعترف الجمهور والشعب بهزيمتهم ، وقد أرسل مصطفى كمال مندوباً من قبله من أعضاء البرلمان أديب ثروت إلى المؤتمر الإسلامى بمكة المكرمة (١٩٢٧) ليثبت للعالم نجاحه وانتصاره ، وكان أديب ثروت المسلم الوحيد الذى حضر المؤتمر وهو لابس قبعة ، وقد استقبله الممثلون المسلمون الآخرون بانقباض وعلى غضاضة – [٢٦] .

ويذكر المؤلف – على كل حال – ميزات أتاتورك الطبيعية وأخلاقة وصنائعه ويلقى ضوءاً على حياته بإيجاز ويقول : –

« – إنه جرب فى حياته أحزاناً ويأساً وقل ما حظى بالفرح والسرور كان يحب الفقراء ويكره الأغنياء ويخشى العلماء والمفكرين لأنهم يفوقونه فى القوة والكفاية ،

---

(26) P. 265

ويقول فى موضع آخر :

« — وكان يبغض الإسلام والعقيدة الصحيحة الراسخة بغضاً شديداً ، وكان يقول : يجب أن نكون رجالا من كل ناحية ، قد قاسينا خطوباً ومصائب عظيمة وكان السبب فى ذلك أننا عشنا فى عزلة عن الحياة ولم نحاول معرفة اتجاه العالم ويجب أن لانحتفل بما يقول الناس ، ونحن فى طريق الحضارة والمدنية ، ويجب أن نعتز بذلك ونفتخر ، انظر إلى المسلمين فى نواحى العالم الإسلامى ماذا يعانون من المصائب والنوازل والدمار ، لماذا ؟ لأنهم لم يستطيعوا أن يستخدموا عقولهم للانسجام مع هذه الحضارة السامية المشرقة ، وهذا سبب بقائنا مدة طويلة فى الحضيض ووراء الركب ، وتردينا الآن فى الهوة السحيقة ، وإن استطعنا فى السنوات الماضية أن ننجح إلى حد فى إنقاذ أنفسنا فذلك لأن عقلياتنا قد تطورت ، ولكننا لانقف على مكان ، بل إنا نهضنا لنتقدم ونواصل السير إلى الأمام فليحدث ما يحدث ، ليست لنا الآن طريق أخرى ويجب أن تعلم الأمة أن الحضارة نار ملتهبة تحرق جميع من لا يخضع لها [٢١] .

ويذكر بغضه وعداءه للدين فى موضع آخر ، فيقول :

« — لم يكن ذلك سراً أن مصطفى كمال لايدين بدين ، لذلك كان شائعاً بين الناس أن الخلافة ستلغى قريباً ، وقد فزع الناس حين شاع أن مصطفى كمال رمى المصحف على رأس شيخ الإسلام الذى كان من كبار علماء الإسلام وشخصية محترمة ، ولم يكن جزاء ذلك إلا أن يلقى حتفه لساعته ، ولكن ذلك لم يحدث ، ويدل ذلك على أن الزمن قد تطور كثيراً [٢٢] » .

ويذكر المؤلف حبه وهيامه بالحضارة الغربية وما كان لها فى نظره من القدس والحرمة وكيف كانت تسيطر على عواطفه وتتغلغل فى عروقه ودمه ، فيقول :

« إن مصطفى كمال كان يتمسك إلى حد كبير بما يلقن ويقول ويأمر به الناس ، وكان يعبد هذه الإله الجديد (الحضارة الحديثة) بحماس ولهفة ، وكان لها

---

(21) P.297

(22) p. 267

وتقاليده ، وأساليب الحديث ، ومناهج الحياة المنزلية التى تربطه بالماضى ، وبالبيئة الشرقية ولقد كان ذلك أصعب بكثير من تكوين الجهاز السياسى من جديد ، وكان يشعر بصعوبة هذه العملية فقد قال مرة : « **انتصرت على العدو ، وفتحت البلاد ، هل أستطيع أن أنتصر على الشعب**[٢٩]» .

إنه انتصر على الشعب حقاً ، فقد جعل الدولة علمانية ، ليس الإسلام دينها الرسمى أحدث الفصل بين الدين والسياسة ، وقرر أن الدين قضية شخصية ، لكل فرد أن يختار له ديناً ويدين به . من غير أن يكون له دخل فى السياسة والإدارة ، وألغى المحاكم الشرعية ، وقانون الشريعة الإسلامية ، وقرر العمل بالقانون المدنى السويسرى ، والقانون الجنائى الإيطالى ، والقانون التجارى الألمانى ، وأدخل الأحوال الشخصية فى القانون المدنى الأوربى ، ومنع التعليم الدينى ، وعطّل مراكزه ، ومنع الحجاب ، وقرّر السفور والتعليم المختلط ، وألغى الحروف العربية وأبدلها بالحروف اللاتينية ، ومنع الأذان بالعربية وجعله بالتركية ، وغيّر اللباس ، وألزم لبس القبعة ، وبعبارة موجزة : « **قد حطم الأساس الدينى ، وغيّر وجهة نظر الشعب التركى والحكومة التركية**[٣٠] » .

إن « **عرفان أوركا** » بعد تقديم خلاصة المحاضرة التى ألقاها « **كمال أتاتورك** » فى البرلمان حينما قدم إليه مشروع تحويل الدولة علمانية يقول :

« – قدم مصطفى كمال فى ٣/ آذار (مارس) ١٩٢٤ م مشروعاً تحولت به الدولة التركية دولة علمانية (Secular) ، وألغى منصب الخليفة وقد كان مصطفى كمال صريحاً وجريئاً فى حديثه عن هذا الموضوع ، فقال :« **إن الامبراطورية العثمانية قامت على أسس الإسلام ، وإن الإسلام بطبيعته ووضعه عربى وتصوراته عربية ، وهو ينظم الحياة – من ولادة الإنسان إلى وفاته – ويصوغها صياغة خاصة ، ويخنق الطموح فى نفوس أتباعه ، ويقيد فيهم روح المغامرة والاقتحام ، والدولة لاتزال فى خطر ما دام الإسلام دينها الرسمى**[٣١] » .

---

(٢٩) Grey woolf P. 287

(٣٠) P. 190

(٣١) P. 241

ويقول المؤلف متحدثاً عن التأثير العميق الذى أحدثه ما انتهت إليه الحكومة الجديدة وما قررته من إصلاحات حديثة :

« – كل ما قرره البرلمان لم يسترع الانتباه إلّا قليلا ، كان ذلك فى الواقع ضربة قاضية على الإسلام ، وأصابه فى المقتل ، وقد كان تأثير قرار توحيد المعارف بعيد الأثر فى نظام الثقافة والتعليم ، فقد استحوذت بذلك وزارة المعارف العمومية على الجهاز التعليمى كله فى حدود الجمهورية ووضعت يدها عليه ، وقد شل هذا التطوير نشاط المدارس وحرية الأساتذة والمعلمين الذين كانوا يباشرون التدريس فيها .

والخطوة التالية هى تأسيس إدارة الشؤون الدينية التى كانت تحت إشراف مدير رسمى ، وقد كانت تختلف عن وزارة الشريعة والأوقاف القديمة ، وكانت هذه الوزارة تتولى الأمور الدينية أو المقاصد الخيرية ورعاية المساجد ودار الأيتام ، ولكنها كانت تسىء تطبيق النظام والإدارة إساءة فاضحة [٣٢] » .

وقد كان إحداث الحروف اللاتينية وحده كفيلا بحدوث ثورة فى حياة الشعب التركى وإنشاء جيل تنقطع كل صلة له عن الحضارة القديمة والثقافة الماضية ، وقد كان طبيعياً أن تخضع العلوم والآداب كلها لهذا الحادث الخطير ، وقد تحدث المؤرخ الكبير آرنولد توينبى (Arnold Toynbee) فى كتابه (A Study of History) ببلاغة عن مدى التأثير الذى أحدثه تغيير الحروف فى تركيا وذكاء كمال أتاتورك فى اختيار أفضل الطرق لذلك ، يقول :

« قد شاع فى الناس أن مكتبة الاسكندرية التى كانت تضم ذخائر أكثر من تسعة قرون علمية سجر بها التنور لتسخين الماء للحمامات [٣٣] .

---

(٣٢) P. 242

(٣٣) يشير إلى قصة حريق مكتبة الإسكندرية وأسطورتها التى خلاصتها أنه أحرقت هذه الذخائر العلمية بأمر من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ،وقدتحقق تاريخياً أن هذه الرواية أسطورة لا أصل لها ، بل كانت هذه المكتبة قد أحرقت قبل الفتح الإسلامى من مدة طويلة ، وقد أثبت العلامة شبلى النعمانى عليه رحمة الله فى كتابه العظيم « **مكتبة الاسكندرية** » أنها لا أساس لها من الصحة ، وهو من خير البحوث التى تناولت هذا الموضوع .

وقد قام هتلر فى عصرنا بكل وسيلة بإتلاف الذخائر العلمية التى تعارض فكرته وبإبادتها وقد جعل حدوث المطابع نجاح هذه العملية شبه المستحيل .

وقد كان مصطفى كمال معاصر هتلر أكثر توفيقاً وذكاء فى إيثار الطريقة التى تضمن نجاحه ، وكان دكتاتور تركيا يريد أن يحرر مواطنيه وعقلياتهم من أجواء المدنية الإيرانية التى ورثوها ودرجوا عليها ويصوغهم بقوة فى صياغة الحضارة الغربية ، وقد اقتصر على تحويل حروف الهجاء مكان إحراق الكتب ، وقد استغنى بذلك عن تقليد امبراطور الصين أو الخليفة العربى .

وقد أصبحت الذخائر الكلاسيكية للكتب الفارسية والعربية والتركية لا تتناولها أيديهم وأصبحت أجنبية لا تبلغها مداركهم ، وأصبح إحراق الكتب عملاً لا لزوم له ، لأن حروف الهجاء قد ألغيت ، وقد كانت مفتاح هذا النتاج العلمى والإفادة منه ، وبذلك ستظل هذه الذخائر مقفلة فى الدواليب ينسج عليها العنكبوت ولا يطمع فى قراءتها إلا بعض الشيوخ المسنين من العلماء[٣٤] » .

إن « أتاتورك » نجح نجاحاً باهراً فى إقصاء العنصر الإسلامى والعربى من الحياة التركية ، ولا يدرى أحد هل كان هذا الانتصار مؤقتاً تقضى عليه ثورة الشعب التركى المسلم ، وانتفاضته الإيمانية ، أم تطول مدته ؟ وعلى كل فقد كان تغييراً شاملا عميقاً .

تأثير أتاتورك فى العالم الإسلامى :

وهكذا كانت تركيا – مع الأسف – طليعة حركة التجديد – وبعبارة أصح ، – التجدد ،وطليعة « **التغريب** » وقدوة الزعماء « **التقدميين** » فى الدول والحكومات والأقطار الاسلامية ، وكان كمال أتاتورك رمز التقدم و « **الثورة** » فى كل بلد ناهض ، وفى كل مجتمع متحرر فى العالم الإسلامى ، والمثل الأعلى للقادة

---

(٣٤) Toynbee.A Study of History P. 618,19

والسياسيين والمفكرين المسلمين على اختلاف أجناسهم وبيئاتهم ، ولا نعرف زعيما – على فقره فى النبوغ العقلى والتعمق – من زعماء البلاد الإسلامية أثر فى العقول والنفوس ، وأثار الإعجاب بشخصيته وأعماله وأثار الرغبة فى تقليده والاحتذاء به ، مثل ما فعل « **كمال أتاتورك** » فى الزمن الأخير .

وكان السبب الأكبر فى ذلك ما اشتهر أنه أنقذ تركيا من الخطر المحدق بها ، الآخذ بالخناق ، وأسس حكومة قوية ، وكسب احترام الحكومات الأوربية والزعماء السياسيين فى أوربا ، وكان المسلمون فى الشرق متعطشين إلى القوة السياسية والمجد والاستقلال ، ويخضعون بالإجلال لكل من يتسم بذلك أو يسعى إليه ، فخضعوا لأتاتورك ودانوا له بالحب العميق والتقديس المفرط ، ونسوا فى تقديسهم له ما للشعب التركى المؤمن الشجاع من سهم ومن فضل فى هذه الثورة ، وفى التمرد على الأوضاع القاسية ، والأمم الضارية ، وفى بناء هذا الكيان القومى المتين ، وردوا الفضل كله فى ذلك إلى عبقرية « كمال » وقيادته الفذة .

والسبب الثانى أن إصلاحاته صادفت رغبة فى نفوس الزعماء القوميين ، وعبرت عما تجيش به نفوسهم من القلق والثورة على القديم ، والتحرر من ربقة الدين ، والاتجاه بشعوبهم إلى الحضارة الغربية ، ومهما كانت الأسباب فإن كمال أتاتورك قد حل محلا فى النفوس لم يشغله زعيم شرقى من زمن طويل ، وكان له تأثيره المتوقع فى اتجاه الشعوب والأمم الإسلامية والموقف الذى اتخذته إزاء الحضارة الغربية .

الصراع بين الشرق والغرب فى الهند :

وكان المجال الثانى الذى ظهر فيه – لعوامل سياسية وثقافية – الصراع بين الشرق والغرب واضحاً قوياً ، وكان مكلفاً باختيار أحد الطريقين : الحياة الإسلامية على أساس العقيدة والايمان ، والحياة الغربية على أساس القوة والتقدم ، هو الهند التى توطدت فيها الحكومة البريطانية الزعيمة للحضارة الغربية فى الشرق ، وزحفت إليها العلوم الحديثة والتنظيمات الجديدة ، وما تستتبعها من آلات ومصنوعات وآراء وفلسفات ، وكان الشعب الإسلامى الهندى منهوك القوى ، مثخناً بالجراح ، مجروح

الكرامة ، يعانى دهشة الفتح وعار الهزيمة ، وجيشاً من التهم والظنون ، ويواجه فاتحاً ممتلئاً بالقوة والشباب والثقة ، وحضارة زاخرة بالجدة والنشاط والإنتاج ، وقضايا كثيرة ومشكلات تتطلب الحل السريع الحازم ، والموقف الواضح الحاسم .

القيادة الدينية والمدرسة القديمة :

فى هذه الساعة العصيبة الدقيقة ، وفى هذه الحالة النفسية المحرجة برز فى الميدان نوعان من القيادة : أولهما القيادة الدينية ، التى يتزعمها علماء الدين ، والقيادة الثانية ، يتزعمها سيد أحمد خان وتلاميذه وأنصاره من أهل المدرسة الجديدة .

أما علماء الدين فقد كانوا أقوى علماء العالم الإسلامى شخصية دينية ، ومن أكثرهم رسوخاً فى الدين ، وزهداً فى الدنيا ، وإيثاراً للآخرة ، وغيرة على الإسلام ، وجهاداً فى سبيله بالنفس والنفيس ، ولكن جوهم الخاص الذى عاشوا فيه ، وثقافتهم القديمة ، لم تمكنهم من السيطرة على هذه الحضارة الغربية والثقافة الجديدة وقيادتها إلى ناحية جدية مجدية تعود على الاسلام والمسلمين بالنفع والقوة .

ثم إن الهمجية التى ظهرت من الحكومة الانجليزية والقسوة النادرة التى عاملت بها المسلمين الذين اعتبرتهم أصحاب الفكرة فى الثورة المخفقة سنة ١٨٥٧ م وقادتها[٣٥] ، وتحمس الحكام والولاة الانجليز لنشر المسيحية فى طبقات الشعب الهندى ، والسرعة الزائدة التى كانت الحضارة الغربية تنتشر بها فى الجمهور وتأثيرها فى عقيدة المسلمين وأخلاقهم، كل ذلك وضعهم فى مركز الدفاع عوضاً عن الهجوم ، وجعلهم يفكرون فى الاحتفاظ بالبقية الباقية من العاطفة الدينية ، والروح الإسلامية ومظاهر الحياة الاسلامية ، والدعوة إلى التجنب عن هذه الحضارة والابتعاد عنها ما أمكن ، وجعلهم يفكرون فى بناء معاقل الحضارة الاسلامية والثقافة

---

(٣٥) اقرأ فصل « **الدور الذى قام به المسلمون فى تحرير الهند** » فى كتابنا « **المسلمون فى الهند** » ص ٨٥ – ٩٤ ط ندوة العلماء لكهنئو(الهند)

الاسلامية ، والعلوم الشرعية ، وتخريج العلماء والدعاة والمرشدين من هذه المعاقل التى سميت بعد بالمدارس العربية .

وكان على رأس هذه الحركة الاصلاحية والتعليمية المنتجة الامام محمد قاسم النانوتوى [٣٦] مؤسس معهد ديوبند الكبير ،وكان لا ينظر إلى المؤسسة التى ساهم فى تأسيسها وقادها فى حياته ، كمعهد يقوم بتدريس العلوم والمواد الدراسية ويخرج الفقهاء والمعلمين فحسب ، يل ينظر إليه كمركز « **وثكنة** » تخرج المكافحين والدعاة الذين يفتحون جبهة جديدة للكفاح بعد ما لقى المسلمون الهزيمة المنكرة من الانجليز المحتلين ، وانقرضت الدولة الإسلامية من الهند .

يقول الشيخ مناظر أحسن الكيلانى فى « **سيرة مولانا محمد قاسم النانوتوى** » مؤسس دار العلوم ديوبند :

قد اشتغل عقله الكبير فى فتح الجبهات الجديدة وتهيئة مجالات الكفاح بعد ما أخفقت ثورة عام ١٨٥٧ م ، وكان نظام التعليم والتربية السائد فى دار العلوم ديوبند عاملا أساسياً لتحقيق هذا المنهج الذى آثره الشيخ » .

إن الذين تراجعوا من ساحة شاملى [٣٧] لم ينقطعوا عن التفكير ، ولم يضعوا

---

(٣٦) هو الشيخ الإمام قاسم بن أسد على الكرى النانوتوى ولد بنانوته فى الولاية الشمالية فى الهند سنة ١٢٤٨ هـ وقرأ على الشيخ مملوك الغلى النانوتوى ، وأخذ الحديث عن الشيخ عبد الغنى بن أبى سعيد الدهلوى ، وأخذ الطريقة عن العارف الكبير الشيخ إمداد الله العمرى التهانوى المهاجر إلى مكة المكرمة وأسهم فى ثورة سنة ١٨٥٧ م على الحكومة الانكليزية ، واضطر إلى الاختفاء مدة من الزمان ، وتبنى فكرة تأسيس مدرسة كبيرة فى ديوبند وانقطع إليها ، وكانت له مواقف عظيمة فى مناظرة النصارى والآرية ظهرت فيها براعته وذكاؤه وإخلاصه ، وعارض قائد الحركة التعليمية الجديدة سيد أحمد خان لآرائه الشاذة وحريته الزائدة فى تفسير القرآن والدعوة إلى تقليد الحضارة الغربية ، وقد اعترف سيد أحمد خان بتبحره فى العلم وإخلاصه فى المعارضة وزهده فى زخارف الدنيا ، له مؤلفات بليغة أشهرها تقرير دل بذير ، وحجة الإسلام ، وآب حياة ، توفى إلى رحمة الله سنة ١٢٩٨ هـ .

(٣٧) قرية بين دهلى وسهارنبور وقد كانت فيها فى عام ١٨٥٧ م معركة حربية ضد الانجليز قاتل فيها الحاج إمداد الله المهاجر المكى ، والشيخ محمد قاسم وزملاؤهما واستشهد فيها الشيخ محمد ضامن .

أوزارهم ، بل بقى هؤلاء يكافحون لبقاء الدين والعلم الدينى ، واشتغلت به عقولهم وقلوبهم ، ينتظرون من الله النصر . وكان ضمن هذه الجهود هذه المدرسة التى لم تكن غايتها التدريس والتعليم فحسب ، وإنما كان من غايتها الأساسية تربية رجال يتداركون الهزيمة التى لحقت المسلمين فى عام ١٨٥٧ م [٣٨] .

وسواء تحقق هذا الغرض النبيل أم لم يتحقق ، ولكن مما لا شك فيه أن لهذه الحركة وقادتها فضلا كبيراً فى تمسك الشعب الهندى الإسلامى بالدين وشريعة الإسلام ، وتفانيه فى سبيله ، والتماسك أمام الحضارة الغربية المادية الالحادية تماسكا لم يشاهد فى بلد إسلامى آخر تعرّف بهذه الحضارة ووقع تحت حكم أجنبى ، وكانت ديوبند زعيمة هذا الاتجاه ، والمركز الثقافى الدينى والتوجيهى الإسلامى الأكبر فى الهند [٣٩] .

حركة ندوة العلماء :

وكانت حركة العلماء الفكرية التى أسسها مولانا محمد على المونكيرى [٤٠]

---

(٣٨) سوانح قاسمى الجزء الثانى ص ٢٢٣ - ٢٢٤ - ٢٢٦ .

(٣٩) انظر فصل « **مراكز العلم والثقافة الاسلامية** » فى كتاب « **المسلمون فى الهند** » .

(٤٠) هو السيد محمد على بن عبد العلى الحسينى ، ولد فى كانفور فى شعبان ١٢٦٢ هـ ٢٨ يوليو ١٨٤٦ م تخرج فى مدرسة فيض عام كانفور ، وبايع الشيخ العارف فضل رحمن الكنج مراد أبادى واختص به ، قاوم حركة التنصير فى الهند مقاومة فعالة وألف وكتب وقام بجولات واسعة فى البلاد . وأسس ندوة العلماء فى سنة ١٣١٠ هـ - ١٨٩٣ م ، وأنشأ دارالعلوم التابعة لها فى عام ١٣١٦ هـ - وقاوم حركة القاديانية فى « **بهار** » وبايعه خلق كثير يعدون بمئات الالاف ، وتوفى فى ٩ ربيع الأول سنة ١٣٤٦ هـ ، وكان من كبار المخلصين والعلماء الربانيين الذين شعروا بتغير الأحوال والأوضاع فى العالم الإسلامى ، ونهضوا للتجديد فى منهج التعليم الدينى .

وقادها العلامة شبلى النعمانى [٤١] وزملاؤه ، ودار العلوم التابعة لها جديرة بإحداث قنطرة تصل بين الثقافتين الإسلامية والغربية ، والطبقتين : علماء الدين والمثقفين العصريين ، واحداث فكر جديد يجمع بين محاسن القديم والجديد ، وبتعبير أصحاب هذه المدرسة الفكرية « **بين القديم الصالح والجديد النافع** » و « **بين التصلب فى الأصول والغايات والتوسع والمرونة فى الفروع والآلات** » كان قادة هذه الفكرة ينظرون إلى مناهج التعليم وبرامجه كأداة للتعليم قابلة للنمو والتطور ، خاضعة لحاجة كل عصر ومقتضاه ولم يكونوا ينظرون إليها كأداة حديدية لا مرونة فيها (مع الاحتفاظ بالروح والأهداف والعلوم الأساسية) وهى عندهم حافلة بالحيوية الكاملة والازدهار ، وبتعبير آخر : إن الدين حقيقة خالدة ليست فى حاجة إلى تطوير أوتبديل ، ولكن العلم شجرة مزهرة مثمرة تؤتى أُكلها كل حين ويستمر نموها وازدهارها ، والإسلام عندهم دين الإنسانية كلها ودين العصور كلها ، لذلك من الطبيعى أن يمر بمراحل التطور والارتقاء الفكرى الإنسانى المختلفة ، ويكلف القيادة فى بيئات تتغير فيها الأفكار والمفاهيم ، لذلك يجب أن يوسع نطاق التعليم والثقافة الذى يعدّ ممثلى الإسلام ومفسريه ، ويبرهن دائماً على صلاحها وحيويتها ، وقد رفع مؤسسو ندوة العلماء أصواتهم لإصلاح المناهج وتوسيعها وتطويرها ، وقد كان هذا الصوت غريباً فى الهند التى ظلت متمسكة بالمنهاج القديم ، وعاضّة عليه بالنواجذ ، وكان خافتاً فى الأقطار الإسلامية الأخرى كذلك ، يقدر ذلك بقطعتين اقتبسنا إحداهما من كتابة مؤسس ندوة العلماء الشيخ محمد على المونكيرى ، والثانية من كتابة العلامة شبلى النعمانى :

---

(٤١) هو العلامة شبلى بن حبيب الله ولد فى سنة ١٢٨٤ هـ فى أعظم كره ، ودرس زماناً فى كلية على كره ، وصحب سيد أحمد خان مؤسس الكلية ، وأنكر بعض اتجاهاته المتطرفة ، وزار تركيا ومصر وسورية وغادر الكلية وأقام فى حيدر آباد خمس سنين ، ومديراً لنظارة العلوم والفنون ، وأسهم فى حركة ندوة العلماء وكان عضوها النشيط والمشرف التعليمى لمدة ثمانية أعوام، ثم استقال وأسس المجمع العلمى المعروف بدار المصنفين فى أعظم كره ، وألف فى التاريخ الاسلامى كتبا مهمة ، وكانت له مكانة مرموقة فى نقد الشعر والأداب والتاريخ ، ومن مصنفاته المشهورة سيرة المأمون ، وسيرة النعمان ، وكتاب الجزية فى الاسلام ، وحقوق الذميين ، و« الفاروق »وشعر العجم ، وغير ذلك توفى ١٣٣٢ ببلدة أعظم كره.

« – قد تغيرت الظروف والأحوال فى هذا العصر ، إن الاعتراضات التى شغلت العقول وحلقات الدرس قديماً قدفقدتأهميتها وقيمتها ، وانقرضت الفِرق التى كانت تثيرها وتتشبَّث بها ، وأصبح العكوف على دراستها وتفهمها إضاعة للوقت وجهاداً فى غير عدوّ ، وقد نشأ عالم جديد وتجددت حاجاته ، قد أثار أعداء الإسلام وخصومه أسئلة جديدة فى هذا العصر لم تكن تخطر على بال ، وذلك فى ضوء الفلسفة الجديدة ، ولايمكن إشباع الرد عليه والاقتناع العلمى بالاعتماد على الفلسفة القديمة فقط . وإن زعم زاعم ، والسبب فى ذلك أن الإنسان لا يستطيع أن يحل الشبهة ويفحم الخصم إلّا إذا عرف ما يؤول إليه الاعتراض وعرف الدوافع [٤٢] .

« – إن هذه العلوم اليونانية ليست علومنا الدينية ولا يتوقف عليها فهم ديننا ومعرفته ، إن الإمام الغزالى فى عصره قد ضم هذه المواد الدراسية إلى مناهج التعليم فى عصره لكى يطلع العلماء على الأساليب الجدلية اليونانية التى نشطت فى نشرها الفرقة الباطنية فى ذلك العصر ويقاوموا بذلك حركة الالحاد المتفشى فى ذلك العصر ولكن الآن لا وجود لأولئك الملاحدة ولا لتلك العلوم اليونانية ، ولايعتقد صدقها وصحتها المتنوِّرون ولا من يدعى الفطنة، لذلك فقدت تأثيرها ولاخطر على الإسلام اليوم منها ، وقد احتلت مكانها علوم حديثة وقضايا جديدة ودراسات وأبحاث جديدة ، وقد أصبح من الضرورى أن يطلع علماؤنا على الابحاث الجديدة والعلوم العصرية المفيدة ليقدموا حلولاً للمعضلات الحديثة وليردوا على الشبهات رداً علمياً مؤسساً على الدراسة والتحقيق» [٤٣] .

وكانت حركة ندوة العلماء فكرة ومدرسة فكرية أكثر من حركة إصلاح مناهج التعليم فحسب ، وكانت – لو قدَّر الله – خطوة مباركة وفتحاً يستحق التقليد فى الأقطار والمجتمعات الإسلامية التى خاضت فى ذلك العهد معركة الصراع بين القديم والجديد ، ولكن هذه الحركة لم تحظَ بالتعاون الواسع المتحمس الذى كانت تستحقه من كلتا الطبقتين : القديمة والجديدة ، لاتساع الفجوة بينهما ، ولوجود التطرف

---

(٤٢) مكاتب محمدية – مجموع رسائل الشيخ محمد على المونكيرى

(٤٣) حياة شبلى ص ٦٠ للعلامة السيد سليمان الندوى

والمغالاة فيهما ، وبعض الخلافات التى حدثت فى صفوف العاملين لهذه الفكرة ، وأخيراً لا آخراً لعدم وجود طبقة من الأساتذة والموجهين الذين قد تبحروا فى الثقافتين ، وقد أحسنوا هضمهما وكوّنوا من هذه المواد – التى قد تبدو متناقضة – رحيقاً صافياً نافعاً ، كما تعمل النحل من الأزهار والأشجار ، وبقى معظم الشعب يتأرجح بين طبقتين : طبقة ترى العدول عن القديم ونظمه التعليمية والانحراف عنها قيد شعرة ضرباً من التحريف أو نوعاً من البدع ، وطبقة تقدس كل ما جاء من الغرب وتبرئه من كل عيب ونقص ، وتعتقد بأصحابه العظمة والعبقرية ، فى جميع الآراء والمذاهب الفكرية .

ورغم ذلك كله لاتزال فكرة ندوة العلماء الفكرة الوسط والحقيقية التى تستطيع أن تُنقذ نظام التعليم الدينى من الانهيار وتتفادى بها الأمة الصراع بين القديم والجديد ، ووجود طبقتين متناوئتين متنافستين ، طبقة علماء الدين ، وطبقة رجال الثقافة الحديثة ، الوضع الذى جر على كثير من البلاد الإسلامية شقاء وكان السبب فى كثير من الأحيان فى اتجاه البلاد العلمانى ، واللادينى .

وكان لقادة هذه الفكرة ولمتخرجى مدرستها – دار العلوم ندوة العلماء – فضل لا يستهان به فى نشر الثقافة الإسلامية ، وعرض السيرة النبوية ومحاسن الإسلام وتعاليمه فى أسلوب عصرى قوى وثوب قشيب ، وكان لكتابات العلامة شبلى النعمانى العلمية والأدبية ولا سيما لكتبه « **سيرة النبى** ﷺ » و« **الفاروق** » و « **الغزالى** » و « **الرومى** » ولرسائله : « **الجزية فى الاسلام** » « **ومكتبة الاسكندرية** » و« **نظرة تاريخية على عالمكير** » تأثير كبير فى إعادة ثقة الجيل الجديد بالثقافة الإسلامية ، ومكافحة مركب النقص فيهم ، كذلك كان لتلميذه النابغة العلامة الدكتور السيد سليمان الندوى رحمة الله عليه فضل كبير فى هذا الاتجاه .وكانت المجلدات الأربعة التى أكمل بها كتاب سيرة النبى ﷺ موسوعة كبيرة فى السيرة وعلم التوحيد ، ويعتبر كتابه « **خطبات مدراس** »[٤٤] . من أقوى

---

(٤٤) نقل هذا الكتاب إلى اللغة العربية ونشر باسم «**الرسالة المحمدية** » تعريب صديقنا الفاضل الأستاذ محمد ناظم الندوى .ط : دار الفتح دمشق .

وأجمل ما كتب فى السيرة ، وكذلك كُتبه عن الشخصيات الاسلامية ، وفى البحوث العلمية ، وقد ساهم بنشاط وجدارة فى حركة البلاد العلمية والأدبية والسياسية مساهمة أكسبت العلماء تقدير رجال الثقافة الجديدة ورجال العلم والأدب ، وأبعدت عنهم تهمة « الانعزالية » التى أصيب بها العلماء فى عهد الانحطاط الأخير ، وكانت مجلة « المعارف » التى يرأس تحريرها تعتبر من أرقى المجالات العلمية الاسلامية فى العالم الاسلامى .

قيادة سيد أحمد خان ومدرسته الفكرية :

أما القيادة الثانية التى تزعمها سيد أحمد خان على أساس تقليد الحضارة الغربية وأسسها المادية واقتباس العلوم العصرية بحذافيرها وعلى علاتها ، وتفسير الإسلام والقرآن تفسيراً يطابقان به ما وصلت إليه المدنية والمعلومات الحديثة فى آخر القرن التاسع عشر المسيحى [٤٥] ويطابقان هوى الغربيين وآراءهم وأذواقهم ، والاستهانة بما لا يثبته الحس والتجربة ، ولا تقرره علوم الطبيعة فى بادىء النظر ، من الحقائق الغيبية ، وأمور ما بعد الطبيعة [٤٦] .

شاهد سيد أحمد خان [٤٧] انهيار الحكومة الإسلامية المغولية التى كانت صورة

---

(٤٥) وكان كما لا يخفى دوراً لم تبلغ فيه العلوم الطبيعية نهايتها واكتمالها ، وكانت لا تزال فى دور الطفولة والنشوء والارتقاء .

(٤٦) اقرأ للتفصيل وفهم إسلوب التفكير الدينى الذى اتبعه سر سيد أحمد خان فى آرئه الدينية ومناهجه الكلامية ، كتاب — Religioius Thought of Syed Ahmaf Khan لمؤلفه بشير أحمد دار — Bashir Ahmad Dar M.A
من مطبوعات مجمع الثقافة الاسلامية INSTITUTE of Islamic Culture, Lahore.

(٤٧) هو سيد أحمد بن المتقى بن الهادى الحسينى الدهلوى ولد سنة ١٢٣٢ هـ — ١٨١٧ م وقرأ المتوسطات فى العلوم العربية ، وعنى بالهيئة والهندسة والأقليدس عناية خاصة ، وتولى الوظائف والقضاء فى الحكومة الانجليزية ، وألف كتبا ذات قيمة علمية فى التاريخ ، وتولى تصحيح بعض الآثار العلمية والمؤلفات القديمة ، وأشرف على ضبطها ونشرها ، وكان من أنصار الحكومة الانجليزية وممن سعى فى إخماد ثورة ١٨٥٧ ، وتوطيد الحكم الانجليزى وإزالة سوء التفاهم والوحشة بين الشعب والحكومة ، وكافأته الحكومة على ذلك براتب شهرى =

مصغرة شاحبة للإمبراطورية الإسلامية ، ورأى إخفاق الثورة الكبرى فى سنة ١٨٥٧ م ، واطلع على أسباب هذا الإخفاق الذريع وانهزام مجموعة كبيرة ضخمة من أهل البلاد أمام حفنة من الأجانب الغرباء ، ورأى ما دفع المسلمون من قيمة هذه الثورة التى رسموا خطتها وتولوا كبرها ، ورأى هوان الشعب الكبير الذى كان صاحب الأمر والنهى فى البلاد ، وشقاء الأسر والبيوتات الكبيرة ، ورأى سطوة الإنجليز تقوم على هذه الأنقاض ، وأبهة ملكهم ، وطلائع مدنيتهم الخلابة ، وآياتها الباهرة ، واتصل بالانجليز اتصالا وثيقاً عن طريق الوظيفة والزمالة وعن طريق الصداقة والتعارف ، فأعجب بذكائهم وكفاءتهم ومدنيتهم ، وكان رجلا مرهف الحس ، حاد الذهن ، قوى العاطفة عصبياً ، سريع الانفعال والقبول ، ومشاركا فى الثقافة الدينية غير راسخ فيها ولا متقن لها،جريئاً فى إبداء الرأى ، فتأثر بالانجليز تأثر المغلوب بالغالب ، والضعيف بالقوى ، وقلد حضارتهم وأساليب حياتهم شخصياً ، وصار يدعو إلى هذا التقليد فى حماسة وقوة ، ويرى أن هذا التقليد والظهور فى مظهر سيد البلاد ومجاراته فى الحياة والعادات تزيل الهيبة من قلوب المسلمين ، وتعالج « مركب النقص » فيهم ، وترفع مكانتهم فى عيون الولاة ورجال الحكومة ، وتضعهم فى مكان الزملاء ، الشركاء فى الحياة الأقران فى الاجتماع ، يدل على هذه الفكرة دلالة واضحة ما جاء فى بعض مقالاته ، يقول :

« لابد أن يرغب المسلمون فى قبول هذه الحضارة (الغربية) بكمالها ، حتى لا تعود الأمم المتحضرة تزدريهم أعينها ، ويعتبروا من الشعوب المتحضرة المثقفة[٤٨] .

= وأنشأ مجمعاً علمياً للترجمة والتأليف والنشر ، وأصدر مجلة « **تهذيب الأخلاق** » وسافر إلى أوربا سنة ١٢٨٠ م — ١٨٦٩ م وألف هناك كتابه المشهور « **الخطبات الأحمدية فى العرب والسيره المحمدية** » فى الرد على السير وليم ميور ، والدفاع عن صاحب الرسالة ﷺ وأنشأ سنة ١٨٧٥ هـ كلية إسلامية إنجليزية ، وهى التى تسمى الآن جامعة على كره الاسلامية وتوفى سنة ١٣١٥ هـ ١٨٩٨ م ودفن فى على كره اقرأ ترجمته الضافية ومختارته فى المذهب والعقيدة فى الجزء الثامن لكتاب « نزهة الخواطر ' وبهجة المسامع والنواظر » لوالدنا العلامة السيد عبد الحى الحسنى .

(٤٨) مجلة « تهذيب الأخلاق » مقالات سيد أحمد خان ج ٢ ص ١ .

ويقول فى كتابه « **أحكام طعام أهل الكتاب** » وهو من مؤلفاته القديمة ، طبع فى سنة ١٨٦٨ م ، حاثاً على التشبه بالانجليز فى عاداتهم وأساليب معيشتهم ، قال بالعربية :

« فأيها المسلمون تعلموا بها لا على نية العجب والتكبر ، بل على نية ترفع حال المسلمين لئلا ينظر إليهم القوم (**الأوربيون**) بنظر الحقارة ، مما اعتادوا من الذلة والمسكنة ، إن الله يعلم ما فى صدورنا ويحكم علينا بما فى قلوبنا من حسن النية أو غيره . [٤٩] » .

وقام سيد أحمد خان برحلة إلى إنجلترا فى أول إبريل ١٨٦٩ م ، فكان أول مسلم هندى سافر إلى الجزائر البريطانية فى هذا العهد المبكر ، وقد كانت قناة السويس فى دور الانشاء[٥٠] وقد قابل صاحب فكرتها والاشراف عليها المهندس الفرنسى الشهير الموسيو فرديناند دى ليسبس (Ferdinand De Lesseps) الذى كان مسافراً فى نفس السفينة وكان السيد أحمد خان موضع حفاوة نادرة فى لندن ، وقد مكث فيها سبعة عشر شهراً ، كان ضيفاً مبجلا وزائراً كريماً ، وصديقاً عزيزاً فى الأوساط الانجليزية المحترمة ، وحضر المآدب الملكية الفخمة والولائم « **الاستقراطية** » التى تمثل الحضارة الأوربية فى أروع مظاهرها ، وأخلاق الطبقة الحاكمة ، وطبقة الأشراف ، ونال الوسام الملكى ولقب الشرف ، وقابل الملكة ، وولى العهد والوزراء الكبار ، واختير عضواً فخرياً فى الجمعيات العلمية ذات الشرف الكبير ، وحضر حفلة نادى المهندسين الكبار ، واطلع على المشاريع والخطط التقدمية التى مرت بها البلاد فى الزمن القريب ، والتى أحدثت ثورة وانقلاباً فى الأوضاع ، وفى مستوى البلاد ، ومكنتها من بسط نفوذها وسيطرتها الفكرية والسياسية .

زار سيد أحمد خان فرنسا وإنجلترا وهما فى أوج مدنيتهما ، وفى ريعان الصناعة الحديثة والعلم الجديد ، ورأى المجتمع الانجليزى فى عصر لم يتسرب إليه الوهن ،

---

(٤٩) ص ٥٠ ، وقد تناولنا العبارة العربية بشىء من الاصلاح والتقويم .

(٥٠) وفى ١٧ نوفمبر ١٨٦٩ فتحت الترعة لمرور المراكب ، وجرى ذلك باحتفال عظيم لم يكن يسمع بمثله وذلك فى أثناء وجود السيد أحمد خان فى إنجلترا .

ولم يعتره الضعف الذى أصيب به بعد الحرب الأولى ، ورأى الحيوية تتدفق منه ، والطموح إلى غزو العالم وإخضاعه يملك زمامه ، وقد شغل بمشاهدة جانبه المشرق الوضاء عن مشاهدة جانبه الضعيف الأسود ، وهو الجانب الخلقى والروحى ، وجانب الاستعمار الغاشم ، والاجرام العالمى والأثرة القومية ، والقسوة على غير الانجليز – التى رأى مظاهرها فى الهند –فأعجب بهذه الحضارة والمجتمع الذى يمثلها إعجاباً ملك عليه النفس والفكر ، وملأ جميع جوانحه وجوانب تفكيره ، ورجع إلى البلاد فى ٢ أكتوبر سنة ١٨٧٠ م داعية متحمساً إلى تقليد الحضارة الغربية ، وإصلاح المجتمع الإسلامى الهندى على أساس تقليد المجتمع الأوربى ومبادئه وقيمه ، وتبنى هذه الدعوة بكل إخلاص وبكل حماسة ، ووهب لها مواهبه كلها ، وأصبحت نظرته مادية بحتة ، تخضع للقوى الطبيعية ، والسنن الكونية – كما يفهمها – خضوعاً زائداً ، ويخضع لها عقيدته ويؤول على أساسها القرآن تأويلا يبلغ به حد التحريف والعبث بأصول العربية واللغة والنحو ، والتواتر والاجماع ، فصار يفسر القرآن تفسيراً[٥١] يخرق فيه الاجماع ، وينقض به اللغة ، ويثير العجب والإنكار فى الأوساط الدينية والعلمية ، وقد أصاب الدكتور محمد البهى فى نقد هذا الاتجاه إذ يقول فى كتابه « **الفكر الإسلامى الحديث** » :

« فحركة سيد أحمد خان كانت تقوم على الافتتان بالعلم الطبيعى والحضارة الغربية المادية ، كما يفتتن فى عصرنا الحاضر بعض المفكرين بما يسمى « **العلم** » (Science) وبالمركبات الحضارية التى قامت عليه ، والافتتان بالعلم الطبيعى أو بالطبيعية كمايقال ، يؤدّى الى خفة وزن القيم الروحية والمثالية ، وهى القيم التى تقوم عليها رسالة الأديان السماوية التى يمثلها الإسلام أوضح تمثيل ، وقد يصير الافتتان بهذا العلم الطبيعى إلى إنكار كل قيمة أخرى مما لايشاهد فى الطبيعة ، ويدرك بالحس الإنسانى ، ومن هنا ربط السيد جمال الدين الأفغانى بين إلحاد سيد أحمد خان ومذهبه الدهرى أو الطبيعى ، مع بقاء انتسابه إلى الإسلام ولغته

---

(٥١) سماه « **تفسير القرآن وهو الهدى والفرقان** » كتبه فى « **أردو** » فى ستة مجلدات ، وقد وصل فيه إلى تفسير سورة النحل .

بالإلحاد ، رغم ما كان يكرره من القول بأنه يدافع عن الإسلام ، وأنه يبغى أن يوجد طريقاً للمسلم المعاصر يوفق فيه بين إسلامه وتقبله الحياة العصرية التى قامت على إثر نهضة العلم الطبيعى [٥٢] .

وقد كانت هذا الاتجاه المادى المتطرف والإسراف فى تمجيد العقل والمبالغة فى سلطانه وحدوده . وإخضاع إرادة الله وقدرته وكتابه لقوانين الطبيعة وقوانين هذا العالم ، والجراءة على التفسير وتأويل معانى القرآن تأويلاً جريئاً ، قد فتح باباً للفتنة والتحريف والإلحاد فى آيات الله والفوضى فى الدين والعقيدة التى انتشرت فى العصر الأخير [٥٣] .

جوانب الضعف فى فكرة سيد أحمد خان :

اتسمت خطة سيد أحمد خان التعليمية بسمتين تقاصرت بسببهما عن أن تكون الثورة المنشودة التى تشتد إليها حاجة العالم الإسلامى ، وعملا إيجابياً بناء يلائم وضع هذا المجتمع القائم على أساس العقيدة والايمان والرسالة المحمدية ، ويملأ الفراغ الهائل الواقع فى العالم الإسلامى كله .

أولاً إنه لم يفكر فى إخضاع هذا النظام التعليمى الذى أخذ شكله النهائى فى البيئة الغربية ، لطبيعة هذا المجتمع الاسلامى الهندى الذى كان يريد تطبيقه فيه وحاجاته وأوضاعه ، ولم يفكر فى سبكه سبكا جديداً إسلامياً هندياً ، ولم يفصله عن الحضارة الغربية وروحها المادية التى لا لزوم لها فى بلد إسلامى شرقى ، بل إنه استورد هذا النظام من الغرب بتفاصيله وخصائصه وروحه وطبيعته ، ومع الحضارة التى

---

(٥٢) ص ١٥ – ١٦

(٥٣) قد يفهم القارىء من كتاب « **الفكر الإسلامى الحديث** » للدكتور محمد البهى (ص ١٧) أن المذهب القاديانى انبثق من الحركة التجديدية الدينية التى قام بها سيد أحمد خان ، وليس الأمر كذلك ، فإن سيد أحمد أنكر على مؤسس القاديانية ادعاء النبوة وعارضه ، إن قصارى الأمر أن الجو الذى هيأه سيد أحمد خان قد ساعد فى انتشار هذا المذهب وقبول آراء صاحبه المتطرفة ، وقد كان الخليفة القاديانى (**وعقله الأول**) نور الدين الحكيم من كبار المعجبين بمدرسة سيد أحمد خان فى التفسير والتأويل .

تكتنفه، وألح على كلا الجزأين – المنهاج التعليمى ، والحضارة الغربية – إلحاحاً شديداً ، بل شرط – فى قانون الكلية – أن يكون العميد دائماً إنجليزياً ، وأستاذان – على الأقل – من الانجليز ، ومدير الثانوية من الانجليز ، ويزاد فى هذا العدد كلما اتسعت له ميزانية الكلية [٥٤]

وهكذا كان ، فلم يزل أربعة أو خمسة من الأساتذة الكبار من الانجليز يتولون التدريس فى أقسام مختلفة ويشرفون عليها ، وكان لهم تأثير شديد عميق فى نظام الكلية وأخلاق الطلبة ، حتى استطاعوا – بنفوذهم – أن يلعبوا دوراً مهماً فى سياسة البلاد ، وقد كان عميد الكلية المستر ثيودريك – الداهية الإنجليزى – صاحب التوجيه الأول فى السياسة الإسلامية الهندية وقيادة الرأى ، وقد كان لهذا التوجيه عواقب وخيمة فى السياسة ، واتجاه المسلمين السياسى [٥٥] .

وهكذا اقترنت دعوة سيد أحمد خان التعليمية بالدعوة إلى الحضارة الغربية من غير لزوم وحاجة إلى ذلك ، فحامت حولها الشبهات ، واكتنفها أجواء من السخط والاستياء ، واثارت إنكاراً شديداً فى الأوساط الدينية ، ورافقتها – منذ نشوئها – دعوة إلى مقاطعة هذه الحركة والابتعاد عنها ، خلقت مشكلات كثيرة فى سبيلها ، وعارضها علماء الدين ، الذين لم يكونوا يعارضون تدريس اللغة الانجليزية والعلوم المفيدة – لما اقترن بها ورافقها من أول يومها ، من الخضوع للحضارة الغربية وقيمها ، والتأثير فى الأخلاق والعقائد ، وبسبب سيطرة الأساتذة ورجال الإدارة الانجليز ونفوذهم فى هذه المؤسسة الوليدة وفى عقول الشباب المسلمين – الذين ينتمون إلى أكرم الأسر الاسلامية وأذكاها – وفى أخلاقهم ، وقد نشأ – بفعل هذه المؤثرات وبتأثير الجو الغربى الذى يسود فى هذا المعهد – جيل مثقف إسلامى الاسم ، غربى التفكير ، إنجليزى الطراز ، مضطرب العقيدة فى بعض الأحيان ، ويخلق مشكلة جديدة فى البيوتات وفى المجتمع الاسلامى ولاينسجم معه انسجاماً كلياً .

---

(٥٤) حياة جاويد « سيرة سيد أحمد خان » لصديقه الأستاذ ألطاف حسين حالى ص٢٨٢ .
(٥٥) اقرأ فصل « الدور الذى قام به المسلمون فى تحرير الهند » فى كتاب « المسلمون فى الهند » للمؤلف .

والسمة الثانية أنه تمسك فى هذا النظام التعليمى بتعليم اللغة والآداب فقط ، ولم يعن بتعليم الفنون والعلوم التطبيقية العملية العناية التى تستحقها ، مع أنها هى ثمرة العلم الجديد اليانعة ، وسر قوة الأمم الغربية وسيادتها ، وهى التى يجب أن تستفاد من الغرب ويحرص على دراستها والبراعة فيها ، بل إنه – سامحه الله – عارض فى بعض الأحيان تعليم الصنائع والعلوم معارضة شديدة ، وكتب فى هذا الموضوع مقالات شديدة اللهجة ، مريرة النقد آخرها المقال الذى نشرته مجلة « **عليكرة كزت** » (Aligarh Gazette) فى عددها الصادر يوم ١٩ فبراير سنة ١٨٩٨ م يقول فيه : « إن الهند نظراً إلى حالتها الراهنة ليست فى حاجة إلى تعليم الصنائع ، إن الأهم المقدم هو الثقافة الفكرية من المستوى الأعلى التى لم تتحقق أو لم تكتمل بعد » . وقد تخوف سيد أحمد خان بما كان يقرؤه لكبار الانجليز من الحث على دراسة العلوم الصناعية أن الانجليز يريدون وقف التعليم العالى أو تعليم الآداب الغربية ، فكان يحارب هذه الفكرة بكل قوته وبلاغته ، وقد ألقى محاضرة طويلة فى حفلة مؤتمر التعليم الاسلامى الخامسة فى هذا الموضوع ، وعارض أن يكون مشروع تعليم العلوم الصناعية على حساب تعليم الآداب الانجليزيه والدراسات الأدبية ، وقد عرض هذا المشروع مراراً وبحث فيه فى لجان جامعة « **إله آباد** » وكان سيد أحمد خان من كبار خصومه ومعارضيه (٥٦)

كانت نتيجة ذلك أن الجامعة الاسلامية اتجهت اتجاهاً علمياً أدبياً محضاً ، وسيطرت عليها نزعة التقليد والتطور ، ونزعة التوسع فى الآداب ، وخرجت عدداً لايستهان به من الخطباء والأدباء والاداريين والقضاة والموظفين الكبار ، ولم تخرج – بطبيعة الحال – رجالا مبرزين ومبتكرين فى علوم الهندسة والميكانيكا ، والطبيعة والكيمياء والصناعات المفيدة ، والعلوم التى كان الشعب الإسلامى الهندى فى فقر شديد إليها ، وكان ذلك من أسباب تخلفه واقتصاره على الوظائف الحكومية والمراكز الإدارية المحدودة دائماً .

---

(٥٦) حياة جاويد ص ٣٠٢ – ٣٠٣

محصول هذه الحركة وانتاجها :

وعلى كل ، فقد كان سيد أحمد خان من أقوى الشخصيات التى عرفتها الهند بل العالم الإسلامى فى العهد الأخير ، وكانت الحركة التى قام بها من أقوى الحركات ، وقد كتب لها النجاح والتأثير مالم يكتب لأى حركة وفكرة ، وكان نفوذ شخصية سيد أحمد خان واسع النطاق وعميقاً فى المجتمع الإسلامى الهندى ، كان له تأثير فى الأدب والتفكير وأساليب البيان ، وقد أنشأ مدرسة أدبية لها كُتّاب مفكرون .

وقد آتت هذه الدعوة التعليمية – التى تزعمها سيد أحمد خان بقوة وإخلاص – ثمراتها ، وملأت الفراغ الثقافى ، والاقتصادى الواقع فى المجتمع الإسلامى الهندى – ، بعد استقرار الحكم الانجليزى فى الهند ، وعالج – إلى مدى محدود – القلق واليأس المسيطرين على نفوسهم ، وتخرج فى هذه الجامعة بعض خيرة الشباب وقادة الفكر ، والزعماء السياسيين وأدباء كبار ، وشخصيات قوية ، قادت حركة « **الخلافة** »[٥٧] وحركة التحرير فى الهند ، وساهمت فى قيام دولة باكستان وإدارتها بعد ، ولكنها – على مالها من فضل فى ثقافة المسلمين الجديدة وفى حالتهم الاقتصادية – لم تحقق الغرض المطلوب من الاستفادة بتجارب الغرب وتكييفها للمجتمع الإسلامى وظروفه ، ولم تملأ الفراغ الواقع الهائل ، فراغ الجيل الإسلامى الجديد ، الراسخ فى عقيدته ، القوى فى إيمانه ، العارف لرسالته ودوره فى قيادة المدنية ، الواسع فى ثقافته ، المرن فى تفكيره ، الآخذ من الثقافة الجديدة محاسنها ولبابها ، المتجنب شرورها وقشورها ، الأصيل فى إنتاجه ، الجيل المرتقب الذى كان يتطلع إليه العالم الإسلامى – ولا يزال – فى لهف شديد وصبر نافد ، الجيل الذى كان يستطيع بتوفيق الله أن ينقذ العالم الاسلامى من الحيرة التى كان يتورط فيها ، ومن الضعف الذى قد تسلط عليه ، ويمنحه مركزاً رئيسياً فى قيادة الأمم ، وتوجيه المدنية .

---

(٥٧) هى حركة تأييد الحكومه العثمانية فى قضاياها الإسلامية ، ومعارضة الحلفاء ، وكانت من أقوى حركات الهند الاسلامية السياسية .

أكبر الاله آبادى الشاعر الثائر :

وقد حارب هذه النزعه التطبيقية التقليدية – التى يقودها سيد أحمد خان – حربا لاهوادة فيها معاصر مثقف ثقافة قديمة وجديدة ، ويعتبر من أكبر شعراء عصره ، وهو السيد أكبر حسين [58] الإله أبادى ، الملقب فى شعره بـ « أكبر » واستخدم لنقدها والإنكار على هذا الجيل المثقف الجديد أسلوب الفكاهة الحلوة ، والأدب الخفيف الروح ، من أبلغ الأساليب الأدبية وأقواها ، وأجملها فى هذا العصر ، وجعل ذلك موضوع شعره طول حياته ، ينتقد سياسة سيد أحمد خان – الذى يعترف بإخلاصه – التعليمية ، وما كان يدعو إليه من تقليد الغرب وتطبيق مناهج حياته ، الحياة السائدة فى الكلية الإسلامية ، وما تتسم به من تقليد أعمى للغرب ، وتساهل فى العقيدة ، ورقة فى الدين ، وتبذير فى الأقوال ، وتألق فى المظاهر ، ونفور عن الدين ورجاله ، ونهامة للحياة ، وتهالك على الوظائف الرسمية ، وتخلّ عن التراث الشرقى القديم ، وعن تقاليده ومبادئه ، وثورة عليها ، واندماج فى المجتمع الغربى الغريب ، وسيطرة التفكير المادى الاقتصادى المحض ، ويصور – بشاعريته الساحرة وريشته البارعة – الجيل الجديد تصويراً دقيقاً ، واضح القسمات والملامح .

---

(٥٨) هو السيد أكبر حسين بن تفضل حسين ، ولد فى سنة ١٢٦٢هـ (١٨٤٦م) فى مديرية إله آباد ، وتلقى الثقافة الاسلامية ودرس اللغة الانجليزية ، واجتاز فى سنة ١٢٨٤ هـ امتحاناً فى الحقوق وتولى القضاء ، وتنقل فى الوظائف القضائية ، إلى أن أحيل إلى المعاش سنة ١٣٢٠ هـ – ١٩٠٣ م » ولقبته الحكومة الانجليزية بلقب « خان بهادر » يساوى بك فى المجتمع المصرى – ولقبه الشعب الهندى بلقب « لسان العصر » فغلب لقب الشعب لقب الدولة الرسمى .

وكان – رغم ثقافته الحديثة العميقة – ديناً محافظاً سليم العقيدة ، قال فى الليلة التى توفى فيها : « ما فاتنى فريضة ، ولاغفلت عن حزبى فى الليل ، ولاانصرفت عن تلاوة القرآن طول عمرى » توفى رحمه الله سنة ١٣٤٠ هـ – ١٩٢١ م ومن آثاره ثلاثة دواوين شعرية ضخام تلقتها الأوساط الأدبية والإسلامية بالقبول والاستحسان ، وشهد له كبار الأدباء والشعراء – منهم العلامة محمد إقبال – بالإجادة وأنه إمام فى الشعر الفكاهى الإصلاحى فى (أردو) .

وقد انتشر الشعر فى الأوساط الهندية على اختلاف طبقاتها واتجاهاتها انتشاراً عجيباً : وتلقفه الأدباء والكتاب والشباب وردده ترديداً لم يعرف لشعر آخر منذ زمن طويل ، وعلى نجاح هذا الشعر وتأثيره فى تحريك عاطفة الكراهة والازدراء والتخفيف من غلواء هذه النزعة التقليدية وقيمة هذه الحضارة ، لم يستطع بطبيعة الحال أن يحدث ثورة فى المجتمع ويقف تيار التقليد الجارف ويؤسس مجتمعاً جديدا ، لأن الأدب المؤسس على التهكم والتندّر تأثيره وأجله محدودان ، ولكنه لم يخل من الفائدة ، وكان من عوامل الاتجاهات الأدبية الاجتماعية الجديدة فى الهند(٥٩) .

الحركة الوطنية ومقاطعة البضائع الاجنبية :

كان هذا الاتجاه التقليدى فى الهند – الذى قاده سيد أحمد خان فى المسلمين وغذته الحكومة الإنجليزية ونظام المعارف – فى الطبقة المثقفة ، حراً فى سيره لا يعوقه شيء ، ولايخفف من حدته إلا هدوء الطبيعة الهندية واعتدالها فى قبول كل جديد ، وتمسكها بالقديم وبالبساطة ، إلا أنه كان جديراً كل الجدارة بأن يكون الاتجاه العام السائد على مرّ الأيام ، ويجعل من الهند الشرقية مجتمعاً غربيا فى تفكيره وأساليب حياته ، وفى حضارته واجتماعه ، ولكن حادثاً حال دون ذلك ، وغيّر اتجاه التاريخ .

حدث ما يضعف سلطان الحكومة الإنجليزية – التى تتزعم هذه الحضارة فى الهند – فى النفوس والعقول ، ويثير الشك فى قيمة هذه الحضارة وجدارتها للقيادة واستعدادها للإنصاف وتحقيق العدالة الاجتماعية ، وما يثير السخط الشديد والكراهية العميقة لزعماء هذه الحضارة وممثليها فى الشرق ، وما يحرك الشعور القوى بالشخصية وبالكرامة فى أهل البلاد ، ويحمل على مقاطعة هذه الحكومة وكل ما يُعزى إليها من حضارة ومظاهر وشعائر ، وكل ما يموّن حركتها التجارية والاقتصادية ويغذيها ، ذلك

---

(٥٩) للمؤلف مقالة مسهبة نشرت فى مجلة« الفتح » المصرية مجلد العام التاسع ١٣٥٤هـ عدد ٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٤٤ ، ومجلة « الضياء » الصادرة عن ندوة العلماء – لكهنؤ – (الهند) .

نشوب الحرب العالمية الأولى (سنة ١٩١٤ - ١٩١٨ م) ووقوف الحكومة البريطانية - مع حلفائها - الموقف المعادى من الدولة العثمانية التى ينظر إليها المسلمون فى الهند - كغيرهم فى البلاد الإسلامية - كرمز للمجد الإسلامى ، وموئل للخلافة ، وحامية للإسلام ، ولما تمت الهزيمة للأتراك فى ١٩١٨ م واستولى الانجليز على الاستانة ، وتوزع الحلفاء ممتلكات الدولة العثمانية ، وانفجر بركان الثورة فى الهند ، وتعاون المسلمون الهنادك فى حركة الخلافة بشكل عام ، وكان غاندى - الزعيم الهندى الشهير - فى جبهة القيادة مع زملائه محمد على وشوكت على وأبى الكلام آزاد والشيخ عبد البارى الفرنجى محلى ، واقترحوا سنة ١٩٢٠ م مقاطعة الحكومة والاضراب عن التعاون معها فى إدارة الحكومة وجميع مجالات الحياة ومقاطعة البضائع الأجنبية ، فكان أمضى سلاح سلمى استخدمته حركة وطنية ، وانطلقت موجة عنيفة من السخط الشديد اكتسحت البلاد ، تحمل معها الدعوة إلى مقاطعة البضائع الأجنبية والتخلى عن مظاهر الحضارة الأجنبية المستعمرة ، والظهور فى المظهر الوطنى الشعبى ، والتمسك بالبساطة والتقشف فى الحياة ، والاقتصار على المنتجات الوطنية ، وكانت أعظم وأعنف حركة شاهدتها البلاد ، وكانت البلاد كلها - من أقصى حدودها إلى أقصى حدودها - شعلة نار ، وقد هزت سيطرة الحضارة الغربية فى أعماق النفوس ، واقتلعت جذورها وعروقها من قلوب لايحصيها كثرة إلّا الله وأشعل الناس النيران فى ملابسهم الغربية ، والقماش الوارد من الخارج - من انجلترا - فى جموع حاشدة ، وحفلات كبيرة ، ورفض كبار الأغنياء والمثقفين ، ورجال الطبقة الأرستقراطية عيشتهم الغربية الباذخة ، وتقشفوا وآثروا الحياة البسيطة الوطنية ، وحدث انقلاب عظيم فى حياة الكثيرين من كبار المحامين والتجار والموسرين ، فقد ملأوا السجون - وتحملوا المشاق ، وبدأ منهم من الإيثار ، والزهد والقناعة وقوة العاطفة الدينية والوطنية ، والمواساة للفقراء والمحافظة على الشعائر الدينية ، ما لم يكن يتوقع من أمثالهم قبل ظهور هذه الحركة .

وتلت هذه الحركة التى كان طابعها دينياً ، الحركة الوطنية الهندية العامة ، التى ترمى إلى تحرير البلاد ، وطرد الاستعمار ، وإقامة الحكم الذاتى وكانت - بخلاف كثير من الحركات السياسية فى الشرق - حركة سياسية اجتماعية ذات فلسفة فكرية واقتصادية ، فلعبت دورها فى إضعاف سلطان هذه الحضارة التى جاءت مع المستعمر فى تدعيم الشعور الوطنى ، وإيثار كل ما هو أصيل وعريق فى

طبيعته الهندية وبيئته الوطنيه على المستورَد الأجنبى ، ولا شك أن هذه الحركات السياسية استطاعت أن تفعل – من محاربة مركب النقص ، ومن إثارة الاعتداد بالكرامة والتخلص من الاستعمار الفكرى والثقافى – ما لاتستطيعه الفلسفات العلمية الكبيرة ، وذلك شأن الحركات العلمية الشعبية ، التى تتغلغل فى أجزاء المجتمع ، وتسيطر على تفكيره دائماً فى كل بلد .

محمد إقبال ونقده للحضارة الغربية :

وقد بدأ الشباب الإسلامى الذكى فى فجر القرن العشرين يتوسعون فى الدراسات الغربية ويتعمقون فيها فى الجامعات الهندية الراقية ، وقد زالت عنهم دهشة الفتح وهيبة الإنجليز ، وبدأت بعثات ثقافية ترحل إلى أوروبا ، ويقيم عدد كبير منهم فى عواصمها إقامة طويلة ينهلون من مناهلها الثقافية ، ويدرسون العلوم العصرية بدقة وإتقان ، تحت إشراف أساتذة كبار أحرار ، ويعرفون الحضارة الغربية عن كثب لا عن كتب ، بل يخوضون فيها ، ويسبرون غورها ، ويعجمون عودها ، كأى شباب غربى مثقف من أبناء البلد ، ويدرسون الفسلفات والنظم والمدراس الفكرية ، ويطلعون على دخائلها وأسرارها ، وعلى الطبيعة الغربية المادية ، والنخوة القومية الأوروبية ، والاثرة الشعبية فى نفوس هذه الشعوب ، ويرون جوانب الضعف وبوادر الإفلاس وطلائع الانهيار فى المجتمع الغربى ، ويلاحظون العناصر الصالحة البناءة ، المسعدة للبشرية ، المفقودة فى تركيب هذه الحضارة ، وفى طبيعة زعمائها وحملة لوائها ، وعناصر الفساد الهدامة المدمرة للمدنية المضللة للبشرية ،الموجودة فى عجينها ، المركبة مع طينها من اليوم الأول ، فيثير كل ذلك فى نفوسهم وعقولهم معانى وأحاسيس لم تكن ممكنة إلا مع الإقامة الطويلة فى أوروبا ، والتعمق فى فسلفاتها وأفكارها والدراسة المقارنة ، وإلا مع النظر العميق الجرىء والتحرر من ربقه التقليد ، وإلا مع الإيمان الذى لم يتجردوا عنه ، بل بقى جمرة فى رماد مستعدة للالتهاب فى كل وقت ، فيرجع كثير منهم يائساً من مستقبل الحضارة الغربية ، ثائراً عليها ، ناقداً جريئاً عميقاً متزناً ، لا تطرف فيه ولا إنكار للواقع ، ولا مكابرة فى الحقائق .

لقد كان فى مقدمة هؤلاء الناقدين الثائرين محمد إقبال [60] الذى يعتبر بحق أنبغ عقل أنتجته الثقافة الجديدة التى ظلت تشتغل وتنتج فى العالم الإسلامى من قرن كامل ، وأعمق مفكر أوجده الشرق فى عصرنا الحاضر ، ولم نر من نوابغ الشرق وأذكيائه – على كثرة من أم الغرب منهم ودرس هناك – أحداً نظر فى الحضارة الغربية هذا النظر العميق وانتقدها هذا الانتقاد الجرىء .

إن محمد إقبال قد لاحظ جوانب الضعف الأساسية فى هذه الحضارة وتركيبها ، والفساد الذى عجنت به طينتها لاتجاهها المادى وثورة أصحابها على الديانات ، والقيم الخلقية والروحية عند نهضتها ، وعلل فساد القلب والفكر الذى اتسمت به هذه الحضارة بكون روح هذه المدنية ملوثة غير عفيفة ، وقد جردها تلوث الروح عن الضمير الطاهر ، والفكر السامى والذوق السليم [61] وتسلط عليها – رغم المدنية الباذخة ، والحكومات الواسعة ، والتجارة الرابحة – القلق

---

(٦٠) ولد محمد إقبال بن نور محمد فى « سيالكوت » مدينة فى مقاطعة بنجاب سنة ١٨٧٧ م انضم إلى كلية الحكومة فى « لاهور » حيث حضر الامتحان الأخير فى الفلسفة وأخذ درجة ماجستر (M.A.) فى الفسلفة بامتياز ، وعين أستاذاً للفلسفة والانجليزية فى نفس الكلية ، وسافر إلى لندن سنة ١٩٠٥ ، حيث التحق بجامعة كمبردج وأخذ شهادة عالية فى الفسلفة وعلم الاقتصاد ، وسافر إلى ألمانيا وأخذ من جامعة ميونيخ الدكتواره فى الفلسفة ، ثم رجع إلى لندن ، وحضر الامتحان النهائى فى الحقوق ، وانتسب إلى مدرسة علم الاقتصاد والسياسة فى لندن ، وتخصص فى المادتين ، وألقى عدة محاضرات فى مدراس، وأخرى فى جامعة كمبردج ، وقد اعتنى بهذه المحاضرات المستشرقون وعلماء الفسلفة والدين اعتناء عظيماً ، وترجم أكثر كتبه إلى الانكليزية والفرنسية والألمانية والطليانية والروسية وأنتخب رئيساً للرابطة الاسلامية ، ١٩٣٠ م وانتخب عضواً فى المجلس التشريعى فى بنجاب ، وعرض فى خطته فكرة باكستان لأول مرة ، ومثل « مؤتمر المسلمين » فى مؤتمر المائدة المستديرة سنة ١٩٣١ م – ١٩٣٢ م وأقامت له جامعة أرسطو ، وجامعة روما ، وجامعة السوربون ، وجامعة مجريط ، والمجمع الملكى فى روما حفلات تكريم ، توفى فى ٢١ أبريل سنة ١٩٣٨ م وشيعت جنازته فى حشد كبير قلما شهد مثله ، ورثاه ابنه وكبار الزعماء وقادة الفكر ، ورؤساء الحكومات ، له سبعة دواوين فى الفارسية ، وثلاثة فى (أردو) ومحاضرات فى الانجليزية .

(٦١) ضرب كليم ص ٦٩ .

الدائم ، لقد أظلم الجو فى عواصمها بدخان المصانع المتصاعد الكثيف ، ولكن بيئتها – على كثرة أنوارها – غير متهيئة لفتح جديد فى الفكر وإشراق من عالم الغيب[٦٢] إنه نوّه بأساس الحضارة اللادينية وبأنها عجنت مع الثورة على الدين ، فهى فى خصومة دائمة مع الدين والأخلاق ، وإنها عاكفة على عبادة آلهة المادة ، وتؤسس لها معبداً جديداً ، يقول فى ديوانه : « **ماذا ينبغى أن تعمل شعوب الشرق ؟** » :

« ولكن إياك والحضارة اللادينية التى هى فى صراع دائم مع أهل الحق ، إن هذه الفتانة تجلب فتناً وتعيد اللات والعزى إلى الحرم ، إن القلب يعمى بتأثير سحرها ، وإن الروح تموت عطشاً فى سرابها ، إنها تقضى على لوعة القلب بل تنزع القلب من القالب ، إنها لص قد تمرن على اللصوصية فيغير نهاراً وجهاراً ، وإنها تدع الإنسان لاروح فيه ولا قيمة له[٦٣] » .

يقول : « إن شعار هذه الحضارة الغارة على الإنسانية والفتك بأفراد النوع البشرى ، وإن شغلها الدائم التجارة ، إن العالم لا يسعد بالسلام والهدوء وبالحب البرىء النزيه والإخلاص لله إلا حين تنهار هذه الحضارة الجديدة » يقول فى الديوان الذى مر ذكره :

« إن شعار الحضارة الحديثة الفتك ببنى آدم الذى تقوم عليه تجارتها وتنفق سلعتها ، ليست هذه المصارف العظيمة إلا وليدة دهاء اليهود الأذكياء الذى انتزع نور الحق من صدور بنى آدم، إن العقل والحضارة والدين حلم من الأحلام ما لم يعد هذا النظام رأساً على عقب[٦٤] » .

إنها حضارة شابة – بحداثة سنها ، والحيوية الكامنة فيها – ولكنها محتضرة تعانى سكرات الموت ، وإن لم تمت حتف أنفها فستنتحر وتقتل نفسها بخنجرها ، ولاغرابة

---

(٦٢) ضرب كليم ص ١٤١ .
(٦٣) مثنوى پس چه بايدكرد (ماذا ينبغى الشرق أن يعمل ؟) ص ٤١
(٦٤) مثنوى پس چه بايدكرد (ماذا ينبغى الشرق أن يعمل ؟)ص ٣٧ – ٣٨ .

فى ذلك فإن كل وكر يقوم على غصن ضعيف ليس له استقرار،ولا يستغرب أن يرث تراثها الدينى ويدير كنائسها اليهود[٦٥] » . « إن أساس هذه الحضارة ضعيف منهار ، وجدرانها من زجاج لاتحتمل صدمة[٦٦] »

« إن فكر المارد الذى أزاح الستار عن قوى الطبيعة أصبح بمجموعه يهدد وكر الغربيين ومهدهم[٦٧] » « إن العصر يتمخض عن عالم جديد ، وإن العالم القديم الذى حوله الغربيون مكاناً للقمار « يقامر فيه بأمن العالم وكرامة الأمم »«يلفظ نفسه[٦٨] » « إن نور الحضارة باهر ، وشعلة حياتها ملتهبة وهاجة ، ولكن لم يكن فى ربوعها من يمثل دور موسى فيتلقى الإلهام ، ويتشرف بالكلام ، ولامن يمثل دور إبراهيم فيحطم الأصنام ، ويحول النار إلى برد وسلام[٦٩] » . « إن عقلها الجرىء يغير على ثروة الحب وينمو على حساب العاطفة ، إن عماليقها وثوارها قد طغى عليهم التقليد فلا يخرجون – حتى فى ابتكارهم وثورتهم – عن الطريق المرسوم والدائرة المحدودة »[٧٠] .

لقد تضخم العلم وتقدمت الصناعة فى أوربا ، ولكنها بحر الظلمات ليست فيه عين الحياة ، إن أبنية مصارفها تفوق أبنية الكنائس فى جمال البناء وحسن المظهر ، والنظافة. إن تجارتها قمار يربح فيه واحد ويخسر ملايين ، إن هذا العلم والحكمة والسياسة والحكومة التى تتبجح به أوروبا إلا مظاهر جوفاء ليست وراءها حقيقة ، إن قادتها يمتصون دماء الشعوب ، وهم يلقون درس المساواة الإنسانية والعدالة الاجتماعية ، إن البطالة والعرى وشرب الخمر والفقر هى فتوح المدنية الإفرنجية ، وإن الأمة التى لانصيب لها فى التوجيه السماوى والتنزيل الإلهى غاية

---

(٦٥) ضرب كليم ص ١٤١ ، يشير إلى نفوذهم الزائد وثقة أوروبا النصرانية بهم .
(٦٦) بال جبريل .
(٦٧) أيضاً ١٧٦ .
(٦٨) أيضاً ١٧٦ .
(٦٩) بيام مشرق ص ٢٤٨ ، وفيه«أوروبا لم تكن أرض النبوة والأنبياء من الزمن القديم ولم يكن فيها إشراق روحانى إنما ازدهرت فيها الماديات ..»
(٧٠) أيضاً .

نبوغها تسخير الكهرباء والبخار ، إن المدنية التي تتحكم فيها الآلات ، وتسيطر فيها الصناعة تموت فيها القلوب ويقتل فيها الحنان والوفاء ، والمعانى الإنسانية الكريمة [٧١] » .

وقد كان انتقاده واستعراضه للحضارة الغربية وأسسها ومناهج تفكيرها فى محاضراته العلمية التى ألقاها فى « **مدراس** » ونشرت بعنوان : **تجديد الفكر الدينى فى الإسلام** [٧٢] أعمق وأكثر تركيزاً بطبيعة الحال ، لأن جو البحوث الفلسفية غير جو الشعر والأدب ، فقال وهو يتحدث عن طبيعة الحضارة المادية فى الغرب والإنسان المعاصر الذى يمثلها ويتزعمها ، وعن الأمة والمشكلات التى يعانيها :

« الرجل العصرى بما له من فسلفات نقدية ، وتخصص علمى يجد نفسه فى ورطة ، فمذهبه الطبيعى قد جعل له سلطاناً على قوى الطبيعة لم يسبق إليه لكنه قد سلبه إيمانه فى مصيره هو [٧٣] » .

« الإنسان العصرى وقد أعشاه نشاطه العقلى ، كف عن توجيه روحه إلى الحياة الروحانية الكاملة ، أى إلى حياة روحية تتغلغل فى أعماق النفس ، وهو فى حلبة الفكر فى صراع صريح مع نفسه ، وهو فى مضمار الحياة الاقتصادية والسياسية فى كفاح صريح مع غيره ، وهو يجد نفسه غير قادر على كبح أثرته الجارفة وحبه للمال حباً طاغياً ، يقتل كل ما فيه من نضال سام شيئاً فشيئاً ، ولا يعود عليه منه إلا تعب الحياة ، وقد استغرق فى « الواقع » أى مصدر الحس الظاهر للعيان ، فأصبح مقطوع الصلات بأعماق وجوده تلك الأعماق التى لم يسبر غورها بعد ، وأخف الأضرار التى أعقبت فلسفته المادية ، هى ذلك الشلل الذى اعترى نشاطه ، والذى أدركه هكسلى (Huxley) وأعلن سخطه عليه [٧٤] » .

---

(٧١) بال جبريل .

(٧٢) Meconstruction of Religious thought in Islam.

(٧٣) المصدر المذكور ترجمة عباس محمود ٢١٤ .

(٧٤) Reconstruction of Religious thought in Islam ص ٢٥١ – ٢٥٦ .

« والاشتراكية الملحدة الحديثة – ولها كل ما للدين الجديد من حمية وحرارة – لها نظرة أوسع أفقاً لكنها قد استمدت أساسها الفلسفى من المتطرفين من أصحاب مذهب هيجل (Hegel) وقد أعلنت العصيان على ذات المصدر الذى كان يمكن أن يمدها بالقوة والهدف ، وهى إذن ليست بقادرة على أن تشفى علل الإنسانية[٧٥] » .

ومحمد إقبال يصف هذا المجتمع – الأوروبى – بمجتمع يحركه تنافس وحشى وهذه الحضارة بحضارة فقدت وحدتها الروحية بما انطوت عليه من صراع بين القيم الدينية والقيم السياسية[٧٦] .

وينظر محمد إقبال – ككل مطلع خبير إلى الرأسمالية والشيوعية كفرعين من دوحة المادية وأسرتين للحضارة الغربية ، إحداهما شرقية ، والأخرى غربية ، تلتقيان على النسب المادى ، والتفكير المادى ، والنظر المحدود إلى الإنسان ، ويقول بلسان جمال الدين الأفغانى – فى رحلة فكرية تخيلها واجتمع به فيها – : « إن الغربيين فقدوا القيم الروحية والحقائق الغيبية ، وذهبوا يبحثون عن الروح فى « **المعدة** » إن الروح ليست قوتها وحياتها من الجسم ، ولكن الشيوعية لا شأن لها إلا « **بالمعدة والبطن** » وديانة « **ماركس** » مؤسسة على مساواة البطون ، إن الأخوة الانسانية لاتقوم على وحدة الأجسام والبطون ، إنما تقوم على محبة القلوب ، وألفة النفوس[٧٧] ».

« إن الملوكية والشيوعية تلتقيان على الشره والنهامة ، والقلق والسآمة ، والجهل بالله والخداع للإنسانية ، والحياة عند الشيوعية « **خروج** » وعند الملوكية « **خراج** » والإنسان البائس بين هذين الحجرين قارورة زجاج ، إن الشيوعية تقضى على العلم والدين والفن ، والملوكية تنزع الروح من أجسام الأحياء وتسلب القوت من أيدى العاملين والفقراء ، لقد رأيت كلتيهما غارقتين فى المادة ، جسمهما قوى ناضر ، وقلبهما مظلم فاجر[٧٨] » .

---

(٧٥) أيضاً ص ٢١٦ – ٢١٧ .
(٧٦) أيضاً ص ٢١٧ .
(٧٧) جاويد نامة ، مأخوذ من « روائع إقبال » للمؤلف ص١١٣ – ١١٤ .
(٧٨) أيضاً .

الحضارة الغربية والأقطار الاسلامية :

ويعتقد محمد اقبال أن هذه الحضارة غير قادرة على إسعاد البلاد الإسلامية ، وإعادة الحياة إليها يقول :

« إن الحضارة التى قد أشرفت على الموت لا تستطيع أن تحيى غيرها[٧٩] » . وقد جزت من إحسان هذه البلاد الشرقية إساءة من جانبها ، وكافأت خيرها بشر ، فقد منحها الشام نبياً[٨٠] رسالته العِفة والمؤاساة والرحمة ، ومقابلة الشر بالخير ، والظلم بالعفو ، وقد منحته أوروبا – بدورها ومقابل كل ذلك – الخمر والقمار ، والفجور وهجوم المومسات[٨١] » .

نقده لدعاة التجديد فى الشرق :

إنه يسىء الظن بدعاة التجديد – وبالأصح التغريب – فى الأقطار الإسلامية ، وخشى أن تكون الدعوة إلى التجديد حيلة وستاراً لتقليد الإفرنج[٨٢] يقول : **إننى يائس من زعماء التجديد فى الشرق ، فقد حضروا فى نادى الشرق بأكواب فارغة ، وبضاعة مزجاة فى العلم والفكر** » .

« إن البحث عن « **برق جديد** » فى هذا السحاب عبث وإضاعة وقت ، فقد تجرد هذا السحاب الجهام عن البرق القديم ، فضلا عن البرق الجديد[٨٣] » .

إنه يعارض التقليد الأعمى فى أُمة من الأمم ، ولا سيما الأمة التى خلقت لقيادة الأمم وإحداث الثورة فى العالم ، ويقول :

---

(٧٩) ضرب كليم ص ٦٨ ،
(٨٠) يشير إلى سيدنا عيسى عليه السلام .
(٨١) ضرب كليم ص ١٥٠
(٨٢) أيضاً ص ١٧٠ .
(٨٣) ضرب كليم ص ٦٩ ، يشير إلى أن هؤلاء المصلحين وثقافتهم القديمة الجديدة ضعيفتان محدودتان ، ليس لهم فى إحداهما كعب عال ولا باع طويل .

« إن الذى يأتى بالجديد فى هذا العالم الذى يتجدد دائماً هو نقطة الدائرة التى يطوف حولها الزمن ، لا تعطل شخصيتك - أيها المسلم - بالتقليد الأعمى ، واحتفظ بكرامتك فإنها الجوهر الفرد ، إن التجديد (بمعنى التغريب) لايليق إلا بأمة لا تفكر إلا فى الدعة والترف ، إننى أخاف أن الدعوة إلى التجديد إنما هى حيلة وانتهاز لفرصة تقليد الغرب (٨٤) » .

إنه يعاتب الأمم الشرقية الإسلامية التى كان دورها دور التوجيه والقيادة ، وأصبحت تمثل دور التلمذة الخاشعة ، والتقليد الذليل ، يقول - وكأنه يشير إلى الشعب التركى الإسلامى ومن كان على شاكلته : -

« إن أولئك الذين يستطيعون أن يقودوا عصرهم أصبحوا بسخافتهم يقلدونه ويمشون وراءه (٨٥) » .

وفى « **جاويد نامه** » يحكى محمد إقبال انتقاد الأمير سعيد حليم باشا للثورة التى قام بها أتاتورك فى تركيا ، ويذكر سطحيتها وتفاهتها ، وأن زعيمها وقائدها محروم من كل إبداع وابتكار ومن كل أصالة فى التصميم والتخطيط وأنه ليس إلا مقلداً أعمى لأوروبا ، يقول :

« إن كمال الذى تغنى بالتجديد فى حياة تركيا ودعا إلى محو كل أثر قديم وتراث قديم ولكنه جهل أن الكعبة لاتجدد ولاتعود إلى الحياة والنشاط إذا جلبت لها من أوروبا أصنام جديدة ، إن زعيم تركيا لا يملك اليوم أغنية جديدة إنما هى كلها أغان مردّدة معادة تتغنى بها أوروبا من زمان ، إن الجديد عنده هو القديم الأوروبى الذى أكل عليه الدهر وشرب ، ليس فى صدره جديد وليس فى ضميره عالم حديث فاضطر إلى أن يتجاوب مع العالم الأوروبى المعاصر ، إنه لم يستطع أن يقاوم وهج العالم الحديث فذاب مثل الشمعة وفقد شخصيته (٨٦) » .

---

(٨٤) ضرب كليم ص ١٧٠

(٨٥) بال جبريل .

(٨٦) جاويد نامه ص ٧٢

إيمانه بفضل الحضارة الاسلاميةوحيويتها :

إنه شديد الإيمان بما تضمره الحضارة الإسلامية والشريعة الاسلامية من حيوية خالدة وقوة دافقة وإمكانيات واسعة لتكوين عالم جديد ، وتأسيس مجتمع جديد ، يقول فى خطبته التى ألقاها رئيساً لمؤتمر الأحزاب الإسلامية فى دهلى سنة ١٩٣٣ م مخاطباً المسلمين :

« إن الدين الذى تحملون رايته يقرر قيمة الفرد ، ويربيه تربية تجعله يبذل كل ما عنده فى سبيل الله وفى صالح عباده . إن مضمرات هذا الدين القيم وكوامنه لم تنته بعد ، إن فى استطاعته أن يوجد عالماً جديداً يحيا فيه الفقراءأغنياء ، لا يقوم فيه المجتمع البشرى على مساواة البطون بل يقوم على مساواة الأرواح » .

المعمل الاسلامى الجديد :

ولذلك كان يعتقد – بكل إخلاص وحماسة – أنه لا بد من وجود رقعة حرة تقوم فيها عملية الحياة الإسلامية ، بجميع نواحيها وشعبها ، وتتجلى فيها عبقرية الشريعة الإسلامية وعدل النظام الإسلامى ، وتستطيع فيها الطريقة الإسلامية فى الحياة أن تعبر عن نفسها تعبيراً عملياً وثقافياً ، ولما كانت الهند – كما قال فى خطبة رئاسته للعصبة الإسلامية سنة ١٩٣٠ م – قُطراً تسكن فيه جالية تكون أكبر مجموعة إسلامية فى بلد واحد ، كانت أحق بتقديم هذه التجربة ، وبتكوين هذا المركز الإسلامى ، وبتعبير أدق المعمل الذى يثبت فيه الإسلام صلاحيته لتكوين المجتمع الصالح ، وتنظيم الحياة الاجتماعية ، وحل المشكلات الاقتصادية ، وتوجيه المدنية توجيهاً صالحاً ، والتطبيق بين العقيدة والعمل ، والروح والمادة والفرد والجماعة ، تطبيقاً يثير العجب والاعجاب ، ويحمل قادة الأقطار الإسلامية على التقليد ، ويحمل المفكرين فى العالم على التفكير فى أسلوب جديد .

كان هذا النظر البعيد ، وهذا الطموح الذى لم يعرف نظيره فى العالم الإسلامى ، أساس مملكة باكستان ، وقد تحقق هذا الحلم البعيد فى سنة ١٩٤٧ م منهم يائساً من مستقبل الحضارة الغربية ، ثائراً عليها ، ناقدا نقدا جريئاً عميقاً متزناً ،

وقامت دولة باكتسان ، وقد اعترف الزعيم محمد على جناح بهذا الأساس الفكرى الذى قرره محمد إقبال ولغنى به ، فقال فى أول خطبة خطبها بعد قيام باكستان :

« لقد أصبحت باكتسان التى كافحنا فى سبيلها عشر سنين كوامل ، حقيقة ملموسة ، ولكن يجب أن لا ننسى أن قيام مملكتنا الحرة ليست غاية ، وإنما هى وسيلة ، إن الغاية والهدف النهائى قيام مملكة نعيش فيها أحراراً ، ونتقدم بها وفق طبيعتنا الخاصة وثقافتنا ، وتنفّذ فيها مبادىء العدالة الاجتماعية فى الإسلام بحرية [(٨٧)] » .

وقد صرح بمثل ذلك السيد لياقت على خان رئيس وزراء باكستان سابقاً فى ١٤ يناير ١٩٤٨ م فى اجتماع فى بيشاور فقال :

« إن باكستان معمل لنا ، وسنبرهن به أمام الدنيا على صلاحية المبادىء الإسلامية التى جاءت قبل ثلاثة عشر قرناً وقيمتها » .

وقد جاء فى حديث آخر له عام ١٩٥٠ م

« إننا طالبنا بباكستان ليعيش فيها المسلمون وفق تعاليم الاسلام ، وإننا أردنا معملاً نقيم فيه دولة مؤسسة على مبادىء إسلامية لم يتمخض العالم بأفضل منها [(٨٨)] »

ولكن هذه العملية – التى لا تساويها عملية فى الضخامة والدقة والخطورة وبعد النتائج – لا تقوم ولا تتحقق إلّا على أيدى القادة الذين يؤمنون بخلود الشريعة الإسلامية وفضل الحضارة الاسلامية إيماناً لا يشوبه شك ، ويخلصون له إخلاصاً لا يشوبه نفاق ، ويتجردون من ربقة الحضارة الغربية والإيمان بقيمها وأسسها ومن رقّ النفاية الأجنبية تحرراً كاملًا ، ويجمعون – على الأقل – بين الإيمان الراسخ والشجاعة الخلقية والمقدرة على استخدام الوسائل والطاقات التى أحدثتها العلوم الحديثة ، وتكييفها للمجتمع الإسلامى الحر .

---

(٨٧) Speeches Quaid,Azam Mohammad Ali Jinnah; P. 22.

(٨٨) جريدة « نوائى وقت » الباكستانية ٨ يناير سنة ١٩٥٠ م

العملية فى الامتحان :

ولكن هذه العملية – التى قفزت إلى الوجود لأسباب تاريخية وسياسية وفاجأت العالم المعاصر – لم تجد فرصة تهيئة هذا الجيل وإعداد هذه القيادة وقد عجز نظام المعارف الغربى السائد فى الأقطار الشرقية ، وعجزت الجامعات الغربية التى تلقى فيها هؤلاء السادة ثقافتهم عن أن تنتج أحسن منهم فى عامة الأحوال ، وعن أن تنتج غير هذا الطراز من التفكير ، وغير هذا الأسلوب من الحياة ، والشجرة لاتلام على ثمرتها الطبيعية ، ولايرجى تغيير هذا الوضع ، ووجود القيادة التى تحقق هذه العملية حتى يغير نظام المعارف ونظام التثقيف والتربية فى هذه البلاد ، ويمنح الإسلام والمجتمع الإسلامى حق اختيار من يتولى قيادته ويقرر مصيره مطابقاً لعقيدته وفطرته وآماله وحاجاته ، وهو حق طبيعى لكل شعب ، ولكل مجتمع ، لايجوز جحوده فى أى عصر وفى أى مكان .

ومن المؤسف أنه – فى هذه المدة غير اليسيرة – منذ أنشئت باكستان ، لم يقم زعماؤها بخطوة جريئة نحو توجيه المعارف – التى هى العمود الفقرى لتوجيه دولة أو شعب – وإنشائها إنشاء جديداً يتفق مع روح الإسلام وأهدافه وصياغة المجتمع صياغة إسلامية ووضع دستور إسلامى وسد منابع الفساد والتفسخ الخلقى والفوضى الفكرية ، ولم تكن هناك محاولة مخلصة جدية تدل على أن باكستان معمل إسلامى جديد تثبت فيه أهمية الحياة الإسلامية وصلاحية القانون الاسلامى وتفوق الحضارة لاسلامية وتقوم فيه أسوة عملية للأقطار الاسلامية الناهضة بل – بالعكس من ذلك – قد برهنت بعض التشريعات وبعض « الاصلاحات » وبعض الاتجاهات على أن واضعى الدستور فى باكستان وولاة أمرها ليسوا مأخوذين بالأفكار الغربية وقيمها فحسب ، بل يعتبرونها أساساً للتشريع وشرطاً لتقدم البلاد ، ومسايرتها للعصر الجديد .

مهما كان فإن انصراف باكستان عن أهدافها الأساسية الأولية وتقليد البلاد العلمانية (Secular) ، والعصرية (Modernict) الأخرى ستكون مأساة ضخمة فى العصر الحديث وغدراً بذمة الملايين من المسلمين الذين تحملوا فى سبيلها من المصائب

ما يشيب لهولها الولدان وقدموا لها ثمناً من الدماء والأرواح والأعراض باهظاً ثم إن هذا النكر والانحراف يخمدان العاطفة الدينية التى لم تزل تراود نفوس العاملين للإسلام ، والتى دفعت أخيراً إلى إنشاء دولة باكستان ، ويزهد أكثرهم فى إعادة هذه التجربة والمغامرة فى سبيلها ، ولا يسمح التاريخ الذى سجّل هذه التجربة المخفقة والذى لا يحابى أحداً بتكرير هذه التجربة وعقد الآمال الجسيمة بها ، وقد نبه إلى ذلك الاستاذ سمث (Wilfred Cantweu Smith) فى أسلوب جميل ، إنه يقول فى كتابه : (Islam in Modern history)

« ربما يتخيل الباكستانيون أن عملية تكوين المجتمع الاسلامى صعبة وعسيرة أكثر مما قدروها أول الأمر ، ولكننا إذا تأملنا فى هذه القضية رأينا أنه لا مفر لهم الآن ، لقد كانت وعودهم ومزاعمهم صريحة واضحة إلى حد لا يمكن التسلل منها والاغماض عنها ، سيكون تاريخهم الآن « **تاريخ الاسلام** » لقد وقعت على عواتقهم مسئولية ضخمة ، إنهم لا يستطيعون – راضين أو كارهين – أن يصرفوا النظر عن فكرة « **الحكم الإسلامى** » أو يتركوها لمدة طويلة فى المستودعات ، ذلك بأن القضاء على هذه الفكرة لا يعنى التعديل فى الأسلوب والمنهج ، بل إنه يعنى الضربة القاضية على الدين والوطن ، ويستنتج العالم منه شيئاً واحداً ، وهو أن نظرية الدولة نظرية فارغة وأن شعارها وهتافها تضليل وخداع ولاغير ، وهى لا تستطيع أن تساير مطالب الحياة المعاصرة ، ويؤمن بأن أهل باكستان أخفقوا فى تطبيقها على حياتهم القومية كأمة وشعب ، وفى هذه الحال تصبح معتقدات المسلمين موضع شك ومحل نقاش ونقد فى نظر العالم[٨٩] » .

كان من الممكن التفادى من هذا الوضع المؤلم ، وكان من الممكن أن تكتسب الفكرة الاسلامية المعركة فى باكستان، وأن يكون لها انتصار أكبر على خصومها ومعارضيها وأن تكتسب أكبر عدد من الأنصار والأصدقاء من الطبقة المثقفة والحاكمة ، وأن تقصر الفجوة – على الأقل – بين دعاة الفكرة الاسلامية وبين

---

(٨٩) Islam in modern History P. 200

أصحاب الفكرة الغربية حتى يتعاونوا على بناء المجتمع الاسلامى الجديد . ونجاح التجربة العظيمة التى قامت لأجلها باكستان ، كل ذلك كان ممكناً لو كتب النجاح والتوفيق لدعوة الفكرة الاسلامية وزعمائها وحازوا ثقة جميع الطبقات فى البلاد وتقديرها ، وملأوا الفراغ الهائل الموجود فى عقول الطبقة المثقفة ونفوسها وقلوبها ووفقوا للجمع بين الشخصية القوية الحبيبة ، والعلم الفائق والفكر النير ، والربانية الصافية المشرقة ، والعزوف عن المطامح والمناصب والانقطاع للدعوة والتوجيه وبذل النصح للجميع ، الصفات التى تكونت بها العقيدة الدينية فى الماضى فأنتجت أكبر إنتاج وغيرت مجرى التاريخ فى بعض الأحيان [٩٠] .

الجماعة الإسلامية ودورها فى نقد الفكرة الغربية :

ومع الاحتفاظ بحق الملاحظة والنقد لبعض نظريات الجماعة الإسلامية [٩١] الذى هو حق كل مؤلف وباحث ، ورغم الآختلاف فى بعض التعبيرات وفهم بعض

---

(٩٠) إقرأ على سبيل المثال المنهج الذى آثره الامام الشيخ أحمد السرهندى فى القرن الحادى عشر الهجرى لتحويل الحكم الثائر على الاسلام إلى حكومة إسلامية فى الهند (راجع رسالة المؤلف) « الدعوة الاسلامية فى الهند وتطوراتها »
هذا ما كتبناه فى أواخر عام ١٩٧٠م عند ما كان الجنرال محمد أيوب رئيس باكستان ، ثم حدثت تطورات وتغييرات كثيرة حاسمة فى هذا البلد ، واضطر الرئيس محمد أيوب للتنازل عن الحكم فى وجه مطالبة الشعب بالديمقراطية ، والدستور الجمهورى ، وتوزعت باكستان شقين ، فسميت الباكستان الشرقية ببنغلادش ، وكان رئيسها مجيب الرحمن ، ثم بدأت فى عهد ذو الفقار على بوتو سلسلة من العدوان والاجرام ، والحيف والتزوير ، فأجريت الانتخابات البرلمانية ، وارتكب فيها كل أنواع التزوير والعدوان ، ثم بدأت الجبهة الشعبية المتحدة حركة جديدة وقام الشعب بتضحيات عظيمة ، وأخيراً تولى الجنرال محمد ضياء الحق زمام البلاد ، بعد أن خلع ذو الفقار على بوتو ، ودخلت باكستان فى عهد جديد ، وطبقت بعض القوانين الاسلامية ، ونالت المحاكم حريتها التامة ، وظهرت تغيرات فى المجتمع والحكم تبشر بالخير ، ولا تزال فى طريقها إلى التقدم ، الذى يصبو إليه المسلمون ويعلقون عليه آمالاً كبيرة .

(٩١) راجع كتابنا « التفسير السياسى للإسلام طبع دار القلم بالطبعة الرابعة »

الحقائق الدينية ، وأسلوب عرضها ، الذى يتسع مجاله فى كل عصر لابد من الاعتراف بقيمة الدور الذى لعبته الجماعة الاسلامية – فى الهند وباكستان – ومؤسسها الاستاذ أبوالأعلى المودودى [٩٢] فى نقد الفكرة الغربية وتزييفها من الوجهة العلمية والدينية ، ومعارضة القيم والمفاهيم الغربية وأسس الفسلفة المادية التى قامت عليها الحضارة الغربية ، وقد آثر الاستاذ أبو الأعلى [٩٣] طريقة المهاجمة للفكرة الغربية ومواجهتها بقوة وثقة ، ونقد وتحليل ، آثرها على طريقة الدفاع عن الإسلام والتماس العذر له وتبرير موقفه بالملابسات التى اكتنفت عصره وبيئته ، الطريقة التى تبنّاها سيد أحمد خان وأصحاب مدرسته فى الهند ، والشيخ محمد عبده وتلاميذه فى العالم العربى ، وكان للطريقة الأولى أثرها الطبيعى فى عقل الجيل المثقف الجديد الذى آمن بتفوق الفكرة الغربية وقدسيتها ، وبعدها عن نقد الناقدين ، وأنها قضية مسلمة لا تقبل بحثاً ولا جدالًا . وقد كان لهذه الطريقة فضل كبير فى إضعاف سلطان الفكرة الغربية وهيمنتها على عقول الشباب ونفوسهم ، ومقاومة « **مركب النقص** » فيهم ، وكانت هذه الفائدة تتسع وتتضخم لو قدر لقائد هذه الجماعة أن ينقطع إلى هذه الناحية العلمية ويركز عليها جهوده ، ويقيض له أعوان وزملاء ، ويهبون لهذا الموضوع مواهبهم وطاقاتهم ، فإنها هى الجبهة التى تجرى عليه حرب دامية حاسمة ستقرر مصير الأقطار الإسلامية فى العصر الحاضر .

وقد أفادت البحوث التى صدرت عن قلم الأستاذ أبى الأعلى المودودى من ناحية زيادة الثقة بفضل التعاليم الإسلامية ، وجدارتها للبقاء والانتشار ، وصلوحها للسيادة والحكم . وقد كان كذلك لبحوثه العلمية الأولى التى تكلم فيه عن مستوى عالم وفى أسلوب قوى ، ولمقالاته ورسائله فى مشكلات العصر وحلولها الإسلامية دوى فى الأوساط الإسلامية التى كانت تعانى قلقاً فكرياً . وكانت فى دور انتقال . ولا تزال هذه الأوساط فى حاجه ملحة إلى زاد فكرى ومدد علمى ، لمواجهة تحديات الفكرة الغربية ، وحل المشكلات العصرية ، وتطلب من الكتاب الإسلاميين المزيد

---

(٩٢) وقد انتقل إلى رحمة الله عز وجل فى ٢٢ سبتمبر عام ١٩٧٩ م تغمده الله برحمته

(٩٣) كمعاصره الأستاذ محمد أسد النمساوى وبعض المعدودين من الكتاب الاسلاميين

الجديد من الأدب الإسلامى القوى فى أسلوبه وعرضه ، الأصيل فى تفكيره ، وبحوثاً تحليلية أكثر عمقاً وتركيزاً للقضايا الاقتصادية السياسية التى تشغل الفكر العام ، وتطلب مجامع علمية تقوم فى نواحى العالم والاسلامى وتركز جهودها على ملء هذا الفراغ وتحقيق رغبة الجيل الإسلامى المثقف الحديث فى مطالعة الكتاب الإسلامى الذى يعرض الفكرة الاسلامية فى نقاء وصفاء وقوة وإيمان ، ويخلو من كل شبح للخضوع للفكرة الغربية .

أهمية الدور الذى تمثله مصر فى العالم الاسلامى :

وكانت مصر – منذ عهد محمد على باشا وجلاء الفرنسيين – فى ١٧٩٩ م المجال الثالث الرئيسى الذى ظهر فيه صراع الشرق والغرب ، الفكرى والثقافى والحضارى والاجتماعى فى أبرز مظاهره وأقواها ، فقد بذرت الحملة الفرنسية وبقاء إدارتها وقيادتها للأمور مدة [٩٤] قصيرة بحساب الشهور ، طويلة بحساب التأثير والنفوذ – بذوراً عميقة فى التربة المصرية ، والعقلية الإسلامية العربية ، واحتك الشرق بالغرب فى أرض مصر احتكاكاً مباشراً ، ووصل بين الشرق والغرب بعثات عملية وثقافية عنى بإرسالها محمد على للاستفادة من الغرب ونظمه وعلومه ، وللتقدم بمصر فى مضمار العلم والصناعة والفنون والادارة ، حملت إلى مصر ثمرات الثقافة الغربية ، ثم أنشأت ترعة السويس – فى عهد إسماعيل – تصل بين البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط فتحدث انقلاباً فى تاريخ السياسة والتجارة العالمية ، وترفع الفجوة بين العالمين الغربى والشرقى وتسهل مهمة اللقاء والالتقاء ، وكان هدف إسماعيل الأكبر أن يجعل مصر قطعة من أوروبا .

وكانت مصر بخصائصها الكثيرة التى لا يشاركها فيها أحد جديرة بأن تكون ملتقى يتلقى فيه ما فاقت فيه أوروبا – بجهدها وكفاحها – من العلوم التطبيقية ،

---

(٩٤) وهى مدة ثلاث سنين وشهرين من ٢٤ يوليو ١٧٩٨ م – سبتمبر ١٨٠١ م .

والوسائل الحديثه ، وما خص الله به الشرق الاسلامى من علم ويقين وأسس صالحة خالدة للحياة السعيدة ، ومحركات ودوافع قوية نبيلة لا تنبثق إلّا من العقيدة القوية والقلب الفائض بالايمان والحب ، وكانت مصر من أوفر البلاد نصيباً من هذه الثروة الكريمة ، ومن أقدرها على توسيعها وتوزيعها بفضل غناها فى اللغة العربية والعلوم الدينية ، ووسائل الطبع والنشر ، ووجود الأزهر – أكبر مركز ثقافى دينى فى العالم الاسلامى – وبفضل مرونة العقل المصرى ، وقدرته القديمة على الأخذ والإعطاء والتأثر ، وكانت جديرة بأن تضرب مثلا صالحاً للعالم الاسلامى وللأقطار الشرقية للتبادل الحر الشريف المؤسس على الشعور بالكرامة والثقة بالشخصية ، والتمسك بالعقيدة فى جانب، وروح السماحة والانصاف ، وتقدير العلم والحكمة ، والترحيب بالصالح النافع فى جانب آخر ، التبادل الذى لا يخسر فيه الميزان ، ولا يطفف فيه الكيل .

الحاجة الى قناة جديدة :

لقد كان لمصر أن تنشىء قناة أفضل من قناة السويس ألف مرة ، وأعود منها على الشعوب الإنسانية بالخير والسعادة ، وأعمق منها تأثيراً فى اتجاه العالم ومصير الشعوب والأمم ، وأوسع تأثيراً فى التاريخ الإنسانى ، هى قناة التعارف الصحيح المتبادل المتوازن بين الشرق والغرب ، قناة تصل الشرق المتخلف فى العلوم الطبيعية والصناعات المفيدة بالغرب الذى قد بلغ الذروة فيها ، وتصل الغرب الحائر المتخم بقوته المادية ، والمفلس فى الروح والأخلاق ، واليائس المتشائم ، السالك فى سبيل الانتحار ، بمنابع الرضا والهدوء والأمن العاطفى ، والثقة المتبادلة والأمل القوى فى مستقبل الإنسان ، الكامنة فى رسالات الشرق الدينية والروحية التى يمثلها الإسلام فى شكلها الكامل النهائى ، وتصل وسائل الغرب الهائلة الجبارة المكدسة التى لا تعرف غاية ، بغايات الشرق النبيلة الكريمة الرحيمة التى لا تملك وسيلة ، تصل الغرب الذى يستطيع ولا يريد ، بالشرق الذى يريد ولا يستطيع ، فيفيض كل واحد منهما على الآخر أفضل ما عنده ويتعاونان – تعاون الشقيقين – فى إسعاد البشرية ، وتهذيب المدنية ، هذه القناة الثقافية العقلية التى تعتبر – لو تحققت وظهرت إلى الوجود – فتحاً جديداً فى العالم ، ومأثرة تاريخية تشغل أعظم مكان مشرف فى

التاريخ الحديث ، وتكسب لمصر الزعامة الخالدة ، وأشرف مركز تطمح إليه القلوب والأبصار .

لقد كانت مصر جديرة باحتلال هذا المركز الخطير ، وتمثيل هذا الدور العظيم ، لو تهيألها – فى أول عهدها بالحضارة الغربية والثقافة الأجنبية – إيمان قوى بخلود الرسالة الدينية التى أكرمها الله بها بالإسلام ، وشدة حاجة الإنسانية إليها ، والعزم الصحيح على الإخلاص لها ، والاتصاف بصفاتها ، والتفانى فى سبيلها ، والهضم الصحيح القوى للعلوم العصرية ، وتقوية نفسها بها وإخضاعها للدور الذى يجب أن تمثله فى العالم المعاصر ، وتهيأت لها شخصيات موجهّة قوية .

موقف مصر التقليدى الضعيف :

ولكن الظروف والأوضاع السياسية والتعليمية قد صرفت مصر – زعمية العالم العربى الإسلامى – عن تمثيل هذا الدور العظيم ، دور القيادة والتوجيه ، ودور التأثير فى العالم الغربى ، وجعلتها تقف من العالم الغربى موقف التلميذ ، وموقف المقلد المقتبس ، وجعلت مهمة هذه القناة الثقافية الفكرية مقصورة على الاستيراد فقط ، استيراداً لا تتجلى فيه شخصية مصر الإسلامية العربية والعقلية الناضجة الناقدة .

من أهم هذه الأوضاع التى اتجهت بها مصر هذا الاتجاه الضعيف الذى أساءت به مصر إلى نفسها ، وإلى العالم العربى الذى تولت زعامته وقيادته ، الوضع السياسى القاتم الذى كانت تعيش فيه مصر فى القرن التاسع عشر ، ويشاركها فيه العالم الإسلامى بصفة عامة ، عصر النفوذ الأجنبى والاحتلال البريطانى ، الاحتلال المباشر أو غير المباشر ،فقد شغل هذا الوضع – غير الطبيعى – تفكير قادة الفكر فى العالم الإسلامى ، واستنفد جهودهم ومواهبهم ، ولم يدع لهم مجالا فى التفكير ولا سعة فى الوقت ، ولا فضلا فى الذكاء .

السيد جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده

كان السيد جمال الدين الأفغانى عقلية نابغة وشخصية قوية عرفت الغرب

دراسة وسياحة وثقافة وسياسة ولكن يكتنفها شيء كثير من الغموض ، ولا يدل ما سجل من حديثه ومحاضراته وكتاباته وما يرويه تلاميذه والمعجبون به من سيره وأخلاقه وعلمه دلالة واضحة على مكنونات نفسه الكبيرة وحياته الشخصية ونظراته فى الحضارة الغربية وقيمها ومبادئها ، وقد كان من الرجال المعدودين الذين يؤمّل فيهم أن يقوموا فى ذلك العصر لمواجهة حضارة الغرب وفلسفاته المادية ونقدها ، وصيانة الشرق من سيطرتها وسلطانها الفكرى ، ومنعه من الانجراف الذى يُفقده شخصيته ورسالته ، ولكن كتابه الصغير الذى وضعه فى الرد على الدهريين وإعداد مجلة « **العروة الوثقى** » التى كان الموجه لها والمشرف عليها لا تدل على مقدرته على تحقيق هذا الغرض وأداء هذه الرسالة ، ولكن الدكتور محمد إقبال كان شديد الإعجاب بشخصيته ، كبير الثقة بمقدرته فى ملء الفراغ الذى وقع بين نظام العقيدة والفكرة والخلق القديم وبين نظام العصر الجديد ، وإعادة الثقة إلى الجيل الإسلامى الجديد بخلود الإسلام وجدارته للبقاء والكفاح ، يقول فى إحدى محاضراته التى ألقاها فى (**مدراس**) :

« اننا نحن المسلمين نواجه عملا ضخماً ، وإن واجبنا أن ننظر فى الاسلام من جديد بصفته نظاماً فكرياً ، من غير أن نقطع صلتنا عن الماضى ، إن الرجل الذى قدر أهمية هذا الواجب واتساع نطاقه تقديراً صحيحاً هو السيد جمال الدين الأفغانى الذى جمع إلى بصيرته النافذة فى حياة الاسلام الملية وحياته الفكرية تجربة واسعة بأنواع كثيرة من البشر وعاداتهم وأخلاقهم وكانت مقاصده ومراميه بعيدة المدى سامقة الذرى ، لذلك لم يكن من الصعب أن تصبح شخصيته الكريمة حلقة اتصال بين الماضى والمستقبل ، وإن جهوده المتواصلة ، لو تركزت على تفسير وضع العقيدة والعمل الذى دعا إليه الاسلام النوع الانسانى لكان لنا نحن المسلمين ، أن نعتمد على أنفسنا ونثق بشخصيتنا أكثر مما نحن فيه الآن »[٩٥] .

ولكن وضع العالم الاسلامى بصفة عامة ووضع مصر – التى قضى فيها جمال الدين أفضل أيام حياته ، وأكثرها إنتاجاً ، واتخذها مركز نشاطه

---

(٩٥) محاضرات مدراس ، المحاضرة الرابعة ص ١٤٥ –١٤٦ (مترجمة عن الأردية)

العقلى – والطبيعة التى خلقه الله عليها من الذهن الوقّاد والذكاء الحاد ، والحمية الاسلامية الثائرة ، والأنفة الأفغانية المتهيجة كل ذلك منع جمال الدين عن التفكير فى غير إنهاض البلاد الاسلامية سياسة وتنظيماً ، وإعادة الكرامة والقوة إليها ، والربط بين أجزائها ، وإقصاء النفوذ الأجنبى عامة والنفوذ البريطانى – الذى اكتوى بناره فى بلاده وفى الهند وإيران وفى مصر – خاصة،وطبع نشاطه وكفاحه بطابع السياسة،ولقد أصاب الدكتور محمد البهى ، إذ قال :

« (كان جمال الدين) ينتزع الأمثلة من تاريخ الشعوب ، ومن تاريخ الأمة الاسلامية نفسها ، كما ينتزع الشواهد المحسوسة التى تفزع المسلمين من السياسة الاستعمارية فى البلادالاسلامية – فى الهند ومصر على الخصوص – هذه الامثلة التى كان ينتزعها من شواهد الحياة الاسلامية ، ومظاهرها فى وقته مع بيان مدى ألاعيب السلطات الأجنبية ودسائسها ، وهدفها الذى نهايته بسط النفوذ الأجنبى لصالح الجماعة الأوروبية وحدها على رقعة العالم الاسلامى .

هذا الاحتكاك المباشر نفسه هو الذى أظهر حركة جمال الدين الأفغانى فى صورة حركة سياسية ، وهو نفسه السبب فى أن يلقى بمركز الثقل فى نشاطه على « **الحرية السياسية** » فى الشرق الاسلامى للمواطنين جميعاً مسلمين ومسيحيين [٩٦]» .

وخير من يحق له التعبير عن نفسية السيد جمال الدين ، وتلخيص دعوته ، هو تلميذه الشيخ محمد عبده ، وهو يقول :

« أما مقصده السياسى الذى قد وجه إليه كل أفكاره ، وأخذ على نفسه السعى إليه مدة حياته – وكل ما أصابه من البلاء أصابه فى سبيله – فهو إنهاض دولة إسلامية من ضعفها وتنبيهها للقيام على شئونها حتى تلحق الأمة بالأمم العزيزة والدولة بالدول القوية ، فيعود للإسلام شأنه ، وللدين الحنيفى مجده ، ويدخل فى هذا تقليص ظل بريطانيا فى الأقطار الشرقية [٩٧] » .

---

(٩٦) الفكر الاسلامى الحديث ص ٥٠

(٩٧) زعماء الاصلاح فى العصر الحديث للدكتور أحمد أمين ص ١٦

وكان الشيخ محمد عبده على ما له من حسنات فى الدفاع عن الإسلام وإصلاح مناهج التعليم وتقريب الدين إلى الجيل الجديد ، كان من رواد الدعوة للتجدد ، والدعوة إلى الملاءمة بين الإسلام وبين الحياة فى القرن العشرين ، والتقدير الزائد للقيم الغربية ومحاولة التطبيق بينها وبين الاسلام والحرص على تفسير الفقه الاسلامى وأحكام الشريعة تفسيراً يتناسب مع مطالب المدنية الجديدة ، والجيل الجديد ، يقرب فى ذلك كثيراً إلى السيد أحمد خان فى الهند ، وتتجلى هذه النزعة فى تفسيره وفى فتاواه وفى كتاباته ، وكل من جاء بعده من دعاة التجدد اقتبس من علمه واغترف من بحره ، وقد شهد بذلك اللورد كرومر فى كتابه : « **مصر الحديثة** » يقول :

« إن محمد عبده كان مؤسساً لمدرسة فكرية حديثة فى مصر ، قريبة الشبه من تلك التى أسسها السيد أحمد خان فى الهند (مؤسس جامعة عليكره) ، ثم يقول : إن أهميته السياسية ترجع إلى أنه يقوم بتقريب الهوة التى تفصل بين الغرب وبين المسلمين ، وأنه هو وتلاميذ مدرسته خليقون بأن يقدم لهم كل ما يمكن من العون والتشجيع ، فهم الحلفاء الطبيعيون للمصلح الأوروبى [٩٨] » .

ويتكلم نيومان فى كتابه : (Great Britain) عن تلاميذ محمد عبده وأتباعه فيقول :

« وكان برنامجهم فوق ذلك يشجع التعاون مع الأجانب لادخال الحضارة الغربية إلى مصر ، وهذا هو ما جعل كرومر يحصر فيهم أمله الوحيد فى قيام الوطنية المصرية ، وهذا أيضاً هو السبب فى تعيينه سعد زغلول باشا وزيراً للمعارف [٩٩] »

فضل حركة السيد جمال الدين ومدرسته :

لم تكن هذه الغاية الجسيمة والأوضاع السياسية الجاثمة على الشرق لتدع لمثل السيد

---

(٩٨) Modern Egypt, 179 - 180

(٩٩) P. 165

جمال الدين الأفغاني – في قوة عاطفته وحساسيته – حقلا آخر للنشاط والإنتاج ، وتدعه يعمل عملا إيجابياً بناء في المجتمع الاسلامي ويقوم بدراسة عميقة تحليلية للحضارة الغربية ، وما يحسن اقتباسه منها وما لا يحسن ، وبناء فكر أسلامي جديد يساير الزمان ، ويتغلب على نزعة تقليد الغرب .

ولكن دوره لا يستهان بقيمته في رفع قيمة الدين ، والاعتماد على القرآن في عيون النشء الجديد ، وفي إعادة الثقة بصلاحية الإسلام لكل زمان ومكان ، إلى نفوس الشباب المثقف ، وحال – إلى حد – بين الطبقة المثقفة الذكية في مصر وغيرها ، وبين الالحاد والثورة على الدين ، وكان له فضل في بقاء نفوذ الإسلام الفكري والعلمي في أوساط الطبقة المثقفة في العالم الإسلامي ، وإلى ذلك أشار المستشرق الألماني الكبير كارل بروكلمان إذ قال :

« لقد كانت للاسلام سيطرة على حياة مصر الروحية ولاتزال كذلك والفضل في ذلك يرجع إلى فارس اسمه جمال الدين ، الذي آثر لأسباب سياسية أن ينسب نفسه إلى أفغانستان ، البلاد التي قضى فيها شبابه [١٠٠] » .

المتخرجون في أوروبا طلائع الفكر الغربي في العالم العربي :

بدأ صفوة الأذكياء وخيرة الشباب يدرسون العلوم العصرية في مصر ، ثم يؤمون عواصم الغرب ومراكزالثقافة العصرية الكبرى في أوروبا للتوسع في الدراسات والتعمق فيها ، ويخوضون هناك في لجة الحضارة الغربية وفي الأوساط العلمية التي اعتادت البحث العميق الدقيق ، واعتادت الحرية الفكرية والشجاعة الأدبية وعافت التقليد والأخذ بشئ على عواهنه ، فكان من المتوقع ومن المعقول جداً أن يوجد في هؤلاء الشباب الشرقيين الذين نشأوا في مصر البلد الإسلامي وقرأوا القرآن – معجزة كل عصر – رجال يروعهم ضعف أساس الحضارة الغربية والفكرة الغربية وإسرافها في

---

(١٠٠) Carl Brocklemam : Geschichteder Islamischen Voelker Und Staaten München Berlin 1939.

المادية ، وتطرفها فى القومية والنظر المادى القاصر المحدود إلى الإنسان ، وكل ما أنتجه وقام به من مظاهر العقل والروح والبطولة ، ويثير ذلك فيهم النخوة الإسلامية والمعانى الإنسانية الكريمة العميقة ، ويثير فيهم روح الاستنكار والتمرد على مثل الحضارة الزائفة ، ويكون فيهم مفكر حر مثل محمد إقبال ، وثائر وداعية مثل محمد على[١٠١] .

وكانوا أولى بذلك من هذين ، فقد نشأ الاثنان فى بيئة بعيدة عن مهد الإسلام ومركز

---

(١٠١) هو الزعيم الهندى المشهور محمد على بن عبد العلي ، ولد فى إمارة – رام بور – (فى المقاطعة الشمالية الغربية سنة ١٨٧٨ م ، ونشأ يتيماً فى حضانة أمه القوية النفس والهمة ، والتحق بمدرسه بريلى الثانوية ، ثم انتقل إلى كلية عليكرة الاسلامية ، وتخرج فيها فى سنة ١٨٩٦ م وسافر إلى انجلترا وانتسب إلى جامعة أوكسفورد حيث نال شهادة فى الليسانس(B.A.) بامتيار ، وفاق فى الأدب الانجليزى ، واحتوى على ثروته الأدبية وأساليب اللغة الانجليزية المتنوعة كأبناء البلاد وأصحاب اللغة ، ورجع إلى الهند وشغل وظيفة كبيرة فى إمارة « بروده »ومكث فيها سبعة أعوام ، ثم استقال وأصدر منها من كالكتا سنة ١٩١١ م صحيفة Comrade الاسبوعية الانجليزية ، التى نالت إعجاب الانجليز وأدبائهم وحكامهم بأسلوبها الادبى الرصين والفكاهة الحلوة ، وانتقل بعد ذلك إلى دهلى ، وأصدر منها صحيفة يومية أردية سماها « همدرد » ونالت المكانة الرفيعة والقبول العام لصدق لهجتها ، وكتب مقالة مستفيضة فى « كومريد » طويلة بعنوان (Choice of the Turks) « اختيار الاتراك » انتقد فيها سياسية الحلفاء والانجليز بصفة خاصة تعتبر من أقوى المقالات التى كتبت فى الهند ، أثارت غضب الحكومة الانجليزية فاعتقلته ١٩١٤ م وبقى مدة الحرب العالمية ١٩١٤ – ١٩١٨ م حفظ فيها القرآن ودرس الاسلام دراسة عميقة ، وأطلق فى آخر سنة ١٩١٩ م وأسس الجامعة الملية الاسلامية فى سنة ١٩٢٠ م ، واعتقل مرة ثانية بتهمة اثارة الجيش ضد الحكومة وحكم عليه فى كراتشى بسجن عامين وأطلق فى آخر ١٩٢٢ م ورأس حفلة المؤتمر الوطنى العام Indian National Congress فى كوكنادا فى جنوب الهند سنة ١٩٢٣ ، واعتزل المؤتمر سنة ١٩٢٩ م وحضر مؤتمر المائدة المستديرة سنة ١٩٣٠ م وخطب فيه خطبة عظيمة ، ومات فى يوم ٤ من يناير سنة ١٩٣١ م ونقل جثمانه إلى القدس حيث دفن فى المسجد الاقصى فى احتفال عظيم وجنازة مشيعة تشييعا عظيماً ، ورثاه كبار السياسيين فى الاقطار الاسلامية والهند واعترفوا بعصاميته وعبقريته الادبية ، وشجاعته السياسية وحميته الاسلامية . ومن الأقوال المأثورة للمؤرخ الانجليزى الشهير (H,G,Wells) « إن محمد على جمع بين قلب نابليون ، وقلم ميكالى ، ولسان برك » .

الثقافة الإسلامية ، وجرى فى عروقها دم غير عربى ، وغير إسلامى[(١٠٢)]، ولكن هذا الأمل لم يتحقق إلا فى نادر الأحوال ، ورجع أكثر هؤلاء الشباب المسلمين طليعة الفكر الغربى ، ودعاة متحمسين إلى تقليد الحضارة الغربية وقيمها ومفاهيمها وتصوراتها .

إن اللورد كرومر الذى كان أكبر رائد إلى تغريب مصر ، والعالم العربى بالتتبع ، قد صور بنفسه الجيل المصرى الجديد الذى نشأ فى أحضان التعليم الجديد ، وآمن بسيادة الغرب وفضل حضارته ومبادئه تصويراً صادقاً دقيقاً ، قد ينسب إلى المبالغة والقسوة والتشاؤم ، إذا صدر عن قلم مفكر إسلامى ، أو عالم مسلم متحفظ ، ولكن صدوره عن قلم رجل كان من أكبر دعاة التغريب فى الشرق ، ويجرده من كل مبالغة وتهويل ، ويضفى عليه قيمة علمية كبيرة ، ويجعله وثيقة تاريخية تستحق كل اعتبار وكل اهتمام :

« إن المجتمع المصرى فى مرحلة الانتقال والتطور السريع ، وكانت نتيجته الطبيعية أن وجدت جماعة من أفرادهم « **مسلمون** » ولكنهم متجردون عن العقيدة الإسلامية والخصائص الإسلامية ، وإن كانوا « **غربيين** » فإنهم لا يحملون القوة المعنوية ، والثقة بأنفسهم ، وإن المصرى الذى خضع للتأثير الغربى ، فإنه وإن كان يحمل الاسم الاسلامى لكنه فى الحقيقة ملحد وارتيابى،والفجوة بينه وبين عالم أزهرى لاتقل عن الفجوة بين عالم أزهرى وبين أوروبى[(١٠٣)] .

إن الحقيقة أن الشاب المصرى الذى قد دخل فى طاحون التعليم الغربى

---

(١٠٢) كان محمد على من سلالة هندية فى شمال الهند الغربى ، ومحمد إقبال أشار إلى أصله الهندى البرهمى كثيراً فيقول فى بيت يعاتب فيه شابا ينتمى إلى أهل البيت قد تأثر بالفسلفة تأثراً عميقاً ومال إلى الالحاد ، « أنت تنتمى إلى سيد بنى هاشم فى نسلك – أما أنا المؤمن بالاسلام وبمحمد ﷺ إيماناً لايعترية شك – فإن طينتى هندية وأنا أنتمى فى نسبى إلى سومنات – معبد الوثنيين القديم – وكان آبائى من عباد « اللات ومناة » (ضرب كليم) .

(١٠٣) The Earl of Cromer : Modern Egypt (1908), Vol. 11 pp. 228.9

ومر بعملية الطحن يفقد إسلاميته ، وعلى الأقل أقوى عناصرها ، وأفضل أجزائها ، إنه يتجرد عن عقيدة دينه الأساسية ، إنه لا يعود يؤمن بأنه لا يزال أمام ربه ، وأنه تراقبه عين لاتخفى عليها خافية ، وأنه سيحاسب أمامه يوماً من الأيام ، ولكنه لايزال – رغم ذلك كله – يستفيد من مظاهر الحياة الإسلامية التى تتسامح مع مواضع ضعفه الخلقى ، ولا تتصادم معها ، والتى تتفق مع مصلحته فى مجالات الحياة ، ولكن المصرى المثقف رغماً عن ابتعاده عن الاسلامية لا يميل إلى المسيحية إلا نادراً » .

ويتقدم اللورد كرومر فيقول :

« إن المصرى المتحرر يسبق الأوروبى المتحرر فى التنور ، وحرية الفكر والحيرة ، إنه يجد نفسه فى بحر هائج لا يجد فيه سكاناً ولا رباناً لسفينته ، فلا ماضيه يضبطه ، ولا حاضره يفرض عليه الحواجز الخلقية ، إنه يشاهد أن الجمهور من مواطنيه يعتقدون أن الدين يعارض « **الإصلاحات** » التى يراها جديرة كل الجدارة بالنفاذ ، إن ذلك يثير فيه السخط ، والكراهية الشديدة للدين الذى يؤدى إلى مثل هذه النتيجة ، فيدوسه بقدمه ، وينبذه بالعراء ، إنه إذا قطع الصلة عن دينه وتعاليمه فلا يحجزه عن التورط فى المزالق الخلقية إلا مصلحته الشخصيه السافرة ، مع أن الأوروبى الذى يحرص على تقليده ، لايزال متقيداً بشرائع أمته الخلقية ، إن المجتمع الذى يتكون من مثل هؤلاء الأفراد المتحررين فى مصر ، لا ينكر على الكذب والخديعه إنكاراً شديداً ، ولا يمنعه من ارتكاب الرذائل خوف سوء الأحدوثة فى المجتمع ، إنه اذا رفض دين آبائه ، فإنه لايلقى عليه نظرة عابرة ، انه لا يرفضة فحسب ، بل يرفضه ويركله برجله إنه يترامى فى أحضان الحضارة الغربية متعامياً عن كل حقيقة ، ويغيب عنه أن الجانب الزاهر البراق للحضارة الغربية ليس إلا الجانب الخارجى من جوانب هذه الحضاره ، إن الحقيقة أن القوة الخلقية التى تنبع من التعاليم المسيحية هى التى تضبط سفينة الحضارة الغربية وتمنعها من الاضطراب الزائد فى البحر الهائج ، ولما كانت هذه القوة قوة باطنية ، فإنها تتوارى فى غالب الأحيان عن أنظار المتشبهين الزائفين بأبنائها الحقيقيين ، إنه يحلف ويقول : إنه نبذ التعصب الدينى ، وأنه يحتقر تعاليم آبائه ، أنه يقول لزميله الأوروبى : إننا أصبحنا نملك الخط الحديدى ، وقد أسسنا فى بلادنا مدارس عصرية ، وأنشأنا الجرائد والمحاكم ، ومظاهر

الحياة الحديثة ، والمدنية العصرية التى تتكون منها حضارتكم ، فكيف نعتبر متخلفين عنكم وأحط شأناً منكم ، إنه يجهل أنه لا يستطيع أن يجارى زميله الغربى ويكون نداً له ، فإن المسيحى المتحضر وإن لم يكن راسخاً فى دينه ، ولكنه إلى حد كبير نتاج المسيحية فإن لم تكن المسيحية التى مضى عليها ألف وتسع مائة سنة ، رصيده وسنده ، لم يكن قط حيث هو الآن :[١٠٤]

الدعوة الى تحرير المرأة واثرها :

ومن أوضح الأمثلة لذلك كتابان لقاسم أمين ، أحدهما « **تحريرالمرأة** » والثانى « **المرأة الجديدة** »[١٠٥] .

أما الكتاب الأول فقد ذهب فيه المؤلف إلى أن الدعوة إلى السفور ليس فيها خروج عن الدين ، وذكر :« أن الشريعة الإسلامية إنما هى كليات وحدود عامة ، ولو كانت تعرضت إلى تقرير جزئيات الأحكام لما حق لها أن تكون شرعاً عاماً ، يمكن أن يجد فى كل زمان وكل أمة ما يوافق مصالحها .. أما الأحكام المبنية على ما يجرى من العادات والمعاملات فهى قابلة للتغيير على حسب الأحوال والأزمان ، وكل ما تطلبه الشريعة فيها هى أن لا يخل هذه التغيير بأصل من أصولها العامة[١٠٦] » .

وقد تناول فى كتابه أربع مسائل ، وهى : الحجاب واشتغال المرأة بالشؤون العامة . وتعدد الزوجات ، والطلاق وذهب فى كل مسألة من هذه المسائل إلى ما يطبق مذهب الغربيين ، زاعما أن ذلك هو مذهب الإسلام .

ويتجلى أثر الثقافة الغربية والخضوع للحضارة الغربية وقيمها أوضح فى الكتاب الثانى « **المرأة الجديدة** » فالتزم فيه المؤلف مناهج البحث الأوروبية الحديثة التى

---

(١٠٤) ibid P. 232

(١٠٥) صدر الكتاب الأول سنة ١٨٩٩ والثانى سنة ١٩٠٠ م

(١٠٦) تحرير المرأة ص ١٦٩ .

ترفض كل المسلمات والعقائد السابقة سواء منها ما جاء من طريق الدين ، وما جاء من غير طريقه ، ولا تقبل إلا ما يقوم عليه دليل من التجربة أو الواقع على حسب ما يفعله باحثو الاجتماع الأوربيون ، وهو ما يسمونه : (الأسلوب العلمى) [١٠٧] .

ودعا قاسم أمين فى آخر هذا الكتاب دعوة صريحة إلى الأخذ بأساليب الحضارة الغربية فيقول بعد أن ذكر إعجاب المسلمين والمصريين الشديد بالماضى :

« هذا هو الداء الذى يلزم أن نبادر إلى علاجه وليس له دواء إلا أننا نربى أولادنا على أن يتعرفوا شؤون المدنية الغربية ويقفوا على أصولها وفروعها ، وآثارها ، إذا أتى ذلك الحين – ونرجو أن لا يكون بعيداً – انجلت الحقيقة أمام أعيننا ساطعة سطوع الشمس ، وعرفنا قيمة التمدن الغربى ، وتيقنا أنه من المستحيل أن يتم إصلاح مافى أحوالنا ، إذا لم يكن مؤسساً على العلوم العصرية الحديثة ، وإن أحوال الانسان مهما اختلفت ، وسواء كانت مادية أو أدبية خاضعة لسلطة العلم ، لهذا نرى أن الأمم المتمدنة على اختلافها فى الجنس واللغة والوطن والدين متشابهة تشابها عظيماً فى شكل حكومتها وإدارتها ومحاكمها ونظام عائلتها ، وطرق تربيتها ولغاتها وكتابتها ومبانيها ، وطرقها ، بل فى كثير من العادات البسيطة كالملبس والتحية والأكل ، هذا هو الذى جعلنا (نضرب الامثال بالاوروبيين) ونشيد بتقليدهم وحملنا على أن نستلفت الأنظار إلى المرأة الأوروبية [١٠٨] .

وقد تتبع صدور هذين الكتابين ، وما قام به الدعاة إلى تحرير المرأة من النشاط والانتاج والكفاح ، حركة حثيثة . ومن الحرية فى النساء ، والسفور والاختلاط والرحلات إلى أوروبا وأمريكا للدراسات ، يقول الدكتور محمد محمد حسين :

« .. وجزع المحافظون لما صحب هذه الحركة من ميل إلى التبرج ، ومن نزوع إلى التحرر والانطلاق ، وانكروا ما رأوا من تغير حال المرأة ومن جرأتها على

---

(١٠٧) الاتجاهات الوطنية للدكتور محمد محمد حسين الجزء الأول ص ٢٨٢ .

(١٠٨) المرأة الجديدة ص ١٨٥ – ١٨٦ .

التقاليد وتمردها على سلطة الآب والزوج ، وراحوا يتابعون فى ذهول تطور الزى ، وتقلص الثوب فوق جسدها فى سرعة تجاوزت كل ما يتخيلون من حدود[١٠٩] » .

ويقول متحدثاً عن بعض السيدات المتحمسات فى هذه الدعوة وتقدمهن فى هذا المضمار :

« ..وتزعمت هذه الحركة النسوية هدى شعراوى ، حرم على باشا شعراوى تجرأت هذه المتزعمة على ما لم تتجرأ عليه امرأة مسلمة من قبل ، فسافرت إلى باريس وإلى أمريكا لدراسة شئون المرأة وأخذت تلقى بالتصريحات والأحاديث لمندوبى الصحف[١١٠] » .

صدى أفكار المستشرقين فى مصر :

ورجع كثير من الجامعيين متشبعين بروح الغرب يتنفسون برئة الغرب ، ويفكرون بعقله ، ويرددون – فى بلدهم – صدى أساتذتهم المستشرقين ، وينشرون أفكارهم ونظرياتهم فى إيمان عميق ، وحماسة زائدة فلا يقرأ إنسان لعالم مستشرق فى الغرب بحثاً ولا يعرف له نظرية إلّا ويجد أديباً أو مؤلفاً فى مصر يتبنى هذه النظرية بكل إخلاص ، ويشرحها ويدعو إليها فى كل لباقة وبلاغة ، مثل : بشرية القرآن ، وفصل الدين عن السياسة ، وأن الإسلام دين لا دولة[١١١] والدعوة إلى العلمانية ،

---

(١٠٩) الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر ، للدكتور محمد محمد حسين – جـ ٢ ص ٢٣٥ .

(١١٠) الاتجاهات الوطنية فى الادب المعاصر ، للدكتور محمد محمد حسين ج ٢ – ص ٢٣٥.

(١١١) وقد صدر فى هذا الموضوع كتاب لعالم دينى من علماء الأزهر والقاضى الشرعى ، شغل الناس وأحدث ضجة فى الأوساط الدينية والعلمية ، وهو كتاب « **الاسلام وأصول الحكم** » للشيخ على عبد الرازق ، وهو يدل دلالة واضحة جداً على مدى تغلغل فكرة المستشرقين فى عقول الطبقة المثقفة ، حتى تبناها عالم دينى ودعا إليها بحماس وإخلاص ، وهو يدور حول إثبات أن الخلافة نظام تعارف عليه المسلمون وليس فى أصول الشريعة ما يلزم به ، ويخرج منه بنتيجة إنكار أن تكون الخلافة أو القضاء أو وظائف الحكم ومراكز الدولة جميعاً من الدين فى شئ ، وإنما « **خطط** » دنيوية صرفة لا شأن للدين بها.

والشك فى مصادر العربية الأولى ، والشك فى قيمة الحديث العلمية ، وإنكار مكانته وحجيته ومكانة السنة فى الإسلام والدعوة إلى تحرير المرأة ومساواتها بالرجل وإلى السفور وكون الفقه الإسلامى مقتبساً من القانون الرومانى ، ومتأثراً به فى روحه وسبكه ، والدعوة إلى إحياء الحضارات السابقة على الإسلام ، وتمجيد العصر الفرعونى ، والتغنى بحضارته وأدبه وأمجاده ، والدعوة إلى العامية والتأليف فيها ، واقتباس الحروف اللاتينية والتقنين المدنى العربى على أساس القانون المدنى الغربى ، والدعوة إلى القومية العربية والاشتراكية المادية – والشيوعية الماركسية أحياناً – فى العصر الأخير ، ترى ظلال الفكر الغربى ، بل التعبير الغربى وارفة ممدودة على العقول العربية والأقلام العربية ، مسيطرة عليها كسيطرة الأشجار الكبيرة على الحشائش الصغيرة ، منعكسة فيها انعكاس الشمس فى المرآة الوضيئة ، وقد شهد بتغلغل الأفكار الغربية فى المجتمعات والدول الإسلامية عالم مستشرق عرف الشرق الإسلامى ، وعرف تياراته الفكرية معرفة دقيقة ، يقول :« هـ ،أ ،ر ،جب » فى كتابه « **إلى أين يتجه الإسلام ؟** » .

« وإذا أردنا أن نعرف المقياس الصحيح للنفوذ الغربى ، ولمدى تغلغل الثقافة الغربية فى الإسلام ، كان علينا أن ننظر إلى ما وراء المظاهر السطحية ... علينا أن نبحث عن الآراء الجديدة والحركات المستحدثة التى ابتكرت بدافع من التأثر بالأساليب الغربية ، بعد أن تهضم وتصبح جزءاً من كيان الدولة الاسلامية ، فتتخذ شكلا يلائم ظروفها[١١٢] » .

اتجاه حركه التأليف والترجمه الى الأداب والاجتماع

وكان هؤلاء الأدباء والكتّاب قد أسدوا معروفاً كبيراً ، وأحسنوا إلى مجتمعهم وبلادهم ولغتهم لو نقلوا الكتب من اللغات الغربية المؤلفة فى أغراض العلوم التجريبية

---

(١١٢) الترجمة مأخوذة من كتاب « الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر » Wither Islam ? P. 328.329

المادية بكل فروعها الكيميائية والطبيعية والميكانيكية النظرية والتطبيقية ، التى لاتزال المكتبة العربية فقيرة فيها ، كما فعل الأدباء فى اليابان ، فحولوها إلى بلاد صناعية تضارع أعظم الدول والأقطار الأوروبية فى العلوم الطبيعية والصناعية وكما فعلت دار الترجمة فى حيدر آباد ولكن انصرفت عنايتهم وهوايتهم إلى ترجمة كتب الآداب وعلم الاجتماع والفسلفة والتاريخ ، والروايات والقصص ، وترجمة كتب كثير من دعاة الالحاد والثورة والاضطراب الفكرى فى المجتمع الغربى ، التى ساعدت فى إنشاء التبلبل الفكرى والاضطراب الاجتماعى ، وضعف شخصية الفكر العربى والأدب العربى ، وأحدثت اصطراع الأفكار والمثل ومناهج الفكر .

وقد وجد لهذا الاتجاه الأدبى كتّاب وأدباء فى مصر لهم قيمتهم الأدبية وإنتاج أدبى كبير ولكن لم يظهر فى مصر ولا فى الشرق العربى نوابغ وعبقريون فى العلوم العملية ، وفى مجالات الطبيعة والكيمياء وعلم الآلات والعلوم الرياضية ، ويعترف العالم الغربى بتفوقهم فى هذه العلوم ، وبقيمة بحوثهم وإنتاجهم العلمى ، وينالون إعجاب الأوساط العلمية الكبيرة وتقديرها .

وقد أشار إلى موضع الضعف فى إنتاج الأقطار الواقعة فى الشرق الأوسط الأستاذ برنارد لويس (Bernard Lewis) أستاذ جامعة لندن فى مقال له يقول :

« إن العمل المبتكر الأصيل فى مجال العلوم التطبيقية لم يتقدم فى الشرق الأوسط مثل ما تقدم فى اليابان والصين والهند ، إن الجيل الجديد فى الشرق الأوسط لا يزال يستخدم وسائل الغرب التى تدخل من دور إلى دور جديد فى فترة قصيرة من الزمن ، لذلك يلاحظ بون شاسع بين الشرق الأوسط وبين الدول الأوروبية المتقدمة الراقية فى العلوم الطبيعية والكفاية الصناعية وفى نتيجة ذلك فى القوة الحربية بون أوسع مما كان قبل قرن أو نصف قرن حين بدأت عملية التغريب فى الشرق الأوسط[١١٣] » .

---

(١١٣) مقالة Bernard Lewis بعنوان : « The Middle East Versus the West » فى مجلة « Encounter, Oct. 1963 » .

صورة من الحياة الغربية :

ووجد فى مصر كتَّاب وأدباء دعوا دعوة سافرة إلى تقليد الحضارة الغربية ، واتخاذها مثلا أعلى فى الحضارة والاجتماع ، وكانت مصر – ببقائها تحت الاحتلال الغربى مدة طويلة ، وبحكم قربها من أوروبا وبفقد الدعوات الدينية التجديدية المؤسسة على النقد العلمي – تزداد انطباعا بالحضارة الغربية فى كل يوم ، وتتجه إلى الغرب اتجاهاً مستمراً ، حتى كادت تصبح فى الطبقة المثقفة والأرستقراطية صورة من الحياة الغربية واستطاع الدكتور طه حسين فى سنة ١٩٢٨ م أن يصور بلده تصويراً غريباً ويقول فى كتابه المشهور : « مستقبل الثقافة فى مصر » :

« حياتنا المادية أوروبية خالصة فى الطبقات الراقية وهى فى الطبقات الأخرى تختلف قرباً وبعداً من الحياة الأوروبية باختلاف قدرة الأفراد والجماعات وحظوتهم من الثروة وسعة ذات اليد ، ومعنى هذا أن المثل الأعلى للمصرى فى حياته المادية إنما هو المثل الأعلى للأوروبى فى حياته المادية [١١٤] » .

« .. وحياتنا المعنوية على اختلاف مظاهرها وألوانها أوربية خالصة نظام الحكم عندنا أوروبى خالص ، نقلناه عن الأوروبيين نقلا فى غير تحرج ولا تردد ، وإذا عبنا أنفسنا بشيء من هذه الناحية ، فإنما نعيبها بالإبطاء فى نقل ما عند الأوربيين من نظم الحكم وأشكال الحياة السياسية [١١٥] » .

« والتعليم عندنا على أي نحو قد أقمنا صروحه ، ووضعنا مناهجه وبرامجه منذ القرن الماضى ؟ .على النحو الأوروبى الخالص ، ما فى ذلك شك ولانزاع نحن نكوّن أبناءنا فى مدارسنا الأولية والثانوية والعالية تكويناً أوروبياً لا تشوبه شائبة [١١٦] » .

---

(١١٤) مستقبل الثقافة فى مصر ص ٣١ .

(١١٥) ص ٣٢ .

(١١٦) ص ٣٦ .

ويستخلص من هذا كله النتيجه الآتية :

« كل هذا يدل على أننا فى هذا العصر الحديث نريد أن نتصل بأوروبا اتصالا يزداد قوة من يوم إلى يوم ، حتى نصبح جزءاً منها لفظاً ومعنى وحقيقة وشكلًا [١١٧] » .

دعوة طه حسين مصر الى اعتبار نفسها جزءا من الغرب :

لقد كان من المتوقع ، ومن المعقول جداً أن مثل الدكتور طه حسين صاحب الشخصية القوية فى الأدب والعلم ، الذى حفظ القرآن فى الصغر ، ودرسه فى الكبر ، وتعلم فى الأزهر ونظر فى العلوم والآداب نظرة حرة واسعة ورأى شقاء أوروبا بحضارتها المادية وفسلفتها الإلحادية ، وحكوماتها القومية ، وتذمر مفكريها والعلماء الأحرار فيها ، ودرس تاريخ العرب والسيرة المحمدية دراسة تذوق وإتقان ، ولقد كان من المتوقع والمعقول جداً ، أن يدعو مصر إلى الاستقلال الفكرى والحضارى ، وتربية شخصيتها الإسلامية العربية ، والنهوض برسالتها العظيمة التى تستطيع أن تحدث انقلاباً فى الأوضاع العالمية ، وتمنح مصر مركز الزعامة والقيادة والتوجيه حتى ولو كانت مصر جزءاً من العالم الغربى وقطعة من أوروبا ، فالرسالات السماوية الإنسانية أسمى وأوسع وأبقى من الحضارات وهى غنية عن الحدود الجغرافية والأدوار التاريخية ، وإذا فعل ذلك ، وقام بهذه الدعوة كان رائد النهضة الفكرية الحقيقية والثورة المصرية المباركة ، واتفق ذلك مع مواهبه العظيمة كل الاتفاق .

ولكن كان من نتائج تغلغل الثقافة الغربية فى الطبقة المثقفة فى العالم الإسلامى وسيطرتها على التفكير والمشاعر ، وضعف المجتمع الاسلامى الذى نشأ وعاش فيه طه حسين ، أنه قام يدعو مصر إلى اعتبار نفسها جزءاً من الغرب ، ويجند كل ذكائه وإنشائه ودراسته التاريخية لإثبات أن العقلية المصرية عقلية أوروربية ، أو قريبة قرباً

---

(١١٧) أيضاً ص ٣٤ .

شديداً من الاوروبية ، ولها اتصال وثيق بالعقلية اليونانية ، وبعيدة كل البعد عن العقلية الشرقية ، وهى منذ قديم الزمان ، وهى منذ العهد الفرعونى لم تتأثر بالطارىء عليها فى أى عصر ، فلم تتغير بالفرس ، ولا بالرومان ، ولا بالعرب والاسلام ، « إن العقل المصرى منذ عصوره الأولى عقل إن تأثر بشىء فإنما يتأثر بالبحر الابيض المتوسط وأن تبادل المنافع على اختلافها فإنما يتبادلها مع شعوب البحر الأبيض المتوسط [١١٨] » .

ويقول :

« إن من السخف الذى ليس بعده سخف اعتبار مصر جزءاً من الشرق واعتبار العقلية المصرية عقلية شرقية كعقلية الهند والصين [١١٩]

وعلى هذا الإساس يدعو الدكتور طه حسين المصريين إلى اختيار الحضارة الغربية حضارة لهم ، ومشاركة الغربيين – أعضاء الأسرة العقلية الواحدة – فى جميع مناهجهم ومقاييسهم وأذواقهم وأحكامهم ، فيقول :

« ..أن نسير سيرة الأوروبيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أنداداً ، ولنكون لهم شركاء فى الحضارة ، خيرها وشرها ، حلوها ومرها ، وما يحب منها وما يكره ، وما يحمد منها وما يعاب [١٢٠] » .

« وأن نشعر الأوربى بأننا نرى الأشياء كما يراها ، ونقوّم الأشياء كما يقومها ، ونحكم على الأشياء كما يحكم عليها [١٢١] » .

مستوى فكرى نازل :

إن هذا المستوى الفكرى ، مستوى التقليد والتطبيق والتشبه والانسجام بالغرب ، وإن

---

(١١٨) مستقبل الثقافة فى مصر ص ٣٢ .
(١١٩) أيضاً ص ٤١ .
(١٢٠) أيضاً ص ٤١ .
(١٢١) أيضاً ص ٤٤ .

قياس التبعات والواجبات والرسالات بمقياس الجغرافية والتاريخ وطبائع الأمم ، وعقليتها فى ضوء التاريخ القديم ، مستوى كنا نتوقع عن عالم مصرى وأديب مفكر مثل الدكتور طه حسين أن يترفع عليه ، وقد ترفع على ذلك بعض القادة الشرقيين فى أقطار غير إسلامية ، فصاروا يلهجون بالجماعة الإنسانية والنظرة الآفاقية والمثل الخلقية والروحية التى هى فوق الحدود والثغور وفوق المناطق الحضارية والثقافية فى العالم القديم أو الجديد ، ويكفرون بالروابط التى توزع الأسرة الإنسانية الموحدة بين الأوطان والأجناس والمناطق الحضارية وبين العالم الغربى والعالم الشرقى ، وكان المسلم العربى أحق بهذه الفكرة الواسعة ، وأحق بأن يتزعم هذه الدعوة ويقودها ، فإنه نشأ فى ظل « **شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية** »

حركة « الإخوان المسلمون » وتأثيرها :

إن مواجهة حضارة الغرب وجهاً لوجه ، ونقدها النقد الجرئ الأصيل ، والظهور أمام الغرب فى مظهر الداعى المهاجم كان يتطلب دراسة أعمق ، وجهوداً أكثر ترابطاً وأكثر تركيزاً ، ومعرفة أدق بطبيعة الحضارة الغربية وتركيبها ، وحماسة أشد فى الدعوة إلى الإسلام ونظمه ومناهجه، ويتطلب موقفاً غير موقف الزعيم السياسى الذى وقفه جمال الدين ، وموقف المحامى المدافع عن الشريعة الإسلامية الذى وقفه الشيخ محمد عبده .

وقد كان فى حركة « **الإخوان المسلمين** » كبرى حركات الشرق الأوسط الدينية والسياسية أمل كبير فى تجديد القوة الإسلامية ، لو قدر لها أن تسير سيرها الطبيعى وتؤثر تأثيرها المطلوب ، والتف حولها الباحثون النوابغ والمفكرون الإسلاميون ورجال الاختصاص الفنى ، والدراسات الواسعة العميقة التى قد بدت طلائعها [١٢٢] ، وتملأ الفراغ الفكرى فى الشرق، وتنجح فى تأسيس المجتمع الإسلامى

---

(١٢٢) فى كتاب مثل الاستاذ الشهيد عبد القادر عودة والمرحوم الدكتور مصطفى السباعى ، وسيد قطب ومحمد قطب ومحمد الغزالى والدكتور سعيد رمضان والاستاذ محمد المبارك والشيخ يوسف القرضاوى وأضرابهم .

القوى المستقل فى شخصيته وفى تفكيره وفى وطنه ، ولكن محاربة القوات المتجهة إلى « **العلمانية** » والاشتراكية لها قد حرمت العالم العربى – والعالم الإسلامى بدوره – ثمرات هذه الحركة الواسعة القوية التى كانت أقوى انتفاضة دينية وثورة إسلامية فى العصر الحاضر ، وكان ذلك رزءاً وخسارة للعالم الإسلامى لا تعوض [(١٢٣)] .

هل كانت حركة الإخوان تملك قدرة على تحقيق هذا الهدف الكبير،أو إلى أى مدى حققت – بقدر وسعها – هذه المطالب والغايات ؟ إنه شىء التبس على كثير من الناس ، ويجدر فى هذه المناسبة أن نقدم بعض ما جاء فى كتاب مفكر غربى لا يمثل « **الإخوان المسلمون** » ولا يعطف على قضاياهم وذلك بحذف واختصار ، يقول الأستاذ سمث W.G.Smith فى كتابه Islam in Modern History يشير إلى بعض النواحى المهمة لهذه الحركة :

« إنه لا يصح أبداً أن نعتبر « **الإخوان المسلمون** » رجعيين على الاطلاق فإن هذه الحركة قد قامت بمحاولة تستحق التقدير والإعجاب لإنشاء مجتمع عصرى على أسس العدالة الاجتماعية وحب الإنسانية الذى هو صفوة القيم والتقاليد القديمة ...

إنها تريد العودة إلى أسس للمجتمع تقوم على قيم خلقية ثابتة مجمع عليها ، وتفكير متزن ، عادل ...

إنها تستطيع أن تحول الإسلام من تحمس عاطفى لأتباعه ومحبيه والمتعبدين

---

(١٢٣) عاد « الإخوان المسلمون » فى مصر أخيراً ، إلى نشاط محدود ، وليس من السهل التكهن باستمراره ، واحتلالهم للمركز الذى كانوا يشغلونه ، قبل محنة الدعوة وقادتها ، وقد بدأت صحيفة « الدعوة » تصدر من القاهرة بعد احتجابها عقوداً من السنين ، وحظيت بعدد من القراء ، لا تحظى به صحيفة لم يصدر منها إلا الاعداد الاولى ، وذلك يدل دلالة واضحة على مكانة دعوة الإخوان فى نفوس الشعب المصرى المسلم ، وعلى أن الفراغ لم يملأ طول هذه المدة حتى عاد الإخوان ولسان حالهم « الدعوة » على المسرح الاسلامى القيادى ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

له الذين تخلوا من كل شعور ومن كل نشاط ، أو من حقل قديم لهواة التقاليد المحترفين الذين تشبثوا بالماضى فى تفكيرهم وعملهم ، إلى قوة ناهضة صاعدة تستطيع أن تشق طريقها وسط القضايا العصرية ومشكلاتها ...

إن فى دعوة الإخوان حلا عملياً سريعاً لأكثر مشكلات المجتمع ، وإذا لم تقم هناك طائفة أخرى لمعالجة هذه المشكلات بتحمس أكثر ورغبة أكبر ، نستطيع أن نؤكد بأن حركة الإخوان سوف تعيش وتستمر رغم سوط الإرهاب والاستبداد ، إن الإخوان هى الحركة الوحيدة فى هذا الزمان (**عدا الشيوعيين**) التى قدمت أمام الناس فكرة تجاوزت تقديساً باللسان وتشديقاً بالكلام إلى كسب التأييد والولاء بنطاق أوسع (١٢٤) » .

ثورة ٢٣ يولية فى مصر :

لم تزل الثقافة الأجنبية – فى داخل البلاد وخارجها – ولم تزل الدعوة إلى « **التغريب** » والفلسفات الغربية المادية التى ترد إلى البلاد من الخارج ، ويتطوع لنشرها وشرحها كبار الأدباء والكتاب فى البلد ، تعمل عملها الطبيعى فى أذهان الناس وتلتهمها الطبقة الجامعية المثقفة والشباب الناشىء والضباط فى الجيش ، وكل ذكى ثائر على الأوضاع الفاسدة السائدة التى لاتطاق ، وتظهر فى هذه الأغراض كتب ومؤلفات يقرؤها الشبان عند المراهقة الفكرية فيسيغونها وتصبح جزءاً من فكرتهم وعقيدتهم ومطامحهم فى الحياة ، وينظرون إلى هذه الفلسفات كالطريق الوحيد للنهضة بالبلاد ومجاراة الدول والأقطار الحرة الراقية ، وتعجز المعارف ووسائل التربية والتوجيه والأدب المقبول عن أن تخلق فى هؤلاء تفكيراً أسمى وطموحاً أبعد من هذه الخطط التقليدية المرسومة المرددة فى كل بلد ، والتى سبق إليها كمال أتاتورك ، وتحققت له الزعامة فى حركة التغريب ، وتطوير البلاد والمجتمع والعقلية من الأساس الإسلامى الإيمانى إلى الأساس الغربى المادى ، فيحاولون تقليدها وتطبيقها فى بلادهم

---

(١٢٤) Islam in Modern History. P. 161-162

باختلاف نوع القومية [١٢٥] ، وبزيادة الاشتراكية التى لم تبلغ فى عصر كمال أتاتورك ، هذا الطور الواضح المتميز القوى . ولم تكسب هذه السيطرة ، وهذا السحر على العقول والأفكار ، ولم يبق لهذه الطبقة إلا أن تتولى القيادة وتجد فرصة لتطبيق مخططها الفكرى .

جاءت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ م ونجحت بطبيعة الحال ، ورحب بها كل ساخط على الأوضاع الفاسدة وكل محب للبلاد وللنهضة والقوة والاستقلال ، وعقد بها الناس – على اختلاف طبقاتهم ووجهات نظرهم – آمالا كثيرة مختلفة ، وكان فى إمكانها واستطاعتها أن تعيد إلى مصر مكان الصدارة فى العالم العربى الزعيم للإسلام ، ومكان التوجيه والثقة والاحترام فى العالم الإسلامى ، وأن تشق طريقها إلى الأمام ، وأن تنهج نهجاً فى الحياة يوافق طبيعة الشعب المصرى المسلم القوى فى إيمانه وفى عاطفته الدينية ، وطبيعة العالم العربى الذى أبى الله أن ينهض ويتحد ويسود إلا بهذا الدين الذى اختاره لزعامته وقيادته ، ويوافق طبيعة العالم الإسلامى الذى لا ينشط ولا يتحمس ولا يرتبط إلا بدعوة دينية ، ويوافق طبيعة العصر الذى ضاق بالقوميات وتخطى – فى سيره الحثيث – العصبيات التى تقوم على أساس العنصرية أو اللون أو الوطن وصار ينظر إلى هذه الروابط والجامعات كدعوات رجعية جاهلية تمزق الأسرة الإنسانية والوحدة البشرية ، وينتظر من شعب عربى قيادة أوسع نظراً وأكثر « **تقدمية** » من القوميات وكل ينتظر من قيادة هذه الثورة الموفقة عقلية أوسع ، وصدراً أرحب ، وذكاء أكثر عمقاً ، وتخطيطاً أكثر أصالة ومطابقة للواقع .

محاولة تطوير المجتمع المصرى والعربى كلياً :

ولكن تحقق سريعاً أن هذه الثورة فكرة مستقلة وفلسفة قائمة بذاتها ، وخطة كاملة مصممة تصميماً دقيقاً لتطوير المجتمع المصرى و – بواسطته وعن طريقه – المجتمع العربى تطويراً قومياً مادياً اشتراكياً ، حتى يصبح مجتمعاً جديداً ،

---

(١٢٥) القومية العربية بدل القومية التركية .

يستخلص لنفسه علاقات اجتماعية جديدة تقوم عليها قيم أخلاقية جديدة وتعبر عنها ثقافة وطنية جديدة[١٢٦] ، وينظر إلى الحرية ، والاشتراكية ، والوحدة ، كأساس الحياة وأهداف النضال[١٢٧] ويبحث عن جذور النضال المصرى « فى التاريخ الفرعونى صانع الحضارة المصرية والإنسانية الأولى[١٢٨] » ويحدد نضاله للأمة العربية التى تقوم على وحدة اللغة التى تصنع وحدة الفكر والعقل ، ووحدة التاريخ التى تصنع وحدة الضمير والوجدان ، ووحدة الأمل التى تصنع وحدة المستبقل والمصير[١٢٩] ، أما الدين الإسلامى – الذى هو دين العرب – إلا من شذ منهم – فينظر إليه كأى دين من الأديان الكثيرة التى تدين بها أمة أو بلاد ، ويضعها جميعاً فى صعيد واحد ، ومستوى واحد ، ويسمح لها بالبقاء ويعترف بها – جميعاً –بالشرف والتأثير « **إن حرية العقيدة الدينية يجب أن تكون لها قداستها فى حياتنا الجديدة الحرة ، إن القيم الروحية الخالدة النابعة من الأديان قادرة على هداية الانسان وعلى إضاءة حياته بنور الايمان ، وعلى منحه طاقات لاحدود لها من أجل الخير والحق والمحبة**[١٣٠] » ويتكلم عن هذه الأديان كأى اشتراكى مادى لا ينظر إلا إلى قيمة الاديان المادية والثورية ودورها فى التاريخ الإنسانى ، وكأنه لا يؤمن بالآخرة والحقائق الغيبية ، وإلى قيمة العقيدة الدينية والثواب الأخروى « **إن رسالات السماء كلها فى جوهرها كانت ثورات إنسانية ، استهدفت شرف الانسان وسعادته ، وإن واجب المفكرين الدينيين الأكبر هو الاحتفاظ للدين بجوهر رسالته**[١٣١] » وينظر إلى المجتمع وأعضائه وحقوقهم نظرة

---

(١٢٦) نفس التعبير الذى جاء فى النص الرسمى للميثاق الوطنى الذى قدمه الرئيس جمال عبد الناصر فى المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية فى يوم ٣١ مايو ١٩٦٢ م انظر الباب الأول ، نظرة عامة .

(١٢٧) أيضا .

(١٢٨) الميثاق القومى ، الباب الثالث .

(١٢٩) أيضا الباب التاسع .

(١٣٠) الميثاق القومى ، الباب السابع .

(١٣١) أيضا ، الباب السابع .

لا تتقيد بالتشريعات الاسلامية والحدود التى بينها الله تعالى للانسان ، وإنما تقوم على أسس المجتمع الغربى والتفكير العصرى ، فالمرأة فى نظره « تتساوى بالرجل ، ولابد أن تسقط بقايا الأغلال التى تعوق حركتها الحرة التى تستطيع أن تشارك بعمق وإيجابية فى صنع الحياة[١٣٢] » .

وبصرف النظر عن هذه التفاصيل والشواهد ، فإنه مما لا شك فيه أن الفكرة التى تسيطر على هذا الميثاق وواضعه ، والتى دفعت إلى سبكه فى هذا القالب هى الفكرة المادية ، وللإنسان أن يسحب من نص الميثاق كلمة العرب ، ومصر التى تتردد كثيراً ، وما يدل على البيئة التى صدر فيها هذا الميثاق ، وينسبه إلى أى جمهورية علمانية اشتراكية فى الشرق ، وكلها تعترف بحرية العقيدة الدينية وقداستها ، وبتأثير القيم الروحية الخالدة النابعة من الأديان فى تاريخ الإنسان والمدنية .

وقد اتخذ قادة الثورة خطوات حاسمة إيجابية لتطوير المجتمع المصرى وتطوير العقلية المصرية – كمرحلة إلى تطوير العقلية العربية – فشجعوا على الإشادة بالقومية العربية كديانة وعقيدة ، وجعلوا الأدباء والكتَّاب يتغنون بها كالهدف الأسمى ، ويتغنون بأمجاد العهد الفرعونى ، والدعوة إلى إحيائها ، والفرعونية كقومية وحضارة وتراث ، وهتف الهاتفون : « **نحن أبناء العرب والفراعنة** » ولم تعد كلمة « **فرعون** » تثير فى النفوس الكراهية والاحتقار ، ومعانى اللعنة والعار ، التى ألحقها به القرآن ، وآمن بها المؤمنون فى كل مكان وزمان ، وأصبح العرب والعروبة تشارك الله فى العزة والكرامة فيقول القائلون : « **العزة لله وللعرب** » ويرحبون بكل من يغلو فى ذلك ويبالغ ، ولو وصل إلى درجة الكفر وخرج من الإسلام ويشجعون على ذلك بالجوائز والصلات وأنواع التحبيذ وأساليب التحسين ، وأرخوا العنان للكتَّاب والصحفيين يسترسلون فى ذلك ما شاؤوا ، وسمحوا للصحف أن تستهزىء بالدين وشعائره ومقدساته ، وتنتهك الحرمات ، وتنشر فى المجتمع الخلاعة والاستهتار والميوعة ، ولم يزدها التأميم إلا خبالا وإسرافاً فى نشر الصور العارية الخليعة والروايات الماجنة والقصص الغرامية ، وأخبار الحوادث المثيرة للغريزة الجنسية والإجرام ، حتى يتطور المجتمع وتتطور العقلية ، وتأخذ لونها المادى ، وطابعها الاشتراكى .

---

(١٣٢) أيضا الباب السابع .

واتخذوا لتطوير المجتمع خطوات إيجابية أخرى ، من تطوير الأزهر ، وإلغاء المحاكم الشرعية ، والقضاء الشرعى ، والوقف الشرعى ، ومن التعليم المختلط ، والعناية الزائدة بالبرامج الثقافية ، والرقص والغناء .

تأثير الثورة المصرية وقيادتها فى العالم العربى :

وأصبح الشباب العرب ، وكل ذى طموح ممن تمنى مجد العرب ، وتمنى لهم كياناً ودولة قوية موحدة تقوم فى الشرق الأوسط يتخذ دعاة القومية العربية مُثلا أعلى ، ويدين بحبهم ويعتبر هذه الحركة انتفاضة الروح العربية ، تعيد إلى العرب كرامتهم ومجدهم الغابر وسيادتهم المسلوبة .

ولا غرابه فى ذلك . ولا ما يستحق اللوم والعذل ، فالإنسان مفطور على حب المجد والغلبة والقوة ، وللشباب العرب كل حق فى أن ينشدوا المجد ، ويريدوا القوة ، ويعضوا على الوحدة بالنواجذ ، ولكن مع الأسف الشديد — قد اقترنت بهذا الاتجاه والتفكير فى العهد الأخير معان وحوادث وتصرفات ، وتوجيهات تضعف قيمة الإسلام وتقطع رابطة هؤلاء العرب وقادتهم عن إخوانهم فى العالم الإسلامى ، وتنشىء فيهم المبالغة فى تقديس القومية العربية ، والتعصب لها ، والإيمان بها كفكرة كاملة وديانة لها مفهومها العقائدى ، وقد بدأ الإلحاد ينتشر بسرعة غريبة فى الشباب المثقف فى العواصم العربية ، وتبدر من المتحمسين منهم كلمات يخاف منها على صاحبها الكفر والمروق من الدين ، وأصبحوا لا ينظرون إلى الرسول الأعظم ﷺ كمنقذ العرب ، ومصدر الحياة الجديدة والكرامة والشرف والخلود لهذا الشعب العظيم ، ويرجعون إلى الماضى السحيق ويحيون أمجاده وحضارته ، ويغضبون للجاهلية إذا ذُمَّت وتأخذهم حمية الجاهلية .

طليعة ردة فكرية :

إنه نذير شر خطير ، وطليعة ردة فكرية وثقافية ودينية لا يتداركها ولا يجبر كسرها أعظم مجد ، وأقوى دولة ، وأكبر نهضة ، وأهول قوة ، وإنها خسارة ليست

فوقها خسارة ، إنها طريق إلى الخزى والعار ، والتشتت والفرقة والهزيمة والإخفاق بعد الإخفاق والخيبة إثر الخيبة فى الدنيا ، ولعذاب الآخرة أخزى لو كانوا يعلمون ، ويصدق عليهم قوله تعالى ﴿ **قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا * الذين ضلّ سعيهم فى الحياة الدنيا ، وهم يحسبُون أنهم يحسنون صنعاً * أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه ، فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً** * [١٣٣] .

حركة « التشكيك » الشامل والبلبلة الفكرية وأثرها فى الحياة :

لقد قام كتّاب مصر وأدباؤها منذ زمن بعيد [١٣٤] – ومن بينهم عدد من الكتّاب الذين تربوا فى المدارس المسيحية – بحركة تشكيك شامل للعقائد الدينية ، والمقررات التاريخية ، والشخصيات الإسلامية ، والقيم الخلقية ،والأسس الاجتماعية ، والآداب العامة عن طريق بحوثهم وكتاباتهم ، تتنوع فيها الأساليب وتختلف فى ذلك الدوافع والأغراض والعوامل والمؤثرات ، فقد يكون سائقهم أحياناً التطرف وتقليد المتطرفين فى الغرب ، وقد يكون دافعهم حبّ الشهرة وتصفيق بعض الطبقات المثقفة والشباب الجامعى ، وقد يكون رائدهم نفاق سلعتهم ورواج بضاعتهم فى السوق ، والربح المادى ، وقد يكون الحافز لهم التسرع فى نشر ما يسنح لهم من آراء ، وما يجول فى صدورهم من خواطر ، أما الكتّاب المسيحيون فلا يخلو أكثرهم عن بُعد النظر ودقّة القصد ، وإثاره الشبهات ، وإضعاف تأثير الإسلام فى الشعب العربى المسلم ، وساعد على ذلك حركة النشر السريعة القوية فى مصر ، ووجود عدد كبير من دور النشر والطباعة « **العملاقة** » التى يملك أكثرها المسيحيون والمارونيون بصفة خاصة ، ونهامة قراء العالم العربى لمطالعة كل ما يصدر عن مصر من غث وسمين .

وهكذا تدفق سيل جارف من المؤلفات والمطبوعات من مصر ، أكثرها فى أسلوب عصرى جذاب ، وفى ثوب قشيب من الطباعة والإخراج ، وخضع له النشء

---

(١٣٣) الكهف ١٠٢ – ١٠٥ .

(١٣٤) منذ عهد رفاعة بك الطهطاوى ، وقاسم أمين ، وأحمد لطفى السيد ، إلى عهد طه حسين ، ومحمد حسين هيكل إلى آخرين .

الجديد وهام به ، وردّد صداه ، وهكذا انتشرت فى مصر – وعن طريقها فى كثير من الأقطار العربية – بلبلة فكرية هائلة ، واضطربت الأسس التى يقوم عليها المجتمع المؤمن الواعى القوى ، المعتزّ بعقيدته وشخصيته وتاريخه– ويستمدّ منها قوة المقاومة والثبات فى المعركة ، والصبر على المكاره ، والغيرة على الدين والعرض ، والكرامة والشرف ، وساد الشك والاضطراب ، والجبن والوهن [١٣٥] وحب الدعة والإخلاد إلى الراحة ، وضعفت الأمة العربية بفعل هذا « **التشكيك** » الشامل وبتأثير هذا الأدب الرخيص ، الذى يعتمد على إثارة الغريزة ، وتسلية النفس – فى القوة المعنوية التى تلجأ إليها الشعوب والأمم فى المعارك الحاسمة ، وفى الساعات الدقيقة العصيبة ، ولا شك أن التشكيك والبلبلة الفكرية كانا من أعظم أسباب انهيار كثير من المجتمعات القديمة ، واندثار المدنيات الزاهرة ، وقد كان هذا الوضع الشاذ الذى ابتلى به العالم العربى ، ولعبت فيه الصحافة العربية ، وحركة النشر والتأليف والترجمة ، والتمثيل والرواية والتلفزيون والإذاعة دوراً فعالا ، من أعظم أسباب الكارثة الأخيرة التى حدثت فى ٥ حزيران ١٩٦٧ م ، وما أعقبه من أيام ، والأوضاع الشاذة التى لا تزال تسود على العالم العربى .

وبالعكس من ذلك أوجدت حركة « **الإخوان المسلمون** » موجة اعتقاد راسخ ، وثقة بهذا الدين وصلاحيته ومستقبله ، واستقامة خلقية ، وإيثاراً للجدّ والعزيمة ، بعثت فى أصحابها روح الاستماتة فى سبيل المبدأ والعقيدة ، والاستهانة بالحياة فى سبيل الشرف والكرامة ، وروح البطولة والمغامرة ، وتجلّت فى حرب فسلطين عام ١٩٤٨ م ، فلما حرم العالم العربى قيادة هذه الحركة ونفوذها – مهما كانت أسبابه – وأن تلعب دورها فى حرب ١٩٦٧ م ، ولم تخلفها جماعة أو قيادة تنادى باسم الإسلام ، وتعتمد على روح الإيمان ، والبطولة الإسلامية ، وعجزت القومية العربية ، والاشتراكية العلمية ، أو الشيوعية الماركسية ، أن تملأ هذا الفراغ ، وتثير الحماس الدينى فى نفوس الشعوب العربية المسلمة ، وأن تمنح العالم العربى المفكك الوحدة والانسجام وروح المغامرة والاقتحام ، وقعت النكبة العظيمة ، التى

---

(١٣٥) فسر فى حديث صحيح مشهور بحب الدنيا وكراهية الموت (رواه أبو داوود) .

انتكس لها رأس كل عربى ومسلم فى الشرق والغرب ، والتصق بالعرب كلهم العار الذى لا يغسله إلّا انتصار أعظم من هذا الاندحار ، وكرّة تتغلّب على هذه الفرة وتُنسيها .

صفقة خاسرة :

كان لمصر – التى قادت العالم العربى فى مجال الفكر والأدب وفى مجال الدين أيضاً إلى حد كبير – مبرر فى أن تسوق هذه البلاد – إلى علمانية كاملة ، وقومية متطرفة ، واشتراكية مكشوفة عارية ، إذا تحقق لها أو تحقق لزعيمها جمال عبد الناصر فى عبارة أصح مثل ذلك النجاح والانتصار الذى تحقق لكمال أتاتورك فى إنقاذ كرامة تركيا فى أشد الساعات العصيبة ، والمواقف الحرجة الدقيقة ، فقد نعتبر ذلك ثمنا دفعته القيادة المصرية فى هذه الآونة لتضحيات أبنائها وخيرة شبابها ، فقد تجردت مصر من نخبة ممتازة وشباب أكفاء أذكياء (**كان باستطاعتهم أن يلعبوا دورا هاماً فى المجالات العلمية والدينية والسياسية**) وهبطت إلى مستوى أخفض بكثير من ذلك المستوى الذى عرفت به وامتازت فيه ، مستوى الأخوية الدينية ، والعاطفة الاسلامية ، بل تخلت عنه بتاتا ، إنها مرت بعقبات كئودة فى المجال الاقتصادى ، وحرمت حرية الفكر والصحافة التى كانت تنعم بها فى زمن مضى ، وضعفت روابطها بالبلاد الاسلامية ، وبجاراتها العربية وساءت سمعتها الدينية فى العالم الإسلامى ، وسمعتها القيادية فى العالم العربى .

إن هذه القيادة قامت بدعاية كبيرة عقب الانتصار فى السويس (١٩٥٦ م)وأوهمت العالم بطلاقة وذلاقة لا يضارعها فيها بلد شرقى ، أن مصر هى الكفيلة وحدها بانقاذ العالم العربى كله ، وإنها تستطيع أن تصارع وتقارع الدول الغربية فضلا عن دولة إسرائيل الصغيرة الحقيرة ، حتى أنها أغلقت مضائق تيران وخليج العقبة ، وأصبحت بفضل هذه الدعايات والتصرفات محط أنظار العالم لحين من الوقت ، ولكن دهش العالم لما سمع أن القوات الإسرائيلية هجمت على الجمهورية العربية المتحدة ، وأن قوات الجمهورية العربية المتحدة بدأت تتقهقر ، وقضى على القوة الجوية المصرية فى ساعات معدودات ، وقبلت الجمهورية العربية المتحدة التى

كانت تقود هذه المعركة وقف إطلاق النار بلا قيد ولا شرط فى ظرف أربعة أيام أو خمسة ، هكذا لم تحتل إسرائيل شرم الشيخ وغزة وحدها بل إنها احتلت جزيرة سيناء ، وضفة السويس الشرقية كلها ، وأصبحت مواقع مصر تحت رحمة المدافع الإسرائيلية ،وهنالك شعر المنصفون والواقعيون بأن مصر ما كسبت شيئا من إهمالها لقوة الإيمان وحمية الاسلام ، التى كانت أكبر منبع ومصدر للقوة الحقيقية ، ووجد الناس أن القومية العربية والاشتراكية لم تكونا إلا قربة منفوخة مسّتها إبرة ، فأفرغت كل ما فى جوفها من الهواء ، وعلمت الدنيا كلها أنها كانت مسرحية قامت بها القيادة المصرية اعتمادا على طاقة أجنبية (روسيا السوفيتية) واعتمادا على أوضاع السياسة العالمية ، فخانتاها وما أغنت هذه الحيلة عنها شيئاً .

وكانت نتيجة ذلك أن العالم العربى كله أصيب بيأس مرير وشعور بالمهانة ، وأصيب المسلمون كلهم بعد ضياع القدس بقلق روحى ونفسى ، وأصيبت جارات مصر التى كانت بجوارها فى المعركة بعجز وانكسار ، لانجد لهما مثيلا إلا فى حادث التتار وسقوط بغداد ، وقد تحقق من ذلك وتبين كالشمس فى رابعة النهار أن مصير العرب مرتبط بالإسلام، وأن كل محاولة وحركة سياسية تقوم على الجحود بالإسلام ، والدعوة إلى المادية السافرة سيكون مآلها – فى الأخير – الإخفاق ، وذلك هو ما أشار إليه ابن خلدون بقوله : « **إن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة** »

مصر فى عهد محمد أنورالسادات :

مات جمال عبد الناصر عام ١٩٧٠ م ، وكانت مصر – إذ ذاك – فى فوضى سياسية واقتصادية ، وتعانى نفسية الانهيار العصبى من جراء الهزيمة فى حرب ١٩٦٧ م ، ومن خسائر فى الكفاءات والصلاحيات والانهيار الاقتصادى نتيجة لسياسة الاضطهاد والتهور التى سلكها عبد الناصر .

خلف جمال عبد الناصر ، محمد أنور السادات ، وقد كان محمد أنور السادات بالنسبة إلى غيره من القادة المرشحين للرئاسة أقرب إلى الاتزان ، وكان مع

حنكته السياسية ، وتجاربه يحمل احتراما للدين ورجاله ، وأما غيره من القادة المرشحين فكانوا يحملون اتجاهات يسارية ويساندهم الروس .

بعد أن تمت له السيطرة بدأ أنور السادات يشجع العناصر المناوئة لجمال عبد الناصر ، وحاول تطويق النزعات والاتجاهات اليسارية (LEFTIST) وأفرج عن المعتقلين السياسيين ، ومن بينهم عدد من الإخوان المسلمين ، وأعاد بعض الحريات للصحافة ، وسمح للأحزاب السياسية – تدريجيا – بممارسة نشاطاتها ، وأنهى نظام مراكز القوة .

بدأت الجماعات الدينية تمارس نشاطاتها من جديد ، فبدأ الإخوان المسلمون إصدار جريدتهم ولسان حالهم « **الدعوة** » التى كانت صودرت من قبل واستقبل العدد الأول من هذه الجريدة استقبالا حارا فى البلاد مما يدل على ما كان فى الشعب المصرى من تعطش لنداء الحق ، وحنين إليه ، وطبع العدد الأول من هذه « **الدعوة** » عدة مرات ، ونفدت بعض الطبعات فور وصولها إلى الأسواق وامتازت الدعوة بالصراحة وقول الحق ، والدفاع عن الاخوان ، أن المقالات الصريحة فى « **الدعوة** » و « **الاعتصام** » وهما فى مقدمة الصحف الإسلامية اللتان تقومان بالدعوة الاسلامية وتكافحان المؤمرات السياسية ، تدل على أن العهد الجديد يسمح للحرية الصحفية إلى حد لم يكن يتصور فى عهد عبد الناصر وقد انتعشت الحركة الاسلامية نتيجة لهذه الحرية ، وأن كانت محدودة ، ففاز الطلاب الاسلاميون فى الجماعات المصرية فى انتخابات الاتحادات الطلابية وتم لهم هذا الفوز الساحق فى كل الجامعات المصرية تقريبا ونشرت كتب ومقالات تكشف عن جرائم عبد الناصر ، وتعسفه ، وعدوانه وصدرت لكل كتاب من هذه الكتب عدة طبعات ، ونالت الشيوع والرواج فى الشعب المصرى،وبدأ الشعب يطالب بتطبيق الشريعة الإسلامية ، واستمرت هذه المطالبة وقويت ، فاختارت الحكومة المصرية إزاء هذه المطالبة الجماهرية موقفا إيجابيا .

لقد كان محمد أنور السادات الذى شارك جمال عبد الناصر فى جميع مشاريعه وأهدافه ، وكان بمثابة مستشاره الخاص على علم بحقيقة « **القوة الإخوانية** » فثارت فى نفسه شكوك وشبهات بتجدد نشاطات الإخوان ، وخاصة الحركة الإسلامية فى طلبة الجامعات ، فحسب هذه النشاطات خطراً على نفسه فحاول تحديدها كما تدل عليه

الوثيقة التى أعدها حسن التهامى ، والتى نشرتها الصحف والحوار الذى جرى مع الأستاذ **عمر التلمسانى.**

إن حرب ١٩٧٣ التى انتصرت فيها مصر انتصاراً رائعاً على إسرائيل واستطاعت أن تستعيد به شيئا من احترامها ومكانتها ، وخولتها فرصة طيبة سانحة لقيادة العالم العربى ، وكان تأييد الحكومة السعودية واستخدام سلاح النفط قد شكل للعرب جبهة متحدة،وقد أدت هذه الإجراءات الجريئة إلى أن ذاقت القوى الكبرى بعض المرارة وأصيبت بتوتر عصبى شديد ، ولفتت هذه الخطوة الجريئة انتباه العالم ، وحتى كان يخيل إلى الناظر فى مسرح السياسة أن مستقبل العالم تابع للخطوة العربية الموحدة ، وما ظهر فى تلك الأونة من وحدة الصف الإسلامى ، وقلما يوجد له نظير فى التاريخ الماضى.

لقد كانت حرب ١٩٧٣ م وما ظهر بعدها من وحدة الصف تدين للروح الاسلامية التى اعترفت بحقيقتها القيادة المصرية نفسها بكل صراحة ، وكانت طبيعة الوضع تقتضى أن تتخذ إجراءات لدعم هذه الروح الجديدة وتقوية دعائم الإيمان والعاطفة الدينية .

ولكن أعداء الدين فى مصر وخاصة الكتاب الذين كانوا يدينون للغرب والحضارة الغربية بذلوا ما كان فى وسعهم فى منع هذا العنصر الجديد من التغلب.

وفى عام ١٩٧٧ م حدثت قضية اغتيال الشيخ حسين الذهبى وزير الأوقاف السابق ، واتهمت فيها جماعة « التكفير ، والهجرة » وظهر للعيان استغلال هذه الحادثة للدعاية العدائية ضد الدين ورجال الدين فى الصحف المصرية ، وتعرض رجال الدين للإهانة ، والتعذيب باثارة تهم ملفقة ، وقامت الصحافة بدور هدام للقضاء على الاتجاه الدينى ، والاستهانة بالعلماء والاستخفاف بكتبهم ومؤلفاتهم ، وأدلى الرئيس محمد أنور السادات ببيانات تدعو إلى حصر الدين فى دائرة العبادات وعزله عن مجال السياسة ، والحياة .

وينبغى أن لا يغيب عن البال أن محمد أنور السادات لا يعادى الدين ، بصفته الشخصية ، وهو يلتزم – إلى حد ما – بالنسبة إلى جمال عبد الناصر بأداء الصوم والصلاة ، وهذا ما حمل بعض الناس على إحسان الظن به ووصفه بالرئيس

المؤمن ، وليس عندنا من شك فى حياته الشخصية كمسلم متمسك بدينه وقد كان صريحا لصلته بالإسلام وإعلانه لنفسه أنه الرئيس المسلم لشعب مسلم ، إلّا أن تصريحاته تبين لنا تصوره الخاص عن الدين فهو يؤمن بالتعايش بين الأديان ووضع سائر الأديان فى مصر على مستوى واحد ، وقد اقترح قبل مدة قليلة إقامة معبد يشترك فى العبادة فيه المسلمون واليهود والمسيحيون ، حتى تبقى الديانات الثلاث فى وئام وتعايش سلمى ، وقد كان من تأثير التوادد مع المسيحيين أن مصر لم تقم بدورها من تعضيد الحركات الإسلامية ضد الحكومات المسيحية فى أفريقيا ، حيث يناضل المسلمون لحقوقهم الدينية .

وقد صرح محمد أنور السادات فى كتابه « **البحث عن الذات** » كما صرح بذلك فى عدد من خطاباته أنه كان متأثرا من عهد طفولته بكمال أتاتورك ، وتنم كتاباته كلها عن تأثره الشديد بالحضارة الغربية ، وتصور الغرب للدين والحياة وتخلف الشرق لم يستفد الرئيس السادات من الروح والثقة بالنفس التى كسبها من حرب ١٩٧٣ م ، بل انصرف إلى مهادنة إسرائيل وعزل محمد أنور السادات نفسه – بقبوله مشروع الأمن وسفره إلى إسرائيل –ليس عن العرب فحسب ، بل عن الدول الإسلامية أيضاً وجره هذا الانفصال والقطيعة إلى الاعتماد الزائد على أمريكا ، ثم كانت اتفاقية كامب ديفيد (CAMP DAVID) التى كانت موضع معارضة جماعية فى العالم الإسلامى ، واعتبرت معاهدة الاستسلام ، وأدت به هذه الاتفاقية إلى توطيد العلاقات مع اليهود ، كما كانت مع المسيحيين ، والانعزال عن العالم الإسلامى ، ونتيجة لمعارضة الأوساط الإسلامية لهذه الاتفاقية المخزية ، ازداد الضغط على بلاده وأحكم الحصار حولها ، وانقسمت الأوساط الحكومية والأوساط الاسلامية ، فريقين متحاربين،وتشتت شمل الوحدة الإسلامية التى شاهدها العالم بعد حرب ١٩٧٣ م وخابت الآمال فى القيادة الموحدة التى نيطت بمصر ، وانقطع الرجاء .

وبرز نتيجة لصلة الرئيس أنور السادات النامية بأمريكا عنصر جديد ، وهو عنصر المسيحيين ، وطالب البابا شنوده بالمزيد من الحقوق للمسيحيين ، ولما ظهرت المطالبة بتطبيق الشريعة الإسلامية ، كان المسيحييون فى مقدمة المعارضين لها ، وكلما توثقت علاقاته مع أمريكا ، ازداد تأثير المسيحيين عليه ، ورفعت إليه مطالبة

بإقامة جامعة يسوعية خاصة رغم وجود الجامعة الأمريكية ، ووعدت أمريكا بتحمل جميع نفقاتها .

كانت مأساة مصر الأليمة أن حكوماتها قبل الثورة وبعد الثورة – اعتبرت الحركة الإسلامية عدوها الحقيقى، وصرفت كل جهودها وقدراتها فى الحد من سلطاتها وتأثيرها ، فذهب ضحية هذا الصراع والعراك ما حبا الله – عز وجل – أرض مصر من قدرات علمية وفكرية ، وطاقات حضارية وثقة بالنفس وعزيمة صارمة ، وقوة عملية ، وصلاحية موفورة للقيادة والريادة ، وظلت مصر طوال هذا العهد مصابة بالتناقض الفكرى ، والتبعية للغرب ، وقد حرمت رفد المنابع الأصيلة للقوة والإبداع [١٣٦] ، ولكن هذا الوضع الراهن فى مصر شاذ غير طبيعى ، لا بد من أن تتغلب عليه الروح الإسلامية ، وضمير الدين الحى ، وتنهض قوة جبارة صاعدة فى هذه الأرض التى سميت « **كنانة الإسلام** » والتى تستحق قيادة العالم العربى أكثر من بلد آخر ، بل تستطيع قيادة العالم الإسلامى إذا عادت إلى جوهرها ، وعادت إلى مركزها ، وإن التاريخ يشهد أن كل من حاول أن يصرف شعبا عن مركزه الإسلامى وعن عقيدته الإسلامية وعن تراثه الإسلامى كان حظه الفشل والإخفاق ، فليدرك ذلك كل من يملك زمام الأمور .

سوريا والعراق :

إن هذه البلاد الإسلامية الخصبة الغنية التى تعيش فيها الأغلبية الساحقة من المسلمين [١٣٧] ، والتى تملك رصيداً عظيماً من التراث الإسلامى الحضارى المشرق ، والتى عاشت كمركز الخلافة الإسلامية برهة طويلة من الزمن مرّت بأدوار سياسية

---

(١٣٦) كتب هذا الاستعراض الوجيز لأوضاع مصر الراهنة – على طلب من المؤلف لهذه الطبعة الجديدة للكتاب الأستاذ واضح رشيد الندوى ، رئيس تحرير جريدة « الرائد » الصادرة من جامعة ندوة العلماء ، وأستاذ كلية اللغة العربية فيها ، فجزاه الله خيراً .

(١٣٧) نسبة المسلمين فى سوريا ٩٠٪ وفى العراق ٩٣٪ .

مختلفة ، وثورات عسكرية مرتجلة متلاحقة منذ تحررها من نير الاستعمار الفرنسى والبريطانى ، إن هذين البلدين العربيين المسلمين أصبحا تربة صالحة لنزعات الغرب العقلية والخلقية والاجتماعية ، ولا تزال الطبقة المثقفة ، والزعماء السياسيون والحاكم يزدادون تحمساً للقومية العربية ، والعلمانية والتجدد والتغريب ، ورغم أن الجماهير فيها لا تزال على إسلاميتها وحبها للدين ووفائها له وكثير من التقاليد الاجتماعية القديمة باقية ، ويوجدفيهما عدد وجيه من العلماء المتضلعين قلما يوجد لهم نظير فى البلاد الإسلامية ، إلا أن سيطرة الدين فى المجتمع لاتزال تضعف وتنهار ، واحترام العلماء ومكانتهم فى المجتمع مهددة بالزوال ، وحرية المرأة وتبرجها ينتشران بسرعة ، والمهرجانات الثقافية واختلاط الجنسين فى تقدم وازدياد ، والتعليم المختلط نال رواجاً عاماً فى الشعب – وظلت العناصر اللادينية تستولى على أزمة البلاد وتتحكم فى رقاب الشعب . أضف إلى ذلك وجود العناصر والقوميات التى لم تتأثر بتعاليم الإسلام فى قليل ولا كثير ، ولم تزل تدين بالعقائد الجاهلية أحياناً ، والمتطرفة أحياناً أخرى التى لاتمتّ إلى الاسلام بصلة ، والأقليات التى لم تزل تحمل للجماهير المسلمة والسواد الأعظم الحقد الدفين ، والعداء الشديد ، وهى تمتاز بالروح العسكرية ، وتحترف الجندية ، وتكبر جزءاً كبيراً من الجيش السورى كالعلوية والدروزية ، وقد أهملت الحكومات الإسلامية السابقة تعليمها ، ونشر الدين الصحيح فيها ، فكانت فى كل زمان مشكلة كبيرة وخطراً على سلامة البلاد ووحدتها ، ومالأت القوات غير الإسلامية والأجنبية (١٣٨) ،وأحدثت بلبلة فكرية لا توجد إلا فى بلاد عاشت تحت وطأة الفاتحين وكانت حقلا للمذاهب الهدامة والديانات المتطرفة ، واستولت أخيراً على مقاليد الحكم والمراكز الرئيسية الحسّاسة فى البلد .

ومن الدليل الساطع على نفوذ الفكرة القومية واللادينية ومدى تغلغلها فى المجتمع أن حزب البعث العربى الاشتراكى استطاع أن يسيطر على العراق مدة ، واستطاع أن يبقى فى الحكم فى سوريا مدة أطول .

---

(١٣٨) اقرأ تفاصيل ذلك فى أحوال شيخ الاسلام ابن تيمية فى « البداية والنهاية » لابن كثير وفى « ابن تيمية » للشيخ أبى زهرة ، وفى « سيرة ابن تيمية » للمؤلف .

وشعار هذا الحزب وهتافه ونظرته إلى الأمة العربية والوطن العربى هو كما يلى : العرب أمة واحدة ذات رسالة خالدة ، تعتبر الأرض التى تسكنها وطنها العربى « **الأرض التى تمتد ما بين جبال طوروس وجبال بشتكويه وخليج البصرة والبحر العربى وجبال الحبشة والصحراء الكبرى ، والمحيط الأطلسى والبحر الأبيض المتوسط** [١٣٩] » .

نقدم هنا مقتطفات من كتابات زعمائه ورجاله المسئولين، تلقى الضوء على تفكير هذا الحزب ومبادئه :

١ – الأمة العربية وحدة ثقافية ، وجميع الفوارق القائمة [١٤٠] بين أبنائها عرضية زائفة تزول جميعها بيقظة الوجدان العربى .

٢ – الأمة العربية ذات رسالة خالدة تظهر بأشكال متجددة متكاملة فى مراحل التاريخ ، وترمى إلى تجديد القيم الإنسانية وحفز التقدم البشرى ، وتنمية الانسجام والتعاون بين الأمم .

٣ – « حزب (**البعث العربى الاشتراكى**) قومى يؤمن بأن القومية حقيقة حية خالدة ، وبأن الشعور القومى الواعى الذى يربط الفرد بأمته ربطاً وثيقاً هو شعور مقدس ، حافل بالقوى الخالقة ، وحافز على التضحية ، باعث على الشعور بالمسئولية ، عامل على توجيه إنسانية الفرد توجيهاً عملياً مجدياً » .

٤ – (**البعث العربى الاشتراكى**) اشتراكى يؤمن بأن الاشتراكية ضرورة منبعثة من صميم القومية العربية ، لأنها النظام الأمثل الذى يسمح للشعب العربى بتحقيق إمكانياته ، وتفتح عبقريته على أكمل وجه فيضمن للأمة نمواً مطرداً فى إنتاجها المعنوى والمادى وتآخياً وثيقاً بين أفرادها » .

---

(١٣٩) الاحزاب السياسية فى سوريا ص ٤٤

(١٤٠) الفوارق الدينية أيضا .

٥ – الرابطة القومية ، هى الرابطة الوحيدة القائمة فى الدولة العربية التى تكفل الانسجام بين المواطنين وانصهارهم فى بوتقة واحدة ، وتكافح سائر العصبيات المذهبية والطائفية والعرقية والإقليمية .

٦ – يوضع بملء الحرية تشريع موحد للدولة العربية ينسجم مع روح العصر الحاضر ، وعلى ضوء تجارب الأمة العربية فى ماضيها[١٤١] » .

إن مؤسس هذا الحزب ورأسه المفكر ، هو الأستاذ ميشيل عفلق (**المسيحى**) وقد صرح بأفكاره وآرائه فى كتابه : « **فى سبيل البعث** » .

نقتبس منه ما يلى :

« ..من الطبيعى أن يستطيع أى رجل مهما ضاقت قدرته أن يكون مصغراً ضئيلاً لمحمد ، مادام ينتسب إلى الأمة التى حشدت كل قواها فأنجبت محمداً ﷺ ، أو بالأحرى مادام هذا الرجل فرداً من أفراد الأمة التى حشد محمد ﷺ كل قواه فأنجبها فى وقت مضى ، تلخصت فى رجل واحد كل حياة أمته ، واليوم يجب أن يصبح كل حياة هذه الأمة فى نهضتها الجديدة تفصيلا لحياة رجلها العظيم ، كان محمد كل العرب ، فليكن العرب اليوم محمداً » .

« ..إن تأجيل ظفر الإسلام طوال تلك السنين كان بقصد أن يصل العرب إلى الحقيقة بجهدهم الخاص ، وبنتيجة اختبارهم لأنفسهم وللعالم وبعد مشاق وآلام ، ويأس وأمل ، وفشل وظفر ، أى أن يخرج الإيمان وينبعث من أعماق نفوسهم ، فيكون الإيمان الحقيقى الممتزج مع التجربة ، المتصل بصميم الحياة ، فالاسلام إذاً كان حركة عربية ، وكان معناه تجدد العروبة وتكاملها » .

« ...الإسلام خير مفصح عن نزوع الأمة العربية إلى الخلود والشمول ، فهو إذاً فى واقعه عربى ، وفى مراميه المثالية إنسانى ، فرسالة الإسلام إنما هى خلق إنسانية عربية » .

---

(١٤١) الاحزاب السياسية فى سوريا .

« إذاً فالمعنى الذى يفصح عنه الاسلام فى هذه الحقبة التاريخية الخطيرة ، وفى هذه المرحلة الحاسمة بين مراحل التطور ، هو أن توجه كل الجهود إلى تقوية العرب وإنهاضهم ، وأن تحصر هذه الجهود فى نطاق القومية العربية » .

« ..الفكرة القومية المجردة فى الغرب منطقية ، إذ تقرر انفصال القومية عن الدين ، لأن الدين دخل على أوروبا من الخارج ، فهو أجنبى عن طبيعتها وتاريخها . وهو خلاصة من العقيدة الأخروية والأخلاق ، لم ينزل بلغاتهم القومية ، ولاأفصح عن حاجات بيئتهم ولا امتزج بتاريخهم .. فى حين أن الاسلام بالنسبة للعرب ليس عقيدة أخروية فحسب ، ولا هو أخلاق مجردة ، بل هو أجلى مفصح عن شعورهم الكونى ونظرتهم إلى الحياة ، وأقوى تعبير عن وحدة شخصيتهم التى يندمج فيها اللفظ بالشعور والفكر ، والتأمل بالعمل ، والنفس بالقدر [١٤٢] » .

إخفاق حزب البعث وشقاء الشعب السورى :

إن هذا النمط من التفكير ، أو هذه الفلسفة للحياة تغلغلت فى عامة العسكريين والجامعيين فى سوريا ، وأقبلت عليها – بوجه خاص – تلك الطوائف التى كانت تنتمى إلى عقائد وديانات مختلفة وكانت تسيطر على الجيش ، بل تهالكت عليها وتبنتها ، ولايزال ذلك الحزب وأنصاره يتملكون زمام الموقف ، ومفتاح الحكم فى هذه البلاد ، واستولت السياسة العلمانية والقومية العربية والاتجاهات الاشتراكية على أوضاع البلد استيلاء كاملا ، واستسلم أبناء الإسلام ، وحملة الفكر الإسلامى للواقع ، وضاق مجال النشاط على العاملين للإسلام ، وعلى الدعاة للفكرة الإسلامية ، فغادر عدد كبير منهم هذا البلد ، والتجأوا إلى البلاد العربية الأخرى ، أو العواصم الأوروبية ، وحرمت سوريا والعراق – التى كانت تعتبر حصنا وملاذاً للعلوم الدينية والفكر الاسلامى بعد مصر – أجل علمائها وكتابها وأدبائها ، وأقدر قادتها العسكريين ، وأعقل زعمائها السياسيين ، وأعلم علماء الدين ، وتجردت هذه البلاد من الأكفاء كما تتجرد الشجرة عن أوراقها فى فصل الخريف ، واستولت على البلاد

---

(١٤٢) ميشيل عفلق فى كتابه « فى سبيل البعث » تحت عنوان « ذكرى الرسول العربى » .

عصابة من شباب لم يكن عندها نضج فكرى ولا رصيد عملى ، لا رجاحة عقل ولا حصافة رأى .

ومن ناحية أخرى أصيبت هذه البلاد التى كانت غنية فى ثرواتها الطبيعية والزراعية بأزمة اقتصادية عامة ، وانتقل جزء كبير من موارد البلد ودخل الشعب إلى الخارج خوفاً من تتابع الثورات اليومية وطغى فكر القومية والتفكير المادى المجرد ، والاشتراكية على العقول والألباب حتى بدأ عدد كبير من كتاب الجيل الجديد ، وبعض كبار المسئولين والضباط يسخرون من القيم الدينية والأقدار الثابتة التى تؤمن بها سائر الاديان السماوية علنا وجهاراً ، ونستطيع أن نرى صورة من هذا التفكير والاتجاه فى مقال نشرته صحيفة « **جيش الشعب** » الرسمية بقلم ضابط كبير ، فقد جاء فيه :

واستنجدت أمة العرب بالإله ..فتشت عن القيم القديمة فى الاسلام والمسيحية ، استعانت بالنظام الإقطاعى والرأسمالى ، وبعض النظم المعروفة فى العصور الوسطى ، كل ذلك لم يجد فتيلا .. مع كل هذا شمرت أمة العرب عن ساعديها ونظرت بعيداً ..بعيداً ..لترى طفلها الوليد .يقترب منها شيئاً فشيئاً ، .. وهذا الوليد ليس إلا الإنسان العربى الاشتراكى الجديد .

الإنسان المتمرد على جميع القيم المريضة الهزيلة فى مجتمعه .. التى هى ليست إلا وليدة الاقطاع والرأسمال والاستعمار .. تلك القيم التى جعلت من الإنسان العربى إنساناً متخاذلا متواكلا ، إنسانا جبريا مستسلما للقدر ، إنساناً لا يعرف إلا أن يقول « **لاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم** » .

أما القيم الجديدة التى ستخلق الانسان العربى الجديد ، فهى قيم نابعة من صلب الانسان المتمرد المعذب،نابعة من قلب الانسان الجائع ، نابعة من الانسان الاشتراكى الثورى الجديد . . الذى لا يؤمن إلا بالانسان وحده .

والطريق الوحيدة لتشييد حضارة العرب وبناء المجتمع العربى ، هى خلق الانسان الاشتراكى العربى الجديد ، الذى يؤمن أن الله والأديان والأقطاع ، والرأسمال والاستعمار ، والمتخمين ، وكل القيم التى سادت المجتمع السابق ليس إلا دمى محنطة فى متاحف التاريخ .

ونحن إذ نشترط فى إنساننا الجديد رفضه للقيم السابقة علينا أن نضع قيما

جديدة محددة ، ليست هناك سوى قيمة واحدة ، وهى الإيمان المطلق بالإنسان ، القدر الجديد ، الإنسان الذى لا يعتمد إلا على نفسه وعمله وما يقدمه للبشرية جمعاء لأنه يعلم نهايته الحتمية الموت .. وليس غير الموت لن يكون هناك نعيم أو جحيم ، بل سيصبح ذرة تدور مع دوران الأرض ، لذلك هو مضطر إلى أن يقدم كل ما يملك لأمته والإنسانية ، دونما مقابل (**كزاوية صغيرة فى الجنة مثلا**) .

فى هذه النشوة القومية والاشتراكية والتحمس لهما ، والتفانى فى سبيلهما وقعت الحرب بين إسرائيل والعرب ، واضطرت سوريا أن تقابل العدو وتقاتله فى أول الخط ، ذلك العدو الذى سخرت منه زمنا وتحدته طويلا .. بالمجد العربى والقومية العربية للقضاء عليه ، ولكنها لم تستطع أن تدافع عن حدودها وثغورها ، فضلا أن تنتصر على العدو ، بل كان الأمر بالعكس ، فقد جاس العدو خلال ديارها ولم تستطع أن ترده على أعقابه فظلت منهوكة الأعصاب خائرة القوى ، تستنجد بشقيقاتها الاشتراكية ، وتستصرخ ضمائر العالم ، وانحطت انحطاطاً ظاهراً فى المجال الاقتصادى والسياسى والعسكرى ، ومن العسير التنبؤ بخروجها من هذا المأزق والخطر المحدق ، وتغلبها على مشكلاتها وأزماتها الراهنة .

وقد اتفق للمؤلف أن يزور سوريا ، ويقضى فى دمشق بعض الوقت فى رجب ١٣٩٣ هـ (آب ١٩٧٣ م) ، وهنا بعض ارتساماته التى سجلها فى رحلته « **من نهر كابل إلى نهر اليرموك** » تؤيد ما تخوفه المؤلف فى السطور الماضية ، من عدم استفادة الشعب من النظام الشيوعى ، يقول :

« لقد كان هتاف هؤلاء القادة : الرغيف ، ولقمة عيش للجائع ، وتهيئة الحاجيات » للشعب والكفالة بالعيش لرجل الشارع ، وكان جهادهم فى سبيل ذلك ، فإذا لم يتحقق ذلك ، وتحقق كل شيء – على فرض أنه تحقق – فمعنى ذلك أن الاشتراكية والقومية والشيوعية نظم وفلسفات « **تعبدية** »[١٤٣] تقوم على مجرد عقيدة وإيمان وعاطفة ، لا توزن فى ميزان العقل والتطبيق والنتائج ، أو مبادىء سلبية لا يقصد منها إلا هدم كيان أو تخلص من النظام » .

---

(١٤٣) ما يقوم على مجرد أمر (من مصدر غير بشرى) من غير أن يدرك بالعقول .

هذا عدا علميات عسكرية عمياء ووحشيةيستهدف لها أفراد من الشعب وشباب ناهضون،وقد كادت البلاد تتجرد من أصحاب الاختصاص والنبوغ وحملة الضمائر والقلوب . كما تتجرد الشجرة من أوراقها أيام الخريف .

وزار المؤلف بغداد فى هذه الرحلة فعلق على هذه الزيارة فى السطور الآتية :

« كنت أشعر وأنا أتجول فى شوارع بغداد ، وأطالع وجوه الناس ، وأسمع حديثهم ، وفى ضوء تجربتى الخاصة فى هذه الزيارة الأخيرة أن البلاد كانت أكثر رخاء وسعادة ، والأمة أقوى ثقة وأكثر حرية ، قبل الثورة التى قام بها عبد الكريم قاسم ، منها الآن [١٤٤] » . إلى أن يقول : « فما الذى استفادته هذه البلاد ياترى بعد الثورات التى قامت لإعادة الأمور إلى نصابها ، والحقوق إلى أصحابها وتخليص الشعب من الظلم والحيف ، والاستبداد ، وخنق الحريات ، وسلبها [١٤٥] ؟ » .

إيــران :

وقلّدت إيران تركيا فى عملية التطوير الفكرى والحضارى ، وما يسميه زعماء التجدد « **بالإصلاحات** » وقد بدأ هذه الرحلة الشاقة ملك إيران السابق رضا شاه البهلوى (١٩٢٥ – ١٩٤١ م) أيام حكمه ، واتخذ لذلك خطوات إيجابية حاسمة . وكان تأثيرها فى المجتمع الإيرانى عميقاً وبعيد المدى ، يستعرض الأستاذ (Ceorge Lenczowaki) المعلم فى جامعة كليفورنيا فى كتابه (The Middle East in World Affairs) « **الشرق الأوسط فى القضايا العالمية** » تاريخ هذا التطور فى اختصار فيقول :

« لم تكن مشاريع رضا شاه الإصلاحية محدودة فى نطاق تقدم إيران صناعياً ، إنه حاول أن يجعل إيران مطابقة للعصر الجديد فى مجالات التعليم والاجتماع ، وبلداً عصرية متحضرة . فى عام ١٩٢٧ م قرر تنفيذ القانون الفرنسى ، وكان تحدياً لصلاحية المحاكم

---

(١٤٤) زار المؤلف بغداد الزيارة الاولى فى سنة ١٩٥٦ م

(١٤٥) « من نهر كابل إلى نهر اليرموك » ص ٦٦

الأهلية وجدارتها فى الشئون المدنية والاجتماعية ، وبدأت النزعة العلمانية فى كل ذلك واضحة جلية ، بيد أنها لم تظهر علنا وجهارا كما كانت فى تركيا ، إنه شعر بأن نفوذ علماء الشيعة الرجعيين المتزمتين حجر عثرة فى تغريب البلاد ، فخطا لذلك خطوات وئيدة ، إنه تلقى درساً فى إخفاق تلك الثورة التى قامت للدفاع عن الديمقراطية فى عام ١٩٢٤ م ، ومن إخفاق الأمير أمان الله خان ملك أفغانستان البلد المجاور فى إصلاحاته ، وهو أن الشيء الذى أمكن فى تُركيا ذلك البلد شبه الغربى ، لا يمكن فى إيران فى هذا الوقت ، ثم إن الدستور الإيرانى ينص بصراحة على أن دين الدوله الرسمى هو الإسلام ، وإن الطائفة الجعفرية (الشيعة) هى الطائفة الرئيسية التى يعتمد عليها ، ويجب على ملك إيران أن يكون من أتباع هذه العقيدة وداعياً إليها ، كما أنه ينص على أن مجلس إيران « البرلمان الإيرانى » ليس له الخيار فى وضع قانون ينافى مبادىء الاسلام وكان من اللازم أن يساهم فى وضع هذا القانون وتنفيذه خبراء الشئون الدينية وأهل الاختصاص من العلماء أيضاً ، وهنالك يكون هذا القانون شرعياً ولازماً ، وكان الملك يشعر بأنه لا يستطيع أن يعارض هذه المواد الدستورية الصريحة ، فاتخذ لذلك تدابير سياسية بدلا من أن يهاجمها علنا ، إنه رأى الإغضاء عن رجال الدين وتجاهلهم أحسن وأقوم من معاكستهم أو معارضتهم .

كانت عملية إنشاء نظام تعليم عصرى وإثارة الحرية واليقظة فى المرأة تتوقف على أن يتقلص ظل علماء الدين ، ويقل نفوذهم وتأثيرهم فى الشعب ، وقد قطعت البلاد شوطاً كبيراً فى هذا المجال خلال الحرب ، وأصبحت مادة التعليم الدينى فى المدارس الابتدائية والثانوية غير إجبارية من عام ١٩٣٠ م . وعنيت برامج التعليم بإثارة الوطنية والشعور المدنى عناية خاصة ، ونالت الرياضة والألعاب تشجيعاً كبيراً ، وأنشئت عدة ملاعب جديدة ضخمة فى المدن الكبيرة ، وأصبح الالتحاق بالكشافة للبنين والبنات إجبارياً للشباب ، وذلك لبث روح القومية فى الجيل الجديد .

هذه النشاطات أبعدت شباب البلاد عن ممارسة الشئون الدينية والتفكير على الأسلوب الدينى ، وفى عام ١٩٢٨ م ضرب النفوذ الدينى ضربة قاصمة بمنع الزى الشرقى ، وحل محل الطربوش والعمامة القبعة البهلوية ، ولم تلبث أن جاءت مكانها القبعة الأوروبية ، واتخذ الملك أساليب مختلفة لإثارة الوعى والحرية فى المرأة ، وقيد

البرلمان حرية الطلاق للرجل نزولا إلى رغبته وتوجيهه ، وسمح للمرأة بالتوظف فى الدوائر الحكومية والمصالح الرسمية ، ولو أنها لم يؤذن لها بالدخول فى التمثيل السياسى ، وأصدر التعلميات للضباط العسكريين والمدنيين لتشجيع الزى الغربى للنساء ، وفى عام ١٩٢٥ م اشتركت ملكة إيران نفسها وأميرات العائلة الملكية فى مناسبة عامة فى الزى الغربى ، ومنذ ذلك الحين ، منع الحجاب ، ووقعت اضطرابات ، ولكن تدابير الحكومة الصارمة تغلبت عليها ، واضطر الجميع أخيراً إلى الخضوع أمام القانون ، وبدأت عملية إصلاح اللغة وكان هدفها تحرير الفارسية من نفوذ اللغة العربية ، وكان ذلك أهم موضوع للمجمع الأدبى (Academy of Literature) الذى أنشيء عام ١٩٣٥ م ولو أن الحروف لم تتغير فيها ، كما حدث فى تركيا ، وفى مارس ١٩٣٥ م أصبح اسم هذه الدولة (**إيران**) بقرار رسمى بدلا من (**فارس**) أو (**برشيا**) الذى أطلقه اليونان [١٤٦] [١٤٧] .

ورأى الملك محمد رضا بهلوى ملك إيران الحالى أنه قد جاء أوان الإصلاحات والتطورات الأخرى فى البلاد ، فأضفى على بعض القوانين والإصلاحات صفة دستورية ، وقرر إلغاء الإقطاع وملكية الأراضى ، وقرر حق التصويت والترشيح للمرأة كدستور وقانون رسمى ، وقام علماء إيران بالاحتجاج والمظاهرات ضد هذه الإجراءات ، ووقعت اضطرابات واشتباكات فى البلاد ، ولكنها لم تحدث أى تغيير فى موقف الحكومة .

جانب مشرق :

ظلت إيران قروناً كثيرة مجالا واسعاً للعلوم الإسلامية وآدابها ،ومركزاً كبيراً للفكر الإسلامى ، إنها بفضل شعرائها وأدبائها وفلاسفتها ومفكريها ومشائخها الذين لا يأتى عليهم الحصر ، تستحق بجدارة أن تسمى بيونان الشرق الإسلامى ، وبالرغم

---

(١٤٦) والعرب أيضا .

(١٤٧) The Middle East in World Affairs P. 180-182 .

مما نجد هناك من بعض الأفكار الدينية الجامدة الغالبة التى تعتبر نتيجة طبيعية لتاريخ إيران القديم ، توجد فيها حركات متعددة للبعث الإسلامى ، والتضامن الإسلامى ، كما ينال الأدب الاسلامى القوى إعجاباً كبيراً وقبولا متزايداً فى الأوساط العلمية هناك .

الثورة الإسلامية فى إيران :

إذا تأملنا فى العوامل الباعثة على الحركة السياسية ضد الشاه فى إيران ، ظهر لنا إنها ترجع إلى موقف الشاه العدائى إزاء مطالب الشعب الإيرانى ، ومشاعرها الدينية والثقافية ، الموقف الذى طمس على جميع خدماته العسكرية ، وجهوده فى مجال السياسة الداخلية ، والسياسة الدولية ، وقد أثبتت أحداث إيران أن أى قيادة من القيادات لا تستطيع أن تنال القبول والرضا عند الناس ، إذا عارضت عواطف الشعب الدينية ، مهما قدمت من جهود وخدمات فى ترقية البلاد ورفع مستوها ومكانتها بين الدول .

لقد كانت القوة العسكرية فى إيران فى عهد الشاه ، قوة حاسمة فى هذه المنطقة ، وكان شاه ايران يلعب دوره السياسى المؤثر فى القضايا الدولية بحنكة ولباقة ، وكانت البلاد تنحو نحو الازدهار والرخاء،وكانت إيران تعتبر من الدول الراقية ، وكانت تفوق كثيراً من البلدان فى هذه المنطقة من الناحية التعليمية ، يدرس كثير من أبنائها فى جامعات أجنبية معروفة ، ولم يكن من الممكن أن تسمى إيران – فى هذه الأوضاع – دولة متخلفة ، ولذا فاننا لا نستطيع أن نقول : أن العامل الأساسى وراء الغضبة الشعبية على الشاه ،كان تخلفاً اقتصادياً أو تقهقراً سياسياً ، كما أن النظام الملكى لم يكن السبب الأساسى لهذه الثورة ، فان هناك دولا راقية تتبنى هذا النظام ، ولا يوجد هناك تذمر من هذا النظام ، فلا ينبغى أن يعد النظام الملكى سببا لهذا الغليان السياسى والثورة العارمة ، ولا يغيب عن البال أن الشعب الإيرانى لم يزل شعبا عاطفيا ، يقدس الأشخاص ، فكان هذا النظام الملكى ملائماً لطبيعتهم وتقاليدهم ، إذن فما هو ذلك العامل الذى لعب دوره وراء هذه الحركة السياسية ؟ .

إن النعرة التى كان لها التأثير البالغ الحاسم ، والتى جمعت الشعب الإيرانى كله فى صف واحد ضد نظام الشاه ، إنما هى نعرة النظام الإسلامى ، ولم تكن هذه النعرة تصدم النظام الملكى مثل ما كانت تصدم سياسة الشاه المعارضة للدين ، وكان خلع الشاه وسيلة لإقامة هذا النظام البديل ، لأن النزعات العلمانية التى كانت تسود إيران وتناوىء الدين والثقافة الإسلامية ، كانت نتيجة عبودية الشاه وحاشيته وبطانته للغرب .

إن شاه إيران الذى تربى تربية غير إسلامية فى بيئة علمانية ، كان يقصد إلى تغريب إيران ، ونشر الثقافة الغربية ، وتصورها عن الحياة الإنسانية ، وصبغ إيران بصبغتها الغالبة ، وإنه قام فى عهده باجراءات عديدة أوحت إلى القادة الدينيين إنه يريد طمس المعالم الدينية ، والقضاء على الشخصية الإسلامية فى إيران ، وإنه قد أسند زمام البلاد – باعتماده على اليهود ، والبهائيين وثقته الكاملة بهم ، إلى القوى المعادية للإسلام ، وأظهر انتماءه إلى سائرس ، كما فعل حكام مصر فى انتمائهم إلى جدودهم الفراعنة ، وقام لأجل ذلك باحتفال عظيم أنفق عليه مئات الملايين من الريالات ، ونشر تقويما إيرانياً قديماً إزاء التقويم الإسلامى .

إن جماهير إيران لم تزل متمسكة بعلمائها ، ولأجل ذلك فقد كانت المعارضة العنيفة لإجراءات الشاه التقدمية من قبل العلماء ، وأحدث الشاه فى نظام الأوقاف تغييرات خطيرة للتقليل من تأثير العلماء ، وإضعاف نفوذهم ، ونفى عدداً من العلماء الذى لهم تأثير ونفوذ فى قلوب الناس ، واعتقل الكثير منهم ، واتخذ عقوبات صارمة ضد المجاهدين لإحياء الإسلام والدعوة إليه . وعذبهم تعذيباً شديداً فذهب ضحية هذا العدوان الطاغى آلاف من النفوس المسلمة ، إلّا أن هذا الظلم والعدوان ألهب عواطف الشعب الإيرانى ، وحملهم على القيام بتضحيات جسيمة فى قيادة آية الله الخمينى ، الذى كان يقضى أيام جلائه فى باريس ، واضطر شاه ايران لمغادرة البلاد ، فتأسست الحكومة الاسلامية فى إيران غرة ابريل عام ١٩٧٩ م .

إن هناك فى عدد من الأوساط تفسيرات مختلفة لهذا النجاح المدهش ، الذى كسبه آية الله الخمينى ، فوصفت هذه الثورة فى بداية أمرها بأنها ثورة يسارية ، وقد

أراد شاه إيران نفسه القضاء على هذه الحركةالثورية بتسميتها بالحركة اليسارية ، ولكن ما تحقق بعد الثورة من سيطرة قوية للعنصر الإسلامى ، الذى كان يقوده العلماء يشير إلى أن العنصر الإسلامى هو الذى كان يعمل وراء هذه الحركة .

ولا يمكن أن نتجاهل أن من أهم الأسباب لنجاح هذه الثورة شعور العلماء الإيرانيين بحقيقة الأوضاع ، وقوة النظام ، وسيطرتهم ، على الجمهور ونفوذهم فى الشعب بالإضافة إلى تمسك الشعب بدينه وعاطفة الفداء والتضحية والاستماتة فى سبيله التى لا يوجد لها نظير فى هذا العصر .

آراء آية الله الخمينى وأفكاره :

أما آية الله الخمينى الذى هو قطب هذه الثورة الإيرانية ومحركها الحقيقى فانه ينظر إلى الإسلام من خلال الرؤية السياسية ، فهو زعيم سياسى ، وأساس حركته دينى ، ويختلف تصوره عن عامة العلماء ، إنه يركز على التكوين الاجتماعى للأمة أكثر من تركيزه على ناحية العبادات ، فهو يرى أن تصور العبادات واضح فى التعاليم الإسلامية ، وأن هذا الجزء من الإسلام لم يزل مطبقا فى كل عصر ، ولكنه يرى استحالة التغيير فى الحياة إلّا بالوعى السياسى ، والإصلاح الاجتماعى إن الحكام – فى نظره – سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين – لا يخشون على أنفسهم من العبادات ، ولكنهم يرون الوعى السياسى بازائها خطراً عليهم ، يوضح ذلك فى كتابه « **الحكومة الإسلامية** » فيقول :

إن الاستعمار يريد منا أن نقتصر فى عملنا على الصلاة حتى لا ندخل معه فى صراع سياسى ، إنه يريد ويقول لنا ذلك بصراحة ، صل أيها المسلم ما شئت إننا لا نريد منك إلّا نفطك ، أما ما تقنط به من صلاة فى مسجدك فلا يهمنا فى شىء ولا نعارض فيه إطلاقاً ، إذ كل ما يهمنا هى ثروتك المعدنية وأسواقك لمنفذ حياتنا واستثماراتنا .

إن الغزاة الأوروبيين فرضوا علينا قبول قوانين جديدة لأن الإسلام حسب رأيهم غير قادر على تنظيم الحياة اليومية ، وعاجز عن تنظيم المجتمع ، وقاصر عن إقامة

حكومة من أى نوع كانت ، فالإسلام فى نظرهم لا يعنى إلّا بحيض المرأة وبسلوك الرجل مع زوجته فى مخدعها ، وباختصار يرون أن الإسلام غير قادر على تنظيم المجتمع ، ويرون أن قصورنا وتخلفنا آت من ديننا ، وبالتالى ليس لنا مخرج من ذلك الوضع إلّا إلغاء الإسلام وشريعته لنلحق بركب الأمم المتقدمة[١٤٨] .

ويؤكد على إقامة الحكومة الإسلامية ، ويقول : **إن مجرد القوانين لا تقدر على إصلاح المجتمع ، إلّا إذا توفرت سلطة تنفيذية ، والسلطة التنفيذية لا تتحقق إلّا بإقامة حكم الله لذلك سعى رسول ﷺ بجانب الدعوة والتبليغ إلى تنفيذ أحكام الإسلام ، حتى أتت الحكومة الإسلامية إلى حيز الوجود .**

ويرى الخمينى أن هذه المسئولية آلت - بعد رسول الله - ﷺ إلى خلفائه ثم إلى خلفائهم وعلماء الأمة الإسلامية ، فكتب فى « **الحكومة الإسلامية** » إن القوانين والمبادىء الاجتماعية تحتاج لتنفيذها إلى منفذ وكل من يسن القوانين يسعى إلى تنفيذها ، فلا بد من وجود جهاز تنفيذى بجانب جهاز تشريعى ، وذلك ما تدعو إليه الآية الكريمة ﴿ **أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم** ﴾ .

ويقول فى حكم الثورة على الحكام الجائرين المنحرفين عن الدين أن الشرع والعقل كليهما يفرضان أن لا ندع الحكومة تعمل ما تشاء ، وثمة دلائل أن كل حكم ينحرف عن الحق هو حكم الطغاة ، وتعود إلينا المسئولية أن نزيل آثارها من مجتمعنا وبلادنا ، ولهذا الغرض يجب علينا تربية جيل يحطم النظام الطاغى ، وليس أمامنا طريق إلّا أن نصطدم بالباطل ، ونقضى على الطغاة ، وذلك هو الثورة الإسلامية ، ومسئوليتها تعود إلى كل مسلم .

ويقول فى العلماء والفقهاء الذين يتعاونون مع الحكومات غير الإسلامية ويصدرون لها الفتاوى الدينية :

إن مثل هؤلاء العلماء هم أعداء الإسلام ، ولا بد من أن نفضحهم وعلى عامة المسلمين أن يخرجوهم من المجتمع أذلة صاغرين ، وأن يمزقوا عمائمهم ويمنعوهم من استغلال الدين[١٤٩] .

---

(١٤٨) الحكومة الاسلامية (معربة) .

(١٤٩) الحكومة الاسلامية (معربة) .

إن آية الله الخمينى نفخ بهذه الأفكار فى الشعب الإيرانى روحًا جديدة ودعا إلى تطبيق الإسلام فى الحياة ، فلبّاه الشعب ، وبوأه هذا المنصب ليختبر حكمته وحنكته السياسية ، وتنظيمه للدولة الجديدة،وسيرى التاريخ إلى أى حد يكون ناجحاً فى أهدافه،لقد كانت مسئوليته الآن أن يضبط العواطف الانتقامية التى كانت تشب فى الشعب ضد الشاه وحاشيته ، حتى يجنب الشعب عواقب هذه العاطفة النفسية والاقتصادية والفكرية ، ويسير بالبلاد – فى وقت أقرب – نحو التقدم والازدهار ، ولكنه لم يستطع فى المرحلة الأولى ضبط هذه العواطف العنيفة ، فكان نتيجة ذلك ذهاب مئات من الشخصيات المحنكة ، أصحاب الكفاءة السياسية والإدارية والعسكرية ، وشاع فى العالم تصور الاضطهاد والقسوة والاستبداد عن الإسلام ، بدلا من تصور العفو عند المقدرة والصفح والغفران،وهذا التصور يضر بالإسلام كثيرا من الناحية الدعوية .

إن بعض الأحداث فى إيران لا سيما موقفها الشديد إزاء الرهائن الأمريكيين ، يؤكد هذه الشبهة أن السياسيين البصيرين بالعواقب والنتائج لم يستطيعوا أن يحكموا سيطرتهم على البلاد وضبطهم للأوضاع ، وإن المسيطرين الحقيقيين هم الشباب من أحداث السن العاطفيين كما أنه قد جاءت تصريحات من آية الله الخمينى عن تصوره للإمامة والأئمة ، تفيد الانتقاص من مكانة الأنبياء ، وأن الانبياء – من غير استثناء – لم يبلغوا أهدافهم ، ولم يستكملوا مقاصد بعثتهم فى هذه الدنيا . وقد أعاد الخمينى كلامه أمام وفود وسفراء الدول الإسلامية فقال : « **إن الأنبياء** [١٥٠] **لم يوفقوا فى تنفيذ مقاصدهم وأن الله سبحانه سيبعث فى آخر الزمان شخصاً يقوم بتنفيذ مسائل الانبياء** »

وقد كان هناك تسرع فى بعض الإجراءات الإصلاحية التى عكست ردود فعل سيئة ، وأتاحت الفرصة أمام أعداء الإسلام للشماتة بهم ، كما أنه لم تكن هناك مراعاة تامة لعواطف الأقلية السنية فى تطبيق الأحكام الشرعية ، الأمر الذى

---

(١٥٠) « خطاب الخمينى حول مسألة تحرير القدس ومسألة المهدى المنتظر» مركز الاعلام العالمى للثورة الاسلامية فى إيران طهران ص ٢٢ .

أدّى بعض الأحيان إلى الصدام والخصام ، ولم تعد البلاد تتميز بالوحدة كما كانت أيام الحركة الأولى ، والذين زاروا إيران بعد أن استتب الأمر للثورة الخمينية شاهدوا آثار إجراءات التسرع والتطرف ، التى قضت على كثير من شعبية زعماء الثورةوالعاطفية لإقامة الحكم الإسلامى على نهج تفكير الخمينى الخاص .

وقد وصف آية الله الخمينى لنجاحه فى الثورة وتأسيس الحكومة الإسلامية « بالإمام » فى بعض الأوساط السياسية الدينية فى العالم الإسلامى ونظرت إليه فى بعض الأوساط على أنه من نظراء الإمام حسن البنا والأستاذ المودودى – رحمهما الله – وسوف تحدد الأيام المقبلة إلى أى مدى يكون نجاحه فى الإصلاح الاجتماعى ، والفكرى وهل تنحصر جهوده فى إقامة حكومة خاصة أو ثورة ضد الحكم الطاغى أو أنها سوف تتجاوز ذلك إلى ثورة فكرية فى الشعب الإيرانى ، وتربيته تربية إسلامية ، ودعم القضايا الإسلامية فى العالم .

وقد أثيرت فى الدوائر الإسلامية تساؤلات عن موقف إيران المحايد فى قضية النضال ضد قوات الاحتلال السوفيتية فى أفغانستان ، وعدم اتخاذ إجراءات كانت تتوقع من حكومة مجاورة قامت باسم الثورة الإسلامية ، وصداقة إيران مع حكومة الأقلية النصيرية التى تضطهد الإسلاميين فى سوريا ، وسكوتها على المذابح البشرية التى تعرض لها الإسلاميون فى سوريا ، والصداقة مع النظام القائم فى ليبيا ، بينما شنت إيران حربا شعواء ضد سائر الحكومات الإسلامية ، ومنها النظم التى تسعى إلى إقامة الحكم الإسلامى ، وإصلاح المجتمع الدينى ، ما يبعث الشكوك فى حقيقة الثورة الإيرانية ، هل هى إسلامية ، أم هى ثورة سياسية تكافح نفوذ إحدى القوى العالمية .

ولم يكن قد استتب الاستقرار الداخلى فى أوضاع إيران إذ هجم عليها العراق ، وكانت قوة الدفاع الإيرانية ضعفت من قبل ، فزادت هذه الهجمة أوضاعها الاقتصادية سوءا ، ولا يمكن أن يقال الآن أن إيران كيف ومتى تتخلص من هذا الخطر وتؤدى دورها الخاص فى خريطة العالم السياسية والاجتماعية الذى قدمت لأجله تضحيات عظيمة باهظة[١٥١] .

---

(١٥١) ما جاء تحت عنوان « الثورة الاسلامية فى إيران » بقلم واضح رشيد الندوى بموافقة من المؤلف

إندونيسيا :

إن موقف الدول الإسلامية المستقلة المتحررة إزاء التجديد والتغريب ، ونزعتها العامة القوية لضرورة علمانية الدول ، واعتبار القانون الإسلامي غير صالح للتطبيق فى هذه الحياة ، والانسياق مع الأفكار الغربية وأقدارها ، موقف لايستثنى منه هذا البلد المسلم الذى يكون المسلمون فيه نسبة تسعين فى المائة من النفوس ، وبالرغم من ذلك الصراع العنيف الطويل الدامى الذى ظل عدة سنوات باسم حركة دار السلام ، وكاد أن يحتضر ويلفظ نفسه الأخير ، لاتزال الطبقة الحاكمة فيها بقيادة الرئيس الدكتور أحمد سوكارنو تسوقها إلى تقليد تركيا بتصميم دقيق وتخطيط سابق ، وقد علق المعلق الأمريكى المشهور لويس فشر (Louis Fisher) فى كتابه : (The stury of Indonesia) وصور الأوضاع فيها بلباقة ، وعبر عن تفكير الطبقة الحاكمة وعقليتها تعبيراً صحيحاً .

« إن البلد المسلم الوحيد ، غير الشيوعى (Non-Communist) الذى مر بثورة حضارية عميقة هو تركيا ، التى ألغى فيها كمال أتاتورك دين الدولة الرسمى (الإسلام) وقرر إلغاء المحاكم الشرعية والخلافة ، والحجاب ، والحرم ، واستعمال الحروف العربية ، وأصبح الزى الغربى والحروف اللاتينية فى التعليم الإجبارى العام ، وحق المرأة فى الانتخاب ، وعطلة يوم الأحد والقومية من الأمور التى نص عليها الدستور ، أما إندونيسيا فلم تكن هناك حاجة إلى تغيير أو إصلاح من مثل هذا « الاصلاحات » فقد وصلت إندونيسيا إلى هذه الدرجة من التغريب من قبل ، جمهورية أندونيسيا علمانية ولو أن دستور ١٩٤٥ و ١٩٥٠ يعلنان أن أساس هذه الجمهورية هو « الايمان بالله » ولكن الاسلام لايشترط لأى موظف فى الحكومة ولا لأكبر ضابط أو رئيس جهورية ، ولايلزم عليه أن يقسم بالله أو بمحمد ﷺ فى ولائه [١٥٢] ، وكل إنسان حر فى اعتناق أى دين والتمسك به فى ضوء الدستور .

---

(١٥٢) الكاتب الأمريكى لا يعرف أن الحلف بنبينا ﷺ غير جائز فى الإسلام .

إن هذا البلد الذى يحمل طابعاً غير إسلامى ، وغير دينى أثار على نفسه عدداً ضخماً وجيهاً من سكانه ، فشنوا على حكومته حرب العصابات Guerilla war كانت أطول الحروب فى تاريخها ، وأنفقت عليها أموالا طائلة،وليستدل لتبرير العلمانية ، بأن كثيراً من الطوائف أمثال المسيحيين والهنادك يعيشون فيها ، ولكن الدليل الحقيقى الذى لاينطق به اللسان إلا قليلا ، هو أنه لا يمكن لأى دولة عصرية أن يحكم عليها بمبادىء القرآن وتعاليمه التى أنزلت قبل ثلاثة عشر قرناً على محمد ﷺ ونقطة أخرى أنه إذا حل القرآن محل القانون يصبح علماء الدين المتزمتون لهم الحق وحدهم فى تفسيره والدفاع عنه ، وتتسم السياسة بطابع قديم يرجع إلى مئات السنين ، وإن معظم الأحزاب السياسية ، والزعماء والقادة وأهل الفكر والرأى متنورون ، ومن دعاة العلمانية التى تدعو إليها عقلية العصر الحديث ، ويعتقدون أن الجهاز العلمانى أحرى وأجدر لدولة إسلامية ، وهكذا ترى أكثرهم يفكرون على الطراز الغربى وطابعه (١٥٣) .

رد فعل غامض :

وبفضل هذا الاتجاه السافر للتجديد والتغريب والعلمانية (Secularism) كانت إندونيسيا تتقدم بخطى واسعة نحو الشيوعية بقيادة الرئيس السابق سوكارنو ، وقد حاول العنصر الشيوعى فى الجهاز الإدارى والعسكرى ، أن يتغلب على الحكم والعسكر ، ويتولى زمامها ولكنه باء بالفشل ، وظهر رد فعل عنيف فى الشعب الأندونيسى المسلم ، وخاصة فى الطلبة ضد هذه المحاولة الشنيعة ، وأدى ذلك إلى اقصاء العنصر السيوعى من

---

(١٥٣) The Story of Indonesia P. 260-261.

ثار الشعب الأندونيسى المسلم أخيراً على الاتجاه اللادينى والشيوعى الذى كان يقوده الرئيس سوكارنو ، وعدد كبير من ضباط الجيش فانتزع من الرئيس السلطة ، وأبقاه حاكما رمزيا ، وشكلت الحكومة تشكيلا جديداً ، وأقصى جزء كبير من العنصر الشيوعى ، أما سياسة الحكومة واتجاهها الفكرى ، فلا يزال فيها شىء كبير من الغموض ، والبلد يواجه اصطراعا عقائديا لا يعلم مصيره إلا الله .

الحكم والعسكر ، وإعفاء الرئيس سوكارنو من امتيازاته ومنصبه الذى كان يتقلده ، ولكن لايمكن التنبؤ بما سيؤدى إليه رد فعل الشعب الإندونيسى هذا من النتائج الإيجابية أو السلبية ، وهل سيحدث تغيير فى الخط الذى كانت تخطو عليه إندونيسيا من التجديد والتغريب أم لا ؟ ، وإلى أى مدى تتمكن النظرة الإسلامية وحركات البعث الإسلامى من انتهاز هذه الفرصة النادرة ؟

الاقطار الإسلامية المتحررة حديثاً فى طريق « التغريب » :

وأخاف أن تكون هذه قصة القادة المتجددين الثوريين ، وقصة كثير من الأقطار الشرقية التى تحررت ونالت استقلالها فى مدة قريبة ، ويظهر أن زعماءها ، وولاة الأمور فيها ، قد صمموا على تطبيق الفسلفة الفكرية الغربية – بشعبها الاقتصادية والسياسية والثقافية – وفسلفة القومية المادية فى بلدهم الإسلامى ، فهم فى حرب دائمة دامية مع الطبيعة الإسلامية العميقة الجذور الممتدة العروق ، وفى صراع مع الجهاز الاجتماعى والعلمى والخلقى ، الذى فيه الخير الكثير والقوة التى ترهب ويحسب لها الحساب . ويمكن أن تنمى وتستغل لصالح الأمة والبلاد ، وفى صراع مع المعنويات التى نشأت ورسخت فى نفوس أفراد هذه الأمة وأجيالها ، بجهود جبارة ، ودماء زكية سخية ، وإخلاص ليس له نظير ، وعلى حساب الإيمان – بالله وبالرسول وبالغيب – الذى لا يصنع فى المصانع ، ولا يولد بالخطب الرنانة ، ولا يخلقه إلا تأثير الرسل وشخصيتهم القوية ، وجهود الدعاة المخلصين من الطراز الأول ، والذى إذا فقد من الأمة لايعود بسهولة ولا يملأ فراغه شعور قومى ، أو وعى سياسى ، أو تقدم فى المعرفة والثقافة ، والذى صنع المعجزات فى القديم ، وخليق بأن يصنعها فى كل وقت وعلى حساب العاطفة الدينية التى يرجع إليها الفضل فى الفتوح والانتصارات القومية والسياسية ، وتجلت قوتها فى معركة القناة ، وتحرير الجزائر ، وتكوين دولة على أساس الإسلام والقومية الإسلامية فى شبه قارة الهند [١٥٤] لا يحلم بها عصر السياسة الوطنية والعلمانية .

وقد تبين – كالشمس فى رابعة النهار – زمن اصطدام البلدين فى شبه القارة

---

(١٥٤) وهى دولة باكستان .

الهندية فى ١٩٦٥ م أن لا ملجأ لشعب مسلم مهاجم ، يفوقه الشعب المهاجم أضعافاً مضاعفة فى العدة والعتاد وفى الغنى وسعة البلاد إلا الإيمان العميق ، والحمية الدينية والحماسة الإسلامية والحنين إلى الشهادة ، والاستهانة بالحياة والمادة، واتضح له خذلان القوى الحليفة ، وفضل الجامعة الإسلامية الدينية التى أسسها الإسلام ، وظل زعماء الإسلام من عهد السيد أحمد الشهيد إلى عهد جمال الدين الافغانى ومحمد إقبال ، يشيدون بها ويدعون إليها فكأنهم يصيحون فى واد وينفخون فى رماد .

فإذا بهذه الجامعة الاسلامية تهب من رقدتها ، وتنهض من كبوتها ، ويصبح هذا العالم الإسلامى الذى كان كبحر العروض، بحرا ولا ماء ، واسما من غير مسمى ، يصبح حقيقة ، ويقوم كثير من حلقاته بواجبها المقدس من الانتصار والدفاع ، والتجأ القادة إلى إثارة الشعور الدينى الذى استهانوا بقيمته ، وتحريك العاطفة الإسلامية ، وإشعال الجمرة الإيمانية ، « **وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه** » فصادفوا فى الشعب رغبة وإجابة وتهيؤا لذلك ، وأعاد التاريخ نفسه ، واكتشفوا قيمة الإيمان وقيمة التربية الإسلامية ، وقلة غناء التجديد والتغريب ، والتقليد الأوروبى ، فكان مبدأ انطلاق جديد ، وتحول ملموس فى التفكير والأدب والصحافة والإذاعة ، وعادت لغة الدين والإيمان ، ولغة الحديث والقرآن ، ونداء الضمير والعقيدة من جديد ، وسيطرت على جميع مجالات الحياة ، وخفت صوت التجدد المتهور ، والتقليد الغربى الأعمى ، والدعوة إلى الميوعة والاستهتار .

إنها مأساة أليمة ومهزلة تاريخية فى وقت واحد ، إنه إذا كانت هذه البلاد فى حاجة إلى التخلص من الاستعمار الأجنبى وكانت فى حاجة إلى تضحيات الشعب وجهاده وحماسته، الشعب الذى لا يعنيه شىء مثل ما يعنيه رضا الله وثواب الآخرة وسيادة الإسلام ، والذى لا يفهم لغة غير لغة الدين ، ولا يثير فيه الحماسة ولا يحرك ساكنه هتاف غيرالهتاف الدينى ، يقوم الزعماء وأبطال جهاد الحرية فى هذه البلاد فيتكلمون بلغة الدين ويدعونه إلى المغامرة والمجازفة بالحياة ، وبذل النفس واقتحام الأخطار بالشعارات الدينية ولإعلاء كلمة الله ورفع راية الإسلام ، وينتصرون على العدو القاهر ويذللون كل عقبة بفضل قوة الإيمان التى لا يوجد لها نظير فى الأمة الإسلامية على أقل تقدير ، ويرغمون خصومهم الأقوياء وأعداءهم الجبابرة على

الخضوع والاستسلام ، ولكن لا يجتازون هذه المرحلة العابرة ، ولا يأخذون زمام القيادة والسلطة ولا يملكون (على حد تعبيرهم) مصير الشعب وناصيته ، إلا ويسوقون بلادهم إلى التغريب والعلمانية (Secularism)ويبدأون عملية إصلاح الدين وإحداث التغييرات فى قانون الأحوال الشخصية وصهر البلاد فى بوتقة الغرب ، ويتظاهرون فيه بسرعة عجيبة وحرص بالغ ، ويجعل هؤلاء الذين قاموا بالتضحيات الكبيرة في هذا السبيل ، يعتقدون لعلهم أخطأوا أو جنوا على أنفسهم وبلادهم بالكفاح الذى قاموا به لأجل تحرير البلاد ، ولعل استقلال البلاد ، قد عاد وبالا وشؤماً على الحياة الإسلامية والحرية الدينية .

فمن عام ١٩٢٤ م إلى عام ١٩٦٢ م ، ومن تركيا إلى الجزائر ، قصة واحدة ذات فصول وحلقات ، لا تستثنى منها دولة إسلامية ، ونرى أن الدول العربية – بنفسها – أيضاً تتقدم إلى هذا الهدف بنفس العزم والحماسة والقوة ، وتقتفى أثر تركيا التى كانت فى زمن من الأزمان ناقمة عليها ثائرة ضدها والتى لا تزال تتظاهر باستنكارها واستيائها لسياستها حتى الآن .

تـونـس :

إن تونس فى مقدمة البلاد العربية التى نالت الحرية والاستقلال فى عام ١٩٥٧ م ، وبدأ رئيسها الأول الحبيب بورقيبة بعملية التجديد وتنفيذ الإصلاحات الكمالية فى هذا البلد العربى المسلم المتحمس ، إن تصريحاته وأحاديثه التى يدلى بها بين حين وحين إلى الصحف تدل بصراحة ووضوح أنه يريد أن يسير بهذه البلاد إلى الطريق الذى سارت عليه تركيا من قبل،وينشىء تونس الحديثة كما تملى عليه ثقافته الفرنسية ، ونقدم هنا رأى جريدة فرنسية معروفة بدقة التحرى كجريدة «**لوموند**» الباريسية تنفى وجود الاتجاه اللاديني فى الجمهورية التونسية ، ففى سلسلة تحقيقاتها عن تونس المستقلة على عتبة السنة الثالثة نجدها تنشر فى الفصل المعنون « **بين العرب والإسلام** » بتاريخ ٢٩ يناير ١٩٥٨ م .

« لقد وضع السيد الحبيب بورقيبة حداً لتعدد الزوجات[١٥٥] وللطلاق الانفرادى والاستبداد الزوجى وجعل قبول الزوجين معاً إجبارياً ، هذا التحرير العائلى يتضاعف بتحرير سياسى واجتماعى ، والنساء منذ الآن ناخبات ومنتخبات (١١ مستشارة بلدية انتخبن فى السنة الماضية) ويدخلن فى جميع الوظائف ، ويوجد من بينهن فعلا نحو مائة فى التعليم و ١٥٠٠ فى الإدارات و٧ آلاف فى المشاريع المختلفة .

إن تونس فى هذا الميدان تظهر بمظهر الأمة المرشدة ، لقد نهجت الطريق المفتوح من طرف تركيا الكمالية ، فالتطور فى تونس ذو إحساس دقيق بصفة خاصة ، فالحجاب أخذ يقل خصوصاً عند الفتيات ، وظهور الأزواج فى الأزقة أصبح أكثر عدداً ويزداد يوماً عن آخر جلوس الرجال والنساء جنباً إلى جنب فى الاجتماعات السياسية ، وفى البوادى حيث المعارضة أقوى نجد التقدم أقل سرعة .

إن بورقيبة لم يحاول أن يفرض هذا التطور ، بل إنه يفضل أن تسقط هذه « **الخرق الشنيعة** » من ذات نفسها ، وهو يدافع عن نفسه أيضاً ضد اللادينية ، وبالأحرى أن يريد الانفصال عن الإسلام ، يبذل جهده للتوفيق بين الحضارة العصرية الضرورية والتقاليد الدينية ، ويهتم بالتدليل على أن إصلاحاته إذا كانت لاتحترم دائماً النصوص الحرفية للقرآن فإنها لا تخون روحها ، وبهذا الاعتبار فإن الاتجاه التونسى أقرب لنظيره فى النظام المصرى منه للنظام الكمالى ، بل نفس المرونة ، فقد تجنب مهاجمة الجامع الكبير (الزيتونة) وجهاً لوجه ، ولكنه منذ سنتين يحدد بالتدريج دوره ومهامه ، ويفكر كما قيل لى فى تحويله إلى مجرد كلية لعلم اللاهوت فى إطار الجامعة التونسية .

هذه الإصلاحات المختارة كنماذج من بين غيرها تفصح عن نوايا جد مؤكدة لتحويل تونس إلى دولة عصرية وجميع الشباب يصادق فى هذه الناحية على عمل الرئيس ، بل إن أفراداً يجدونه شديد البطء شديد الخجل ، ولكن بورقيبة يفضل هو أيضاً احترام « المراحل »، ومع ذلك فمن رأى بعضهم أن « التحضير » (اقتباس

---

(١٥٥) كان ذلك فى عام ١٩٥٨ م ثم منع تعدد الزوجات بتاتاً .

الحضارة) لا يعنى بالضرورة « التغرب » (التحول غربياً) ويقولون لماذا نرتبط بهذه الشهرة مع الغرب ، ونعلن ذلك بهذا التكرار ؟ . وهكذا فإن اتجاهاً يتكون حالياً عند بعض المثقفين لفائدة نوع من الإصلاح والحياة والحياد على الطريقة المصرية [١٥٦] » .

وقد ذكر جوزف شاخت (Schacht) فى مقالة نشرت له حديثاً تحت عنوان « **قضايا الفقه الإسلامى الحديث** » هذا الشوط الذى قطعته تونس فى مجال التجدد والتغرب ، وذلك فى صراحة ووضوح ، إنه يقول :

« ..وأخيراً قبلت تونس قانون ١٩٥٦ م وأثبتت أنها فى مقدمة البلاد آمنت بتغيير الفقه الإسلامى ، فأُلغيت أولا الأوقاف العامة ، ووضعت أملاكها وميزانيتها تحت تصرف الحكومة،وكان هذا القرار أهم بكثير من إلغاء الأوقاف فى سوريا ومصر من وجهة النظر القانونية ، وألغيت المحاكم الشرعية اقتداء بالقانون المصرى فى السنة الماضية ، ونفذ قانون آخر للأحوال الشخصية بعنوان « **مجلة الأحوال الشخصية** » (Tunisian Code of Personal Status) وقد زعمت وزارة العدلية بتونس أن هذا القانون نال إعجاب كبار رجال القانون الإسلامى ، ومع أن هذا القانون أبقى على بعض القضايا التى هى إسلامية فى صميمها مثل المهر ، وتحريم النكاح على أساس الرضاع ، ومع أنها تتفق مع أحد المذهبين الفقهيين المعتمد عليهما فى تونس ، إلا أن القول بأنه صورة القانون الاسلامى فى المحاكم الشرعية قديماً مع بعض التغيير والتعديل استناداً إلى تأويل بعيد لا يصح ، وقد أفتى بعض كبار علماء هذه المحاكم من الطراز الأول ضد هذا القانون ، واستقال أربعة منهم (ومنهم مفتى المذهب المالكى الأكبر ومفتى المذهب الحنفى الأكبر) من المحكمة العليا (Tribunal Siperior) احتجاجاً ضد هذا الإجراء ، صحيح أن الجزء الذى يتعلق بقانون المواريث هو على حالته لم يغير فيه مطلقاً – ولعل السبب فى ذلك أن هذا القانون كان صالحاً للأوضاع الاجتماعية فى تونس ومطالبها حتى الآن – أما أحكام النكاح والطلاق فإنها مسخت مسخاً شديداً ، حتى لم يعرف شكلها الصحيح ، فمثلا

---

(١٥٦) المغرب المسلم ضد اللادينية : لادريس الكتانى ص ٩٥ – ٩٦

منع تعدد الزوجات واعتباره جناية تستحق عقوبة ، النكاح لا يعقد إلا برضا الفريقين ، الطلاق لا يقع إلا بواسطة المحكمة ، وذلك فى ثلاث نقاط :

أ – أن يكون طلب الطلاق على الشروط التى ذكرت فى القانون .

ب – أن يكون الفريقان متوافقين على الطلاق .

ج – أما إذا طلبه فريق واحد ، فيعين القاضى الغرم الذى يدفعه ذلك الفريق إلى الفريق الآخر .

وهكذا لم تجعل المرأة متساوية بالرجل فى الطلاق والزواج أمراً أساسياً فحسب ، بل فى شئون الملكية أيضاً التى تتبع النكاح ، إنه بعيد أن يكون لواضعى هذا القانون اطلاع على أفكاره خد ابخش، ولكن مما لا شك فيه أن القانون التونسى تأثر بمثل هذه الأفكار والنزعات ، ومهما زعم أهل الحل والعقد فى تونس ، فإن قانونهم الشخصى يختلف عن القانون الإسلامى التقليدى ، كما يختلف عنه القانون العلمانى ..فى تركيا ، تماماً [(١٥٧)] » .

يتضح من تصرفات الرئيس التونسى وبياناته أن رحلته الثقافية (التى بدأت بتشابه دقيق مع الأفكار التى يلقنها دعاة الحضارة الغربية والإرساليون المسيحيون والمستشرقون) تستمر وتقطع أشواطاً بعيدة ، وأنه قد وصل الآن إلى مرحلة يصعب عليه التزام التعريض والكناية وقد بدأ يعرب عن أفكاره بتصريح بدون أى حذر وتحفظ ، بل يتعدى أحياناً إلى تجرؤ شنيع ، ويدل على ذلك تصريحاته التى أثارت ضجة فى العالم الإسلامى ، والتى أدلى بها فى مؤتمر المدرسين والمربين لمناسبة « **الملتقى الدولى حول الثقافة الذاتية والوعى** » المنعقد فى تونس فى مارس ١٩٧٤ م وقد نشرت الصحف التونسية تصريحات الرئيس ، بحذف فقرات كانت أكثر تهجما على الإسلام ، وشخصية النبى ﷺ كما حذفت وسائل الإعلام الرسمية الفقرات النافرة .

---

(١٥٧) مقالة شاخت بعنوان Problems of Modern Islamic Legistion ترجمة الأستاذ فضل الرحمن الأنصارى ملحقاً فى مجالة « برهان » ديسمبر ١٩٦٣ .

نشرت صحيفة « **الشهاب** » الصادرة من بيروت فى عددها الأول للسنة السابعة ، الصادر فى ١٥ نيسان ١٩٧٤ م هذه الفقرات المحذوفة :

١ – إن فى القرآن تناقضاً لم يعد يقبله العقل بين « **قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا** » ...« **وأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** » (١٥٨) .

٢ – الرسول محمد كان إنساناً بسيطا يسافر كثيراً عبر الصحراء العربية ويستمع إلى الخرافات البسيطة السائدة فى ذلك الوقت ، وقد نقل تلك الخرافات إلى القرآن ، مثال ذلك ، عصا موسى ، وهذا شيء لا يقبله العقل بعد اكتشاف باستور ، وقصة أهل الكهف (١٥٩) .

٣ – إن المسلمين وصلوا إلى تأليه الرسول محمد ، فهم دائماً يكررون **محمد ﷺ ، الله يصلى على محمد ، وهذا تأليه لمحمد** (١٦٠)

هذا ما نقلته الصحف الإسلامية من التصريحات التى حذفتها الصحف الرسمية ، ولكن ما نشرته جريدة « **الصباح** » التونسية فعلا والتى نالت موافقة الحكومة ، لا تبرىء الرئيس ، ولا تخفف من شناعة فكره ونورد هنا ما نقلته الجريدة حرفياً :

---

(١٥٨) إن التناقض الذى أوجده الرئيس بين الآيتين يرجع إلى جهله للغة العربية (لأنه تلقى تعليمه من فرنسا) وإما إلى عدم تمكنه من دراسة القران الكريم وتفسيره ، ولو أنه كان قد راجع أى عالم عادى للدراسات الاسلامية لما وقع فى مثل هذه الورطة .

(١٥٩) إن هذه التهمة أيضا تكشف عن جهل الرئيس أو عن الاضطراب الفكرى الذى لا يستغرب فى الطبقات المتعلمة خلال النصف الأخير من القرن التاسع عشر حيث لم تكن البحوث التاريخية والعلم قد أحرزت تقدماً كبيراً ، ولكن لا مبرر لمثل هذه الدعاوى الآن فى العصر الحديث ، ويدل ذلك على أى حال من الأحوال على أن الرئيس بورقيبة يعتبر القرآن كتاباً من تأليف النبى ﷺ ولا يعتبره كتابا منزلا .

(١٦٠) وهو دليل آخر على جهل الرئيس ، وحرصه على إصدار حكم على أى موضوع بدون أن يهتم باجراء تحقيق فيه ، فما هى العلاقة بين الصلاة والتبريك والدعاء وبين التأليه إن مثل هذه الأدعية توجد فى جميع الكتب السماوية ، بل فى سائر الكتب الدينية .

« هناك أمور أخرى مثل قصة عصا موسى التى ألقى بها فإذا هى حية تسعى ، وقد كان الإيمان بأن الحياة يمكن أن تخرج من الجماد سائداً فى أوروبا أيضاً ، ولكنه انقرض تماماً منذ عهد باستور ، ومن هذه الأساطير التى ظلت موضع إيمان الناس فى البلاد العربية دهراً قصة أهل الكهف ، الذين لبثوا رقوداً مئات السنين ثم انبعثت فيهم الحياة[١٦١] » .

إننا لا نريد أن نعلق على هذه التصريحات هنا ، لأنها لا تستحق ذلك ، وكل ما يتضح من هذه البيانات أن الرئيس بورقيبة يعانى من مركب النقص والتبعية الفكرية ، فانه لم يدرس أى علم من العلوم الإسلامية فى الوقت الذى لم يستطع فيه أن يفهم كليا الاعتراضات والشكوك التى أثارها الناقدون ، أما المسأله التى يجب أن تكون موضع الاهتمام فهى أن الشخص الذى يحمل مثل هذه الأفكار المعادية للإسلام هل يبقى فى حظيرة الإسلام ، وهل يتمتع بحق ليحكم بلداً إسلاميا ذا أغلبية إسلامية ؟

إن رد الفعل العنيف الذى أثارته تصريحات الرئيس فى الدوائر الإسلامية والأوساط الدينية فى سائر أنحاء العالم يحمل خير رد على هذا السؤال[١٦٢] .

بالإضافة إلى الاعتراضات الثلاثة التى ظهرت فى بيان الرئيس ، تدل الأفكار التى أعرب عنها الرئيس على حياة النبى ﷺ والعقائد الإسلامية وطرق العبادة ، على أنه لا يختلف مع المبادىء الاساسية للاسلام والشريعة فحسب ، بل إنه يريد أيضا أن يقود مسلمى تونس إلى نفس الجهة ويثير شكوكاً وريباً فى قلوبهم ، وليس من العسير إذن أن يعلم إلى أى جهة تسير تونس التى أنجبت عدداً من أعلام الفكر الاسلامى ،

---

(١٦١) جريدة « الصباح » التونسية ، ٢٠/٢١ آذار ، مارس ١٩٧٤ م .

(١٦٢) عقد المجلس الاستشارى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة بعد وصول هذه التقارير ، اشترك فيه كبار العلماء والباحثين من العالم العربى والعالم الاسلامى من أندونسيا إلى مراكش ، اشترك فيه المؤلف أيضا ، كعضو للمجلس الاستشارى ، وأرسل احتجاجا شديد اللهجة إلى الرئيس بورقيبة أعرب فيه أعضاء المجلس الاستشارى عن قلقهم العميق بأفكاره وتضمن الاحتجاج إشارات إلى أن الذى يحمل مثل هذه الآراء لا يعتبر مسلما ، واحتج على هذه التصريحات عدد كبير من الصحف الاسلامية أيضاً وعلقت عليها .

والبحوث الاسلامية ، مثل ابن خلدون ، والذى يزخر بأمثاله التاريخ الاسلامى وإننا نعلم أن عملية تحويل تونس إلى بلد متحضر بالحضارة الغربية ، قد بدأت بطاقة وحماسة بالغتين بعد استنكار الدوائر الاسلامية لخطاب الرئيس بورقيبة .

الجـزائـر

الجزائر التى دفعت ضريبة الحرية بتضحية مليون نسمة ، وكان السر فى هذه التضحية والثبات (الذى لا يوجد له نظير فى العصر الحديث) حب الشهادة والحنين إلى الجهاد . وكانت وكالات الأنباء الغربية تعبر عنهم – أى الجزائريين – بكلمةالمسلمين فحسب فى أخبار معاركهم وكفاحهم ، وهذه الجزائر المجاهدة تعانى نفس المشلكة وتمر بنفس التجربة التى مرت بها الدول الإسلامية التى يتزعمها قادة التجدد والتغريب فى هذه البلاد ، فقد أصبح زعماء الجزائر يسوقون بلادهم نحو مادية اشتراكية علمانية ونحو الحضاة الغربية رغم عاطفة الشعوب الدينية والآمال التى عقدتها العناصر الإسلامية (١٦٣) .

نستطيع أن نتمثل هذه الأوضاع التى تحتج عليها روح الجزائر الإسلامية ودماء الشهداء بتصريح من علماء الجزائر وصل إلينا بطريق صحيفة يهودية **جويش أوبزرفر** (Jewish Observer) الصادرة من لندن . نشرت هذه الصحيفة فى عددها الصادر فى ٣١ أغسطس ١٩٦٢ م لمراسلها فى الجزائر تحت عنوان « **حكم الإسلام لابد أن يسود** » ما تلى ترجمته :

« أعلن القادة المسلمون الدينيون هنا أن « الإسلام واللغة العربية » لا بد أن يسودا الجزائر الجديدة ، وهاجم علماء الجزائر فى بيان لهم القادة القوميين الذين ينادون بدولة جزائرية اشتراكية يعزل الدين فيها عن التدخل فى شئون الدولة .

---

(١٦٣) نشرت الصحف الانجليزية الصادرة من الهند هذا الخبر فى ٥إبريل ١٩٦٢ م أن الأستاذ بكر ممثل الجزائر فى الهند صرح فى مؤتمر صحفى هناك ، أن الجزائر الحرة ستكون دولة علمانية ديمقراطية ، أما ثقافتها فتكون عربية إسلامية ..

لقد أعلن بيان العلماء أن الثورة الجزائرية تكون قد خانت شهداءها الذين سقطوا فى الميدان وفشلت فى رسالتها التاريخية إن لم يكن الإسلام دين الدولة واللغة العربية لغتها الرسمية : إن اتفاقية « **افيان** » لوقف القتال تنص على أن دستور الجزائر فى المستقبل لا بد أن يتضمن حرية الأديان وأن تكون اللغتان العربية والفرنسية هما اللغتان الرسميتان فى الدولة ، وأن الدستور سيرسم خطوطه الجمعية العمومية التى كان مفروضاً أن تجتمع يوم ٩ سبتمر بعد أن تأجل انعقاد جلستها عدة مرات ، ولكن انعقادها حتى بهذا التاريخ قد أجل بسبب التوتر المستمر فى العلاقات بين قادة الجيش والقادة السياسيين ، ولكن هاهم العلماء الجزائريون الآن ولأول مرة ، فى تصريح عام لهم ، منذ انتهى الحكم الفرنسى يعلنون أن الاستقلال والتنمية المادية للاقتصاد ليسا كافيين كى يكونا هما غاية الثورة الجزائرية ، وذكر بيانهم : « **أن لكل أمة مستقلة شخصية ، وإلا تشابهت الأمم كالسمك فى الماء ، الجزائريون والفرنسيون والإسبانيون و ... ومعنى ذلك أن نصبح دولة مفتوحة للعالمية الواسعة ، ونحن نعارض كل هذا ... نحن جزائريون ولنا شخصيتنا الوطنية المستقلة، يقضى بذلك ديننا الإسلامى ولغتنا وتقاليدنا وتاريخنا** » ووصف بيان العلماء محاولة البعض فى فصل الاسلام عن الدولة بأنه «**تنكر لمبادىء ثورتنا ، وهجوم على الإسلام فى هذه الأمة المسلمة ، وانتهاك لحرية هذا الشعب كله**[١٦٤] » .

إن هذه الدول العربية المستقلة وزعماءها القوميين لايزالون يبدون رغبتهم فى الإسلام وصلتهم به بين حين وآخر ، إنهم لايجهلون أن الإسلام لا يزال رابطة وحيدة قوية بينهم وبين الشعب ، وإنهم لا يستطيعون أن يحكموا الملايين إلا باسمه ولافتته ، ولكن مفهوم الاسلام عندهم يختلف كلياً عن ذلك المفهوم الذى يحمله المسلمون المتمسكون بدينهم ، إنهم يريدون بالاسلام ديناً مر بمرحلة الاصلاح والتطور (Reformed) يتلاءم مع الحضارة الغربية وقيمها وأقدارها ، ويصلح لقومياتهم ووطنياتهم ، ويحصر فى إطار العقائد والأخلاق ، فلا يتدخل فى وضع الدستور وشئون الدولة ومصالحها .

---

(١٦٤) المسلمون ، العدد التاسع ، جمادى الأولى ١٣٨٢ أكتوبر ١٩٦٢ م

واعتقد أن رأى كاتب لبنانى هو الدكتور سالم ليس من المبالغة وتهويل الواقع فى شيء إذن كتب فى صحيفة أمريكية مشهورة (Muslim World) تحت عنوان : Nationalism and Islam) .

إن القومية قد توافقت مع الإسلام لتحقيق هذا الهدف ، ولكن الإسلام الذى تعنيه القومية ليس هو الإسلام القديم والجاف ، بل إنه إسلام عصرى جديد مر بمرحلة التطوير والإصلاح ، موضة عصرية تزيت بزى الإسلام فقط ، لا شك أن اسم محمد ﷺ والقرآن يتردد على الألسن ، ولكن ليكون ذلك مبرراً لكل ما يعمله القوميون ، إن القومية العربية حققت كل هذه الانتصارات بتمسكها بالإسلام ، ونستطيع أن نقول إلى حد كبير أن القومية العربية لا تدخر وسعاً فى استغلال الإسلام استغلالا كاملا لتكوين أمة عربية جديدة ، إن الزعماء القوميين يحققون انتصاراً باهراً بهذا المزج بين القومية والإسلامية والإسلامية [١٦٥] » .

الاشتراكية والولاء لها :

يمتاز رئيس الجزائر الحالى هوارى بومدين بين أقرانه من القادة العرب فى الولاء للاشتراكية ، والاستعطاف من الاتحاد السوفياتى فى مجال السياسة والحكم ، وحينما وقف الاتحاد السوفيتى من حرب حزيران الماضية موقفاً لم يكن يتوقعه منه الشعب العربى الذى شعر بعجزه واستكانته فى ذلك الوقت وعمت موجة السخط واليأس من الاتحاد السوفياتى فى الدول العربية التى كان لها اتجاه خاص نحو الاشتراكية ، وبدأ اعتقاد الناس يضعف بإخلاص الاتحاد السوفياتى وولائه لهم قام الرئيس هوارى بومدين بدور كبير فى إعادة ثقة هذه الدول العربية والشعب العربى بالاتحاد السوفياتى ، ودعم العلاقات معه من جديد .

وقد أصيبت بعض الأقطار فى آسيا وفى أفريقيا ، التى دخلت حديثاً فى حلبة التقدمية أو الاشتراكية ، بنوبة عصبية عنيفة فى تغيير معالم الإسلام والسير بهذه

---

(١٦٥) مقالة (Nationalism and Islaı) فى مجلة (Muslim world) عدد أكتوبر ١٩٦٢ م

البلاد إلى العلمانية والاشتراكية ، بخطى سريعة متهورة ، حتى تعدت فى ذلك بعض الأوقات مبادىء حقوق الانسان ، والمبادىء الجمهورية البسيطة الأولية ، وظهرت من قادتها فى بعض الأحيان قسوة يندر نظيرها فى هذا العصر المتحضر ، وقد نقلت

روايات انتهاك الحرمات الاسلامية وإهانة علماء الدين ، والاستخفاف بالشعائر الاسلامية عن جمهورية جنوب اليمن الشعبية ، تشمئز منها النفوس ، وتقشعر منها الجلود .

كذلك أذاعت وكالات الأنباء ، وبعض الصحف الأوربية ، أن جمعاً من العلماء (يبلغ عددهم عشرة) قتلوا حرقا فى الصومال ، لأنهم عارضوا بعض الأحكام الرسمية الجديدة التى تتعارض مع النصوص القرآنية ، والمقررات الاسلامية ، كالمساواة بين المرأة والرجل فى التركة ، وحق الطلاق وغيره .

ليبيا :

إن بلد ليبيا المعروف الواقع فى شمال أفريقيا – الذى تتاخم حدوده فى الشرق حدود مصر والسودان ، وفى الجنوب حدود تشادو نيجيريا وفى المغرب حدود الجزائر وتونس – بدأ يبرز ويحمل أهمية كبيرة منذ سنوات قليلة بسبب الإنتاج الغنى للنفط .

وكان سيدى الشريف محمد بن على السنوسى(١٧٩١ – ١٨٥٩) العالم الربانى والمجاهد الكبير – أقام بليبيا عام ١٨٤٣ م لنشر الدعوة الاسلامية ، والتعليم والتربية الروحية ، وقد انتشر الاسلام على يديه انتشاراً واسعا فى ربوع السودان ، والصحراء الكبرى وغرب أفريقيا وتربى على يديه الآلاف من المسلمين وتغيرت أحوالهم . وحسن إسلامهم . واتسعت دائرة دعوته وحركته الجهادية بسرعة كبيرة ، وامتدت فى ليبيا وأواسط أفريقيا .

وتوفى السيد محمد السنوسى عام ١٨٥٩ م فخلفه ابنه العظيم سيدى مهدى السنوسى الذى جمع بين التربية الدينية الروحية والتربية البدنية الرياضية ، ومجاهدة النفس وجهاد الأعداء حسب التعاليم الإسلامية الصحيحة واقتفاء لآثار الرعيل الأول

من الصحابة الكرام رضى الله عنهم – فحول بسعة أفقه وجمعه بين العلم النافع والعمل الصالح، الصحارى والقفار إلى حدائق غناء والرباطات الروحية إلى مجالس علمية ، ومدارس فكرية ، وحول طلاب العلم الهادئين والمسترشدين والسالكين إلى مجاهدين مستميتين ، ومقاتلين عن الدين ، وبلغت حركته فى أيام ابن أخيه سيدى أحمد الشريف – الذى عرف فى العالم كله باسم الإمام السنوسى – أوجها وذروة تقدمها ، واضطر إيطاليا واوربا فى حرب برقة وطرابلس إلى الاعتراف بقوته وقوة أصحابه من المجاهدين وشجاعتهم واستقامتهم وصبرهم ، وكفاءتهم القيادية ، فقد بقى المجاهدون السنوسيون طوال ١٣عاما كاملا يقفون وجها لوجه إزاء السلطنة الإيطالية المحكمة الواسعة ، حتى أجبروها على الجلاء من ليبيا وتوفى سيدى أحمد الشريف فى المدينة المنورة عام ١٣٥١ هـ الموافق عام ١٩٣٢ م .[١٦٦]

وفى سنة ١٩٥١ م نالت ليبيا الاستقلال الكامل واختير سيدى محمد إدريس السنوسى – الذى كان ابن السيد مهدى وابن عم الإمام السنوسى – عام ١٩٥٢ م أول رئيس للحكومة الجديدة .

وكان يغلب الشعب الليبى الطابع الدينى بفضل جهود المشايخ السنوسيين وتربيتهم الروحية ، ودعوتهم وجهادهم فكان أساس الدين بفضل هذه الدعوة راسخ الجذور بحيث لم تكن تستطيع أى قيادة أن تقتلعه وتهدمه ولذلك بقى الشعب الليبى رغم اكتشاف البترول بعيدا إلى حد كبير عن تأثره العميق بالحياة الصناعية والمدنية الغربية .

وحدث انقلاب عسكرى فى ليبيا عام ١٩٦٩م وتولى بعده العقيد معمر القذافى الذى كان ابن ٣٧ سنة آنذاك – زمام القيادة فى البلاد كرئيس لمجلس الثورة الليبى

---

(١٦٦) يراجع للاطلاع على جهود السنوسيين وجهادهم ، ولاسيما مآثر سيدى احمد الشريف وشخصيته المؤثرة الحبيبة ، مقال الأمير شكيب ارسلان ، بعنوان سيدى أحمد والسنوسية « فى كتابه حاضر العالم الإسلامى » ج/٢ ، وكتاب السنوسية دين ودولة « لمحمد فؤاد شكرى »

وقد وضع العقيد القذافى أساس حكومته الثورية على القومية العربية ، والتحرر المطلق من العبودية للغرب ، وألغى الاتفاقيات حول القواعد العسكرية مع أمريكا وبريطانيا ، وعين الاخصائيين الموجودين فى البلدان العربية مكان الاخصائيين الغربيين ، وأصدر أوامر لنشر اللغة العربية ، وترويجها ورفع مكانتها ، وحظر الخمور ونفذ بعض الحدود الشرعية .

وقيد حرية الارساليات التنصيرية ، ليقضى عن طريق ذلك على تأثير المسيحيين الذى اتسع نطاقه فى عهد الحكومة الإيطالية والبريطانية ، واتخذ إجراءات مهمة لتدعيم القوة العسكرية فى ليبيا ، وأبرم اتفاقيات مع روسيا وفرنسا وأقام لنشر التعليم ومحو الأمية ، مؤسسات تعليمية ، وفتح مدارس ليلية لتعليم البالغين .

واهتمت الصحافة الغربية بالعقيد القذافى لهذه الإجراءات الإصلاحية والنزعات الدينية فى بداية الأمر اهتماما خاصا ، وعرضته هذه الصحافة كزعيم دينى متعصب ، وقامت الدعايات والهتافات بأنه يقود حركة التجديد الإسلامية .

ومن العجيب أن إجراءات القذافى ضد المسيحيين وإلغاءه للمعاهدات مع الدول الغربية كبريطانيا وأمريكا ، لم تثر استنكار الصحافة الغربية وسخطها ، بل بالعكس من ذلك أدت هذه الصحافة دورا مهما فى إبراز شخصيته والاهتمام به فى الأوساط الدينية حتى لقبه بعض الكتاب فى الصحف الغربية بأنه محمد هذا العصر.

وكان العقيد القذافى – لعدم اتزانه من بدايته لأسباب طبيعية ، واجراءاته المتطرفة موضع الاهتمام فى الصحافة الغربية ، واتسع نطاق أفكاره الثورية لعلاقته بالمستشرقين وامتد من مجال السياسة إلى مجال الفكر الدينى ، وحضر لأجل ذلك المؤتمرات العالمية ، وشارك فى الحوار بين المسيحيين و المسلمين لرغبته الزائدة المزعومة فى إحياء حركة الإسلام ، وقيادتها المزعومة .

ويقدر من إجراءاته المختلفة فى مجال السياسة بمناسبات عديدة ، أنه رجل غير متزن ، ومصاب بالاضطراب الفكرى ، وقد دخلت ليبيا عام ١٩٧١ م فى الوحدة مع مصر والشام ، كما قامت وحدة كلية بين مصر وليبيا عام ١٩٧٣ م على طلب من القذافى نفسه .

وظهرت آراء القذافى فى جمال عبد الناصر حين اتخذ محمد أنور السادات اجراءات ضد بعض المنظمات والمشروعات التى كانت فى العهد السابق ونشرت مقالات فى الصحافة المصرية تعارض سياسة عبد الناصر وأبعد رجال كانوا من خاصته، وهنالك انبرى القذافى يتظاهر بحبه وولائه لعبد الناصر ، وانتمائه إليه ، وتلمذته له ، وفى الحرب الأخيرة بين مصر وإسرائيل ظهر الخلاف شديدا بين البلدين وخففت الرقابة الشديدة فى مصر بعد عبد الناصر على الإخوان المسلمين وعلى نشر الكتب الإسلامية ، ففرضت رقابة شديدة فى ليبيا على الكتب الإسلامية لا سيما الكتب الحركية الدعوية .

وتوثقت العلاقات بين ليبيا وروسيا بعد حرب مصر وإسرائيل وتمركز الروس فى ليبيا بدلا من مصر . .

لقد كان الطابع الغالب على فكر القذافى طابعاً ثورياً ، وكل ما اتخذ من إجراءات كانت متسمة بروح الثورة ، وإنه أحس فى العالم العربى بعد رحيل جمال عبد الناصر بالفراغ ورأى أنه لا يسدّ هذا الفراغ إلا هو نفسه ، فدأب للوصول إلى هذا الهدف ولايزال .

و قد قدر العقيد القذافى من أول يوم أن هذا العصر عصر النهضة الاسلامية فتصور نفسه قائد هذه النهضة ، ولكنه – لعقليته الثورية ، وفقدانه للتربية والتعليم ، وبتأثير الأفكار الغربية التى نشأ فى أحضانها ، وثروة ليبيا وأهميتها السياسية والجغرافية والاقتصادية ولثقته الزائدة بنفسه ، بدأ يظن أن الإسلام الذى هو عبارة عن كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ لايقدر على مسايرة هذا العصر فحاول لأجل ذلك أن يصهر الإسلام فى قالبه الثورى ، ليظهر على العالم بطبعة جديدة للاسلام تساير النظام الغربى فى هذا العصر مسايرة تامة ، ولأجل هذه المحاولة الثورية لقبه بعض المفكرين الغربيين « **بنبى هذا العصر** » وبعض المسلمين الثوريين « **بمفكر هذا العصر** » .

وأخذ العقيد القذافى ببعض المبادىء الغربية الرأسمالية وببعض المبادىء الاشتراكية وأعطى للأجانب حرية مطلقة فى سبيل تحويل ليبيا بلداً صناعيا لغلبة التصور الصناعى للحياة عليه ، الأمر الذى أدّى إلى زيادة عدد السكان من

الأجانب بغض النظر عن دياناتهم وأفكارهم ، وتأثرت بذلك الحياة الاجتماعية فى ليبيا تأثراً بالغاً وكان ذلك ثمرة تهوره وتسرعه ، وعقليته الدكتاتورية .

وتولى القذافى بعد عبد الناصر مسئولية الفكرة الثورية ، فى مختلف الأقطار الإسلامية ومساندة النزعات المناوئة والاتجاهات المضادة للحكومات القائمة فيه، وحاول التوفيق بين الرأسمالية والاشتراكية ، وبين الدين والمدنية الغربية والنظريات الغربية ، وأدلى بتصريحات وبيانات كانت معارضة للمبادىء الإسلامية المتفق عليها بين جميع الأمة وتفيد بعض تصريحاته أنه يريد حصر الإسلام فى مفهوم العبادات الضيق ، وأن تصوره للعبادة والحياة يقرب كثيرا من تصور حبيب بورقيبة – رئيس تونس – الذى تولد نتيجة الشبهات والشكوك التى ألقاها إليهم المستشرقون المغرضون . .

وقد كان الحبيب بورقيبة أبدى شكوكه وشبهاته حول القرآن الكريم ، وكشف عن آراء خاصة حول الصلاة والصوم ومواعيدهما والحاجة إليهما كانت تعارض الأصول والمبادىء الاسلامية المعروفة لدى جميع المسلمين على خط سواء .

أما معمر القذافى فانه اختار الحديث النبوى الشريف لحملته ومؤامرته فهو يرى أن من الواجب حصر دائرة الحديث فى نظام العبادات المحدود ، أما الأحاديث الأخرى التى تتناول مختلف مجالات الحياة الانسانية فلا يمكن – عنده – تطبيقها على الحياة المعاصرة ، ولاشك أن القذافى يريد بذلك حصر الإسلام فى العبادات المحدودة ، ليقطع صلة الاسلام المستمرة بالحياة كالنصرانية ، وقد أبدى بعض آرائه فى مجلس ضم عددا من العلماء والمفكرين المسلمين حول الحديث الشريف وأثارت الاستنكار والاحتجاج فى الأوساط الاسلامية كلها وليست آراؤه فى مجال تؤدى إلى إنكار حجيته فحسب بل إنها تؤدى إلى انحراف كامل عن طاعة رسول الله ﷺ ونبذ للسنة المطهرة إطلاقاً .

إنه زعم فى حديثه مع وفدالعلماء أن صحة الأحاديث مشكوك فيها ، لأن كثيرا من الأحاديث المكذوبة المزورة نسبت إلى الرسول ﷺ فى عهد تدوين السنة ، كما أنه حاول الكشف عن التعارض فى الأحاديث النبوية مثل محاولة الحبيب بورقيبة لبيان التعارض فى القرآن الحكيم ، وصرح أيضا بأن جل أقوال الرسول – إنما هى

وحى بيئته وعصره وقد تغيرت الأوضاع والظروف ، فلا سبيل إلى تطبيقها فى الأمور الدنيوية فى هذا العصر ، وهذا هو معنى « **أنتم أعلم بامور دنياكم** » عنده .

ويرى القذافى أنه لايصح بناء الأعمال على أساس السنة ، إذ أنه من المتعذر الحكم على حديث ما بأنه صحيح أو موضوع ، فلا بد من الاقتصار على القرآن الكريم .

ولما تحدث القذافى بآرائه مع العلماء ، أصر على موقفه وآرائه ، ولم يسمع إلى أدلتهم ، وتفيد بعض التقارير الصحفية أنه هدّد العلماء قائلا : إنهم إذا وقفوا حجر عثرة فى طريق هذه الخطوات الاصلاحية ، **فسوف** يعاملهم معاملة مصطفى كمال . وصرح فى حديثه هذا بأن مصطفى كمال كان على حق وصواب فى إجراءاته ويبدو تأثره وخضوعه - فكريا لمصطفى كمال واضحا فى حديثه مع العلماء أما تلمذته لجمال عبد الناصر ، **فيصرح** بها بين آونة وأخرى ، كما لا تخفى صلته الفكرية مع الحبيب بورقيبة فى آرائه عن العبادات الإسلامية ونظام الحياة الدينى ، يتضح من كل ذلك أن هؤلاء حلقات من سلسلة واحدة وتلاميذ مدرسة واحدة،وقد صرح بآرائه فى كتابه الذى سماه **الكتاب الأخضر** الذى يعالج القضايا الاقتصادية والاجتماعية ، والسياسية من وجهة نظره الخاصة . .

وقد قام وفد من جماعة « **حزب التحرير** » المعروفة بمقابلته وحاول إقناعه وتصحيح أخطائه ، كما قابله وفد من رابطة العالم الاسلامى يضم كبار العلماء المسلمين الممثلين عن مختلف البلدان الإسلامية ، وتحدث معه فى هذه القضية ولكن بقى وموقفه كما كان ، ولم تحدث هذه المقابلات أى تغيير .

وقد قال القذافى لوفد رابطة العالم الاسلامى أنه يقر بالسنة العملية المتعلقة بالصلاة والصوم والحج ، أما الأحاديث الأخرى التى جاءت فى الأبواب الأخر ، فلا يقر منها إلّا ما صح لديه ، وبما يوافق العقل ، وأفاض الوفد فى بيان حجية الأحاديث ، وما هو الصحيح منها ، وإنها بيان للقرآن ، وتشمل الحياة كلها ولابد من تطبيق القرآن ، وألحّوا عليه بأن يرجع عن آرائه ، ويعلن توبته ، فقال لهم : إنه سيوضح آراءه فى كتاب مستقل ، ويتناول هذا الموضوع بتفصيل . .

إنكار التقويم الإسلامى :

وبعد معارضته لجمهور المسلمين فى شأن الحديث أبدى فى خطبة له بمناسبة افتتاح العام الهجرى الجديد ، إنكاره للتقويم الهجرى ، وأن ابتداءه بحادث الهجرة ، خطأ ، فإن حادث وفاة الرسول – ﷺ كان أكبر حدث ، فينبغى البدء فى التقويم بيوم وفاته – ﷺ ورغم محاولة العلماء إقناعه ، أصر على رأيه ، ونشر تقويما جديداً ، يبدأ بوفاة الرسول – ﷺ (١٦٧) .

وتفيد بعض التصرحيات الصحفية أنه قام بتعديلات فى طريقة الصلاة وتلاوة القرآن كذلك ، مصادمة لجميع النصوص الثابتة والمسلمات البديهية وقد صرح بهذه التعديلات الجديدة فى عدد من خطاباته ، وهذا يدل دلالة قاطعة على أن مرجعه فى هذه الآراء والنظريات كلها المستشرقون الحاقدون وأعداء الإسلام المغرضون ، أو أن عقليته نشأت – هذه النشأة المنحرفة التى تختلق هذه الآراء المشبوهة الشاذة وتدعو إلى هذا « **التجدد** » الماحق للدين .

ليبيا والمغرب :

ليبيا والمغرب بلدان عربيان يسكنهما المسلمون مائة فى المائة، وقد نالا الاستقلال ، وتأسست الحكومة فيهما على الدعوة الدينية والجهاد فى سبيل الله ، والتضحية والاستماتة ، فى سبيل الإسلام ، وأرست دعائم الحكومة فى كلا البلدين ، أسر شريفة عريقة فى العلم والفضل ، كانت لها مراكز دعوية تربوية روحية ، وكان المسلمون فى هذين البلدين – عرباً وبرابرة – ينظرون إليهما نظرة احترام وإكبار ، ويرونها زعيمة بلادهم السياسية ، ويعتقدون فيها اعتقادهم فى القادة الروحيين والسادة فى الدين ، وقد حكمت المغرب أسرة سيدى إدريس وسيدى على الشريف مئات السنين ، واستطاعت ليبيا بفضل جهود سيدى أحمد الشريف وزملائه وجهادهم

---

(١٦٧) راجع رسالة المؤلف القرن الخامس عشر الهجرى الجديد واقرأ فيها حكمة ربط التقويم الاسلامى بالهجرة .

واستماتتهم أن تتحرر من الاستعباد الإيطالى ، وتقيم حكومة مستقلة ، ولكن هذين البلدين الآن يقتفيان أثر الغرب فى المدنية والحضارة ، وسياسة التعليم والتربية ، وفى التخطيط لمختلف شعب الحياة ، ويعتقدان أنه الإمام ، وقد انصرفت جهودهما عن طريق الاذاعة والتليفزيون والتعليم الحديث إلى إعداد جيل تختلف مشاعره وعواطفه وقيمه ومثله عن ذلك الجيل الذى بدّد شعاعه ظلام الاستعباد الغربى وطلع على أفق هذه البلاد صبح الاستقلال ، ونالت مكان العز والاعتبار ، إن الاتجاهات الاشتراكية تسود كلا البلدين ، وإن قادة الحركات الإسلامية ، والدعاة والمفكرين الإسلاميين يقاسون مرّين .

إن الفلسفة والديانة التى اختارت ليبيا هما مزيج من الإسلام المذبوح والاشتراكية المنتفخة ، والقومية العربية ، وإن زعيم هذه الفلسفة المعمر القذافى اعترف – دائماً – بأستاذية جمال عبد الناصر ، وإنه الشخصية المثالية لديه ، ورغم أنه لم تتضح لنا أهداف البلدين وتصريحاتهما إلّا أن ما يبدو صريحا هو تقليدهما الأعمى للغرب فكريا وحضارياً ، وأنه هو السيد الزعيم ، فهما يسيران فى هذا الخط ، ونحو هذا الاتجاه بحيطة وتدريج وتصميم .

عملية هدم وإزالة أنقاض :

وهكذا تنقل شجرة الحضارة الغربية والفلسفة الغربية ، التى ساهم فى نشأتها وسوقها مناخ خاص ، وسقى خاص ، وقد توافرت هذه العوامل كلها فى الأراضى الاوروبية .. تنقل هذه الشجرة – بعد ما كبرت وترعرعت – إلى الأرض الإسلامية فتغرس فيها وتنصب بقوة ، ويهيأ لها الجو وتحفر لها الأرض حفراً عميقاً ، ويقوم الحريصون على نصبها فى البلد الإسلامى بعملية الهدم الواسعة وإزالة الأنقاض الفكرية والاجتماعية – كما يسمونها – من حولها ، وتستغرق هذه العمليه الهدامة جهوداً وطاقات وأوقات كانت تعود على الأمة وعلى البلاد بنفع كبير ، لو وجهت إلى عملية إيجابية بناءة ، وإلى القوى الكامنة فى نفوس رجال هذا الشعب الإسلامى عن طريق الإيمان والدعوة الدينية ، والإصلاح الخلقى .

رجعية التقدميين :

وقد يلجأ هؤلاء المتجددون فى سبيل التجديد إلى بعض الفلسفات والنظم والروابط التى فقدت قيمتها ومكانتها فى المجتمع الأوروبى من زمان ، وأصبحت تعتبر من الشعارات الرجعية ومن التجارب القديمة التى لجأ إليها القادة فى أوروبا فى ظروف خاصة ، وفى وقت محدد ، ثم استغنوا عنها بما رأوا من أضرارها وجناياتها وتركوها إلى فلسفة أو فكرة أفضل منها وأوسع ، وخير مثال لذلك « **القومية** » التى تخلت عنها أوروبا تقريباً ويعض عليها بعض القيادات فى الشرق الإسلامى بالنواجذ ، وترى فيها الأسلوب الأخير من التفكير ، وآخر ما وصل إليه العقل البشرى من وسائل التنظيم والتخطيط ، مع أنها من بقايا عصر البداوة والحياة القبلية المحدودة فى صورة موسعة ، وطمر بال خلعه الأوربيون ، ومن العوامل الهدامة التى فرقت المجتمع البشرى ووزعت الجيل الإنسانى على نفسه .

قد بدأ مفكرو الشرق والغرب الأحرار ينظرون إلى القومية نظرة احتقار وازدراء ويعتبرونها موضة قديمة ، ودليلًا على الرجعية والتزمت ، وعنصراً هداماً للإنسانية والسلام العالمى ، ويدعون إلى الوحدة الإنسانية وفكرة الأسرة العالمية ، ونقدم هنا – كدرس وعبرة – رأى مفكرين عظيمين ، أحدهما ينتمى إلى الغرب والآخر إلى الشرق ، الأول هو المؤرخ الشهير أرنولد توينبى (Arnold Toynbee) والثانى الدكتور رادها كرشنان رئيس الجمهورية الهندية سابقاً . .

إن أرنولد توينبى يكتب فى إحدى مقالاته :

« إن مستقبل الانسانية يتوقف على أخوة روحية لا يمنحها غير الدين ، وهو الشيء الذى يحتاج اليه الإنسان فى هذا الوقت ، والشيوعية تزعم أنها تستطيع أن توحد النوع البشرى ، كما أن الاسلام يثبت صلاحيته كقوة موحدة للإنسان فى افريقيا ، المسيحية أيضاً تستطيع أن تلعب هذا الدور إذا عملت بمبادئها ولكن القومية لا تستطيع أبداً أن توحد الإنسانية ، بل إنها توزعها وتشتت شملها ، ومن أجل ذلك ليس لها مستقبل ، وإنها لا تستطيع إلا أن تدفن الإنسانية فى ركامها .

إنه يجب علينا أن نختار إحدى النتيجتين فى عصر الذرة ، وإننا إذا أردنا أن ننقذ أنفسنا من الهلاك والدمار فينبغى لنا أن نحتضن الإنسانية كلها من غير استثناء ، ونتعلم كيف نعيش كأسرة واحدة [(١٦٨)] .

ونادى الدكتور رادها كرشنان بتبنى فكرة « الأسرة الواحدة على وجه الأرض » حتى يسلم العالم من عواقب « القومية العسكرية » وقد قال فى خطبته التى ألقاها فى ١٠ يونيو ١٩٦٣ م ، فى مؤسسة الأمم المتحدة [(١٦٩)] .

« إن تقاصر الإنسان عن إلغاء التجارب النووية لا يدل إلا على نظرة خاطئة كبيرة ، والتاريخ يشهد أن الاستيلاء السياسى ، والتمييز العنصرى والاستغلال الاقتصادى دفع الإنسان إلى نار الحرب ، فإذا قضى على هذا الاستيلاء السياسى والاستغلال الاقتصادى بإدخال الرخاء ، والقضاء على النّعرة الجنسية يكون ذلك خدمة كبيرة للسلام العالمى .

إن الوطنية ليست المثل الأعلى للإنسان ، بل إن مثله هو فكرة الأسرة العالمية الواحدة ، وإننا نعيش فى عالم حديث ، ولكن أفكارنا قديمة عتيقة [(١٧٠)] .

تقليد دعاة التجديد :

إن هذه المحاولة المخلصة الملحفة لتطبيق تجارب الحياة الأوروبية فى بلد إسلامى يبرهن على أن قادة هذه البلاد – وإن دوت أسماؤهم فى العالم وقادوا الجماهير الكثيرة – لايزالون –رغم ثقافتهم العصرية الواسعة – فى دور الطفولة العقلية التى يكثر فيها التقليد والمحاكاة والتلمذة المتواضعة لأساتذتهم الغربيين ، وأن شخصياتهم مجردة عن كل ابتكار ، وعن القدرة على الإنتاج الأصيل والإبداع ، وعن التفكير

---

(١٦٨) Islamic Review March 1961

(١٦٩) وكان رئيس الجمهورية الهندية يومئذ.

(١٧٠) National Herald Luchnow India

الحر ، وإنهم فضلا عن جهلهم أوتجاهلهم لطبيعية الشعوب التى يحكمونها ، ولمواهبها وطاقاتها لايسايرون الفكر الأوروبى فى تقدمه وأطواره ، ولايعرفون مايجيش به المجتمع الأوروبى من قلق وتذمر ، وبحث عن الإيمان والروحانية .

سياسة النفاق لدعاة الإلحاد والعلمانية :

ماهى طريقة هؤلاء الدعاة المتحمسين إلى العلمانية والتقدمية الغربيين(الذين نفخوا روح التجدد والتغريب فى العالم الإسلامى) فى محيطهم وبيئتهم التى يعيشون فيها ، وهل طبقوا العلمانية فى حدود دولهم وحكوماتهم ، أم أنهم كانوا متعصبين للدين ومن كبار الرجعيين ،كلمادعتهم إلى ذلك حاجة ؟

أما الذين ينتسبون إلى العالم المسيحى والحكومات التى تنتمى إليه فقد كتب عن ذلك كثيراً .

ولايخفى على البصير مايتجلى فى كتابات المستشرقين المسيحيين من روح التبشير ، ومرارة ذكريات الحروب الصليبية ، والتعصب على الأتراك ، ودوافع الانتقام ضدهم ، ويوجد من بين هؤلاءالمستشرقين الذين يعتبرون من متحمسى الدعاة إلى الثورة على الشريعة الإسلامية والقانون الإسلامى فى العالم الإسلامى – عدد وجيه لليهود يتعصب للديانة اليهودية وأتباعها ويظهر من كبار الرجعيين والمتزمتين المتعسفين .

إن دولة إسرائيل المزعومة لم تقم إلا على أساس خالص للدين ، إن فى تشبثها بتعاليم التوراة والعض عليها بالنواجذ فى كل مجال من مجالات العلم والدين والسياسة والاجتماع ، وفى الحياة الفردية واليومية ، لعبرة كبيرة للعالم الإسلامى ، ودليلا ساطعاً على أن التقدميين ذوو لسانين ، فإنهم يتكلمون مع إخوانهم وأتباعهم بغير مايتكلمون به مع الآخرين ، وهم يركزون جهودهم ودعوتهم على نشر الإلحاد والعلمانية ، والمحاربة للدين فى الأقطار الإسلامية الغرة التى استقلت حديثاً .

وفيما يلى مقتطفات لأحد الشيوعيين العرب سابقاً ، الذى عاش مع الشيوعيين اليهود جنباً إلى جنب وعمل معهم إلى مدة طويلة ، إنه يقول :

« فى قطب بلادنا تقوم دولة تحمل اسم نبى من التوراة ، ليس لها دستور

لأن الأحزاب الدينية تصر على أن التوراة هى الدستور : .. محرماً فيها العمل يوم السبت ولم تر فى ذلك أى إخلال باقتصادها وارتباطها بالبنوك العالمية التى تتعطل يوم الأحد ، بل يحرصون على أن تكون الجلسة الأسبوعية للكنيست يوم الأحد - ومحرم فيها على الجيش طبخ الطعام يوم السبت ... تقول يائيل دايان فى « مذكرات جندى » « أكلنا طعامنا مطهراً يوم السبت ٣يونيو بتصريح خاص من الحاخام الأكبر » ، جيش إسرائيل الذى يوشك أن يمتلك القنبلة الذرية يمتنع عن طبخ الطعام يوم السبت ، وبنغوريون وشازار يسيران ميلا ونصف ميل على الأقدام فى جنازة تشرشل لأنها صادفت يوم السبت ومحرم فى التوراة ركوب وسائل النقل يوم السبت ،وعمر بنغوريون ٧٨ سنة وعمر شازار ٧٦ سنة فى وقت الجنازة ، ولم تجد الصحافة العالمية ولا الرأى العام الإنجليزى فى ذلك مدعاة للسخرية ، لكنها تجد فى ذلك مدعاة للاعجاب ، نصف المصلين فى مسجد الخليل من العسكريين اليهود ، ونفخوا فى البوق إيذاناً بانتهاء الصوم ، وجميع طائرات شركة « العال »الاسرائيلية وسفن شركة « زيم » لاتقدم لحم الخنزير ، فى إسرائيل أحزاب دينية معترف بها ولها وزنها ، الزواج المدنى غير معترف به لحد أنهم رفضوا إعطاء الجنسية لحفيد بن غوريون لأنه من أم غير يهودية ، واللغة العبرية لغة رسمية ، درسوا بها الصواريخ وإفساد الرادار ، وضرب الطائرات على المدرجات،وألفوا بها أدبا نالوا به جائزة نوبل العالمية ، فى نفس الوقت ولأجل أن تقوم إسرائيل صدروا إلينا عملاء يجعلون لب كفاحهم فصل الدين عن الدولة ، ويصابون بالفالج عندما يسمعون بأن الدستور سينص على أن دين الدولة هو الإسلام ، ويسودون الصحائف فى أضرار رمضان على الإنتاج ونحن أمة مستهلكة والحمد لله ، والذين ألغوا شعار الهجوم « الله أكبر » من الجيش ولم يعيدوه إلا بعد النكسة بخمسة عشر شهراً ، بينما أول دبابة إسرائيلية دخلت سيناء مكتوب عليها آية من التوراة ، وتصاب بالذين تشغلهم صعوبة اللغة العربية ويبحثون عن حروف أخرى لها أو عزلها عن مجال العلم بزعم أنها لغة متخلفة،والعبرية التى انقرضت منذ ألفى سنة أصبحت لغة العلم » .

ولكى نطلع على شيء من سياسة إسرائيل وطريقتها فى مجال العلم نقدم بعض المعلومات عن مؤلفات وتقارير خبراء التعليم فى الشرق الأوسط .

يقول الدكتور رودر مايثوز والدكتور متى عقراوى فى كتاب « التربية فى الشرق العربى » :

« إن أهم مايسترعى الأنظار فى المدراس الإسرائيلية فى فلسطين أن لغة الدراسة فى كافة المواد هى العبرية فيما عدا اللغات الإنجليزية والفرنسية والعربية ، والعناية شديدة فى جميع مراحل التعليم بالدراسة الدينية وجعل التعليم الدينى أساس الصهيونية وتقدمها .

ويفهم مما يلى هذه العبارة أن جميع أنواع المدارس الاسرائيلية أو اتجاهاتها تبعاً للأحزاب التى ينتمى إليها آباء التلاميذ رغم اختلاف هذه الأحزاب فى مثلها العليا التعليمية والدينية والسياسية تلتقى على هذه الفكرة الأساسية ، وتعنى عناية خاصة بالتربية الدينية ، ويرى بعضها أن التقاليد الدينية اليهودية هى النبراس الذى ينبغى أن تستهدى به نظم التعليم ويحتم بعضها على المعلمين أن يكونوا تقليديين ، أى أن يحرصوا على التقاليد اليهودية الأصولية .

وجاء فى مقال « **التعليم العالى فى إسرائيل** » فى مجلة فلسطين مقتبسا من الدراسة التى قدمتها دائرة البحوث والدراسات فى الهيئة العربية العليا لفلسطين ما يلى :

« إن سياسة التعليم العالى تهدف إلى تنمية العقيدة اليهودية والولاء بالإضافة إلى الدعاية لإسرائيل وكسب الأصدقاء » وفى المقال تفاصيل هائلة عن « العناية باللغة العبرية وجامعاتها وميزانيتها وتمويلها وما يبذل لها اليهود من عناية فائقة ، وأموال طائلة ، وتنظيمات دقيقة » .

ومما يبعث على الاستغراب الشديد بعد الاطلاع على هذه السياسة ذات الوجهين التى اتخذها المثقفون من غير المسلمين فى بلادهم وأمتهم نحو الأقطار الإسلامية وشعوبها المسلمة . أن نرى عقلاء البلاد وقادتها فريسة الدعاية المنافقة للعلمانية والتجديد ، فى غاية من البساطة والاغترار ، ولعل هؤلاء العقلاء اليهود والمسيحيين والمستشرقين من أصحاب القلم والصحافة لم يكونوا يقدّرون أن الزعماء المسلمين ينخدعون بمثل هذه السهولة ويؤمنون بتوجيهاتهم فى مثل هذه السرعة ، ويصبحون لها دعاة متحمسين فى بلادهم من غير أن يشعروا بهذه الحقائق النيّرة ،

كما أثبتت التجربة العملية ذلك ، وسوف لا يوجد نظير فى تاريخ العالم الفكرى والمدنى ، لإفلاس القيادة الفكرى واغترارها ، مثل الذى قدمته القيادة المسلمة فى هذا القرن العشرين .

إسراف الدول الإسلامية المتخلفة :

الحالة الاقتصادية فى الدول المسلمة سيئة بوجه عام ، إنها مفتقرة إلى الدول الأخرى وعالة عليها ، حتى فى حاجات الحياة ، وإن مستوى حياة شعوبها منحط خافض بوجه خاص ، أما البلاد التى عدد سكانها هائل فإن مستوى معيشتها وحالتها الاقتصادية أحط بكثير مما عليه البلاد الأخرى ، ولكن حكومات هذه البلاد تحاول تقليد الدول الغربية المتحضرة الغنية ولا تدخر فى ذلك وسعاً ، وتعتبر إنشاء القنصليات والسفارات فى جميع البلاد فريضة لازمة ، وتتخذ هذه السفارات كل الأساليب التى تتخذها السفارات الغربية التى لا دين لها ولا حشمة ، ولا حدود خلقية ، إن هذه السفارات المسلمة والعربية تقيم مآدب فاخرة وحفلات الكوكتيل (Cocktail Parties) وتصب فيها أموال الفقراء والطبقة الوسطى كالماء الجارى ، وتقدم الخمر فى عامة الأحوال ، ولحم الخنزير أيضاً فى بعض الأحيان وبعض المناسبات ، إن هذه السفارات لا تتحمس مطلقاً لدعوة الإسلام ، والتمسك بمبادئه الخلقية التى تنتمى إليها ، ولاتكون لها صلة بالمسلمين فى تلك البلاد وعناية بتوجيههم وتشجيعهم والاطلاع على أحوالهم وأوضاعهم ، ولا تفيدهم ثقافياً وأدبياً إلا نادراً .

إن كثيراً من زعماء الدول المسلمة (ومنهم من آمنوا بالديمقراطية والاشتراكية كمبدأ ودستور) يعيشون عيشة باذخة مبذرة ، ونفقاتهم ملوكية وجولاتهم تذكر بعهد كسرى وقيصر وإمبراطور روسيا فى العهد الأخير ، وحياتهم المنزلية ومناهج عيشهم تشبه قصص ألف ليلة وليلة ، والانسان يكاد لا يصدق أن هؤلاء هم زعماء البلاد الاسلامية المتخلفة ، والشعوب المتأخرة الفقيرة ، والدعاة إلى الاشتراكية والديمقراطية والشعبية .

نقدم بهذه المناسبة الدكتور سوكارنو رئيس جمهورية إندونيسيا سابقاً [(١٧١)] كنموذج لهذا النوع من القادة والزعماء ، ونضرب مثالا لأسلوب حياته ، ومستوى معيشته ، تقول جريدة « **الصندى تلغراف** » الصادرة من لندن فى أحد أعدادها :

« **الرئيس الأندونيسى سوكارنو أنفق خلال إقامته فى طوكيو خمسة آلاف جنيه يومياً ، وكان يرافقه ستة ضباط ، وكانت المومسات والبغايا والفتيات الأخريات يجلبن إلى فندقه الذى كان يكلفه ٥٥ جنيهاً يومياً . وكان ٥٠ من الحراس منزعجين لكثرة تردد المومسات والبغايا الزائرات فى هذا الفندق** » . .

كما أن مكتب وزارة الخارجية باليابان لاينظر بعين الرضا إلى هذه الجولات التى يقوم بها الرئيس سوكارنو بين آن وآخر لطوكيو ، ولكن بما أن اليابان تريد استغلال الوسائل الطبيعية فى إندونيسيا فإنها لا تبدى استنكارها لهذه الجولات بطريق علنية [(١٧٢)]

صراع بين الحكومات والشعوب :

إنهم فى بلاء وشقاء من هذه الشعوب التى لا يسهل عليها التخلى عن المبادىء الدينية ، ومن ثروتها الايمانية ومن تراثها الغنى ، والانقطاع عن منابع الحياة والقوة التى تكمن فى مصادرها الدينية ، وأدبها الاسلامى ، وتاريخ الاصلاح والتجديد ، فهم فى عملية هدم واسعة الأكناف ، طويلة المدى ، محاربة من جهات كثيرة ، والشعوب الإسلامية – التى وقعت تحت حكمهم وقيادتهم – فى بلاء وشقاء من هؤلاء القادة ، فهم يحاربون طبيعتها ويقودونها بهتافات وشعارات لا تسيغها

---

(١٧١) إندونيسيا بلد متخلف فقير بعدد سكانه ، الهائل ، وقد صرح نائب الحاكم العام ميجاوا أن مليون نسمة تقريبا فى جاوا الوسطى تعانى الفقر والجدب والفاقة ، وقال أن هنا ١٢ ألفا من الناس يأخذون التلقيحات الغذائية فى المستشفيات الحكومية .

(١٧٢) Sunday Telegraph 12, January 1964

هذه الشعوب ولا تنشط لها ، لا تستطيع أن تحبب إليها الموت والفداء ، وتهون عليها بذل النفوس والأموال والهجرة من الأوطان ، وتتغلب على الشهوات الأنانية الفردية ، وقد عرف هؤلاء القادة ضعف هذه الهتافات والشعارات فى إثارة الحمية ، وإشعال الحماسة فى نفوس الجماهير ، فهم يلجأون دائماً أيام الجد والمعارك الدموية الحاسمة إلى الهتافات الدينية والشعارات القديمة من الجهاد فى سبيل الاسلام والشهادة فى سبيل الله حتى إذا وضعت الحرب أوزارها ، وتسلموا مفاتيح البلاد ، عادوا إلى هتافاتهم ، وشعاراتهم القومية والزمنية،ويفترضون أنهم يحكمون شعوباً ليست لها ديانة تحبها وتقدسها وتستميت فى سبيلها ، وليست لها عاطفة دينية تحتاج إلى التربية والاستثمار . .

إهمال طاقات وكنوز مخبوءة :

وهكذا تضيع طاقات هذه الشعوب ومواهبها ، وإمكانياتها التى لو استثمرت وقدّرت حق التقدير،وكان القادة « **واقعيين** » أكثر منهم « **خياليين** » لفعلت الأعاجيب ، وكانت قوة يحسب لها الحساب الكبير فى ميزان القوى وفى ميزان « **المعسكرات** » ولا سبب فى ذلك إلا ضيق تفكير هؤلاء القادة ، وتقليد هذه الحضارة ، والتصميم على تطبيقها فى بلدهم بحذافيرها ، وهذا بتأثير الثقافة الأجنبية التى تلقوها فى الخارج ، أو خضعوا لها وهضموها فى داخل بلادهم .

تقليد الحضارة الغربية ونتائجه :

إن اتباع أساليب الحضارة الغربية فى الحياة الاجتماعية والإيمان بمبادىء حياتها ومنهج اجتماعها يحمل نتائج بعيدة المدى ، إن أوروبا اليوم مصابة بالجذام الخلقى ، ولايزال جسمها يتقطع ويتعفن حتى أصبح الجو كله موبوءاً ، وسبب هذا الجذام هو الاباحة الجنسية والخلقية التى تسود أوروبا اليوم ، وتتخطى حدود الحيوانية والبهيمية [١٧٣] .والسبب الحقيق لهذه البهيمية والحيوانية هى حرية المرأة المطلقة ، والتبرج المطلق ، والاختلاط الذى لا حد له ولا نهاية ، وإدمان الخمر . فأى بلد إسلامى

---

(١٧٣) وقد رأينا بعض ملامحها فى فضيحة بروفومو Profumo المشهورة فى لندن التى رفع الستار عنها لأسباب سياسية .

سار على هذا الدرب وطرح الحشمة وسمح بالاختلاط بجميع أنواعه ، وشجع التعليم المختلط كانت نتيجة ذلك هى التفسخ الخلقى والجنسى ، والثورة على سائر الحدود الخلقية ، والدينية ، وفى عبارة وجيزة ، الجذام الخلقى الذى أشرنا إليه آنفاً ، والذى أصيب به الغرب ، إننا نرى معالم هذا الجذام واضحة فى البلاد الاسلامية التى تحمست فى تقليد الحضارة الأوروبية ورفع الحجاب ، وشاع فيها الاختلاط ، وظلت الصحافة والسينما والتليفزيون والعلوم والآدب ، وحياة الطبقة الحاكمة تشجعها ، بل تقودها وتوجهها .

« سنة الله فى الأرض ﴿ ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾



أسباب التجدّد والتغريب

وَعلاجهَا

وبعد ما ذكرنا في الفصول السابقة تاريخاً مجملا لحركة التجدد والتغريب في العالم الإسلامي التي قادها كمال أتاتورك (١٩٢٤ – ١٩٣٨) ، وعرف القراء أن قادة الدول المسلمة التي نالت استقلالها حديثاً ومؤسسي الحكومة المسلمة الوليدة ، إما موافقون عليها تماماً أو خاضعون لها في قليل أو كثير ، كما أن الطبقة المثقفة بالثقافة العالية في كل بلاد العالم الإسلامي تتجه نحو الأساليب التي اتخذها كمال أتاتورك في النهضة والإصلاح ، ونحو « **التجديد** » والتغريب .

يجب أن نفكر في أسباب هذا التأثير العميق الذي تركه . مصطفى كمال في قلوب هذه الطبقة ، هل هي مصادفات التاريخ ، أم هي نتيجة شخصية « **كمال أتاتورك** » القوية ؟ أم أن هناك أسباباً أخرى أكثر قوة وأشد نفوذاً تجعل كل من ينهض للإصلاح والتشكيل الجديد للمجتمع يقتفي آثاره في ذلك ويقلده في النهضة بالبلاد وتقويتها ، ويعتقد أن سر النهضة إنما هو التجدد والتغريب، وليس غير .

إننا نرى لذلك أسباباً هي في نفوذها عميقة الجذور ، وهي تكاد تكون شائعة منتشرة في الأقطار الاسلامية ، نستعرضها واحدا واحدا بالاجمال ، ونبحث فيها باختصار .

نظام التعليم الغربي :

لا يخفى على المطلع الخبير أن لنظام التعليم روحاً وضميراً كالكائن الحي ، له روح وضمير ، إن روح نظام التعليم وضميره إنما هو ظل لعقائد واضعيه ونفسيتهم ،

وغايتهم من العلم ودراسة الكون ، ووجهة النظر إلى الحياة ومظهر لأخلاقهم ، وذلك ما يمنح نظام التعليم شخصية مستقلة وروحاًوضميراً بذاتهما ، إن هذه الروح هي التي تسري في هيكله تماماً ، إنها تسري في جميع العلوم ، في الأدب والفسلفة والتاريخ والفنون والعلوم العمرانية ، حتى في علمي الاقتصاد والسياسة بحيث يصعب تجريدها من هذه الروح ، وليس في وسع كل شخص أن يميز بين الصحيح والسقيم منها ، وإنما يتيسر ذلك لرجل أوتي من قوة الاجتهاد وملكة النقد القوية ما يستطيع به أن يميز النافع والضار ، فيكون عاملا بمبدأ « **خذ ما صفا ودع ما كدر** » ويفرق بين الأصل والزائد حتى يتمكن من أخذ جوهرها وروحها .

وهذا العمل سهل في العلوم الطبيعية والتطبيقية ، بينما هو صعب ودقيق في نفس الوقت في الأدب والفسلفة ، والعلوم العمرانية ، ولا سيما إذا كانت أمة تؤمن بعقائد معينة وتتبنى فلسفة مستقلة وأسلوباً خاصاً للحياة ،وتاريخاًمستقلا - لايعد من أنقاض الماضي وإنما هو منارة نور للأجيال القادمة - وتعتبر شخصية الرسول وعهده الأسوة الحسنة التي تفوق جميع القيم والمثل العليا للحياة الإنسانية . إذا كانت أمة هذه صفتها تتبنى نظام تعليم لأمة تختلف في الأساس والقيمة والمعيار ، يحدث هنالك صراع مستمر لا يفارق هذه الأمة في أي مرحلة من مراحل حياتها ، يجر إلى بناء واحد وهدم آخر ، إلى تصديق واحد وتكذيب آخر ، إلى إجلال واحد وازدراء اخر ، وفي مثل هذه الحال يجب أن يحدث هناك نزاع عقلي ، وتزعزع في العقيدة وانحراف عن الدين ، وأخيراً قبول القيم والأفكار الحديثة مكان القيم والأفكار السابقة ، وذلك أمر طبعي يجب أن يحدث كأمور طبعية ، لا يحول دون حدوثه حسن النية أو القلق ، ورغبة الآباء والجدود والاحتياطات الفرعية والخارجية ، وإنما يمكن تأجيل موعده أو إبطاء سيره على أكثر تقدير ، دون تعويقه أو القضاء عليه ، كما أن الشجرة إذا نشأت وتربت وفق نظامها الطبيعي تؤتي أكلها وتثمر في موعدها ، أما الانسان فبإمكانه ألا يغرس ، شجرة ولا يسهر عليها بالتعاهد والسقي أو يعضدها إذا اكتلمت وشبت ، ولكن ليس بإمكانه أن يقوم في وجه شجرة مثمرة خضراء أو يفرض عليها أن تثمر ثمر شجر آخر .

تلك هي قصة نظام التعليم الغربي ، فإنه يحمل روحاً وضميراً منفرداً تتجلى

فيه عقيدة مؤلفيه وعقلية واضعيه ، وهو نتيْجة التقدم الطبيعى لآلاف السنين ، وتعبير عن أفكار أهل الغرب ومجموع أقدارهم وقيمهم ، فإذا ما طبق هذا النظام التعليمى فى بلاد مسلمة ، أو مجتمع إسلامى يحدث به قبل كل شيء صراع عقلى ثم يتدرج ذلك إلى تزعزع العقيدة والردة الفكرية ، وأخيراً إلى الردة الدينية ، وذلك طبيعى لكل من يستهدف لذلك (**إلا من عصم ربك**) وما أحسن ما كتبه أحد علماء الغرب الناقدين [١٧٤] الذى رزق قلباً سليماً وله خبرة واسعة لنتائج نظام التعليم الغربى فى الشرق :

« لقد بسطنا فى الفصول الماضية بعض الأسباب المؤيدة للرأى القائل بأن الاسلام والمدنية الغربية – وهما يقومان على فكرتين فى الحياة متناقضتين تماماً – لا يمكن أن يتفقا ، فإذا كان ذلك كذلك ، فكيف نستطيع أن نتوقع أن تظل تنشئة أحداث المسلمين على أسس غربية ، تلك التنشئة القائمة فى مجموعها على التجارب الثقافية الأوروبية وعلى مقتضياتها ، خالصة من شوائب النفوذ المعادى للإسلام ؟ .

ليس ثمة ما يبرر توقعنا لذلك ، وإننا إذا استثنينا بعض الأحوال النادرة التى يتاح فيها لعقل نير للغاية أن يتغلب على مادة التعليم ، فإن التنشئة الغربية لأحداث المسلمين ستفضى حتما إلى زعزعة إرادتهم فى أن يعتقدوا أو أن ينظروا إلى أنفسهم على أنهم هم ممثلو الحضارة الإلهية الخاصة التى جاء بها الإسلام ، وليس ثمة من ريب فى أن العقيدة الدينية آخذة فى الاضمحلال بسرعة بين « **المتنورين** » الذين نشأوا على أسس غربية [١٧٥] .

ثم يقول ، وهو يتحدث عن أجزاء برامج التعليم الغربية المختلفة فيتحدث عن تدريس الآداب الغربية وتأثيرها فى عقلية النشء الإسلامى .

---

(١٧٤) هو محمد أسد (Leopold Weiss) سابقاً .

(١٧٥) الأسلام فى مفترق الطرق ص ٧٣

« إن تعليم الأدب الأوروبى على الشكل الذى يسود اليوم الكثير من المؤسسات الإسلامية يقود إلى جعل الإسلام غريباً فى عيون الناشئة المسلمة ، ومثل هذا – ولكن إلى حد أبعد – يصدق على التعليل الأوروبى للتاريخ العام ، إذ لايزال الموقف القديم فيه : (رومانيون وبرابرة) يظهر بجلاء، ثم إن لمثل هذا العرض فى التاريخ هدفاً خفياً ، ذلك أنه يدلل على أن الشعوب الغربية ومدنيتها أرقى من كل شىء جاء أو يمكن أن يجىء إلى هذا العالم ، وهكذا يمكن خلق نوع من التبرير الأدبى لسعى الأوروبيين إلى السيطرة وإلى القوة المادية [(١٧٦)] .

ويتكلم عن تأثير تدريس مادة التاريخ على النمط الغربى فيقول :

« ..أما التأثير الوحيد الذى يمكن أن يتركه مثل هذا التثقيف التاريخى فى عقول الأحداث من غير الشعوب الأوروبية ، فإنما هو شعور هذه الشعوب بالنقص فيما يتعلق بثقافتهم الخاصة ، وبماضيهم التاريخى الخاص والفرص السانحة لهم فى المستقبل ، وهكذا يتربون تربية منظمة على احتقار ماضيهم ومستقبلهم ، اللهم إلّا إذا كان مستقبلا مستسلماً للمثل العليا الغربية » . .

وأخيراً يقول بكل حماسة وصراحة : .

« ..وإذا كان المسلمون قد أهملوا ، فيما مضى ، البحث العلمى فإنهم لا يستطيعون إن ينتظروا إصلاح هذا الخطأ اليوم عن طريق قبول التعليم الغربى من غير وازع ما ، إن كل تأخرنا العلمى وكل فقرنا لايوزنان بذلك التأثير المميت الذى سيحدثه تقليدنا الأعمى لنظام التعليم الغربى فى قوى الإسلام الدينية الكامنة ، إذا أردنا أن نحفظ حقيقة الإسلام على أنها عنصر ثقافى فيجب علينا أن نحترس من الجو الفكرى للمدنية الغربية ، ذلك الجو الذى أصبح على وشك أن يتغلب على مجتمعنا وعلى ميولنا ، وبتقليد عادات الغرب وزيّه فى الحياة يصبح المسلمون تدريجاً مضطرين إلى الأخذ بوجهة النظر الغربية . إن تقليد المظاهر الخارجية يقود شيئاً فشيئاً إلى تقبل الميل العقلى المصاقب لذلك [(١٧٧)] .

---

(١٧٦) أيضا ص ٧٢ .

(١٧٧) الاسلام على مفترق الطرق ص ٧٣

وقد تكهن بهذه النتيجة بعض مفكرى الغرب الذين كانوا مسئولين عن تطبيق هذا النظام التعليمى فى بلدان الشرق ، وقد كتب الكاتب الإنجليزى المعروف اللورد ميكالى (Lord Macaulay) فى تقريره ، وقد كان رئيس اللجنة التعليمية (عام ١٨٣٥ م) التى قررت جعل اللغة الانجليزية أداة التعليم لأهل الهند بدلا من اللغات الشرقية الأخرى ، إنه يقول :

« يجب أن ننشىء جماعة تكون ترجماناً بيننا وبين ملايين من رعيتنا ، وستكون هذه الجماعة هندية فى اللون والدم ، إنجليزية فى الذوق والرأى واللغة والتفكير [(١٧٨)]

ويقرر المستشرق الكبير « جب (Gibb) فى كتاب : « **وجهة الإسلام** » (Wither Islam) أن التجدد والتفرنج فى الشرق إنما هما خاضعان لمقياس نظام التعليم الغربى ، ومدى سيطرته وتغلغله فى المجتمع الإسلامى الشرقى ، يقول :

« ..والسبيل الحقيقى للحكم على مدى التغريب (أو الفرنجة) هو أن نتبيّن إلى أى حد يجرى التعليم على الأسلوب الغربى ، وعلى المبادىء الغربية ، وعلى التفكير الغربى ، والأساس الأول فى كل ذلك هو أن يجرى التعليم على الأسلوب الغربى ، وعلى المبادىء الغربية ، وعلى التفكير الغربى .. هذا هو السبيل الوحيد ، ولاسبيل غيره ، وقد رأينا المراحل التى مرّ بها طبع التعليم بالطابع الغربى فى العالم الإسلامى ، ومدى تأثيره على تفكير الزعماء المدنيين ، وقليل من الزعماء الدينيين [(١٧٩)] .

يلاحظ « جب أن النشاط التعليمى والثقافى (عن طريق المدارس العصرية والصحافة) قد ترك فى المسلمين – من غير وعى منهم – أثراً جعلهم يبدون فى مظهرهم العام لادينيين إلى حد بعيد ، ثم يعقب على ذلك بقوله .. « وذلك خاصة هو اللب المثمر فى كل ما تركت محاولات الغرب لحمل العالم الاسلامى على حضارته من آثار [(١٨٠)] » .

---

(١٧٨) تاريخ التعليم لمؤلفه ميجر باسو ص ٨٠ .

(١٧٩) الجزء الثانى من الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر ص٢٠٢ .

(١٨٠) أيضا ص ٢٠٤ .

لقد كان نظام التعليم الغربى محاولة عميقة وخفية لإبادة العنصر الإسلامى والقضاء عليه ، وانتقل مفكرو الغرب من طريقتهم الممقوتة القديمة التى كانوا يؤثرونها فى إبادة الأجيال والفتك بها إلى هذه الطريقة الجديدة التى قرروا صوغها فى قالبهم ، فأسسوا لهذا الغرض مراكز كثيرة باسم الكليات والجامعات ، وقد عبّر عن هذه الحقيقة التاريخية أحسن تعبير الشاعرالاسلامى (أكبر) (الإله آبادى) فى أسلوبه الطريف الخاص ، إنه يقول فى بيته السائر :

« **يالبلادة فرعون الذى لم يصل تفكيره إلى تأسيس الكليات ، وقد كان ذلك أسهل طريق لقتل الأولاد ، ولو فعل ذلك لم يلحقه العار وسوء الأحدوثة فى التاريخ** » .

كما أوضح الفرق بين ساسة الشرق والغرب فى بيت آخر يقول :

« **إن أهل الشرق يقضون على العدو بشدخ رأسه ، ولكن الغربى يغيّر طبيعته وقلبه** » وجاء إقبال بعده بعدة سنوات وقد اكتوى بنار نظام التعليم الغربى شخصياً وخاض فى دراسته ، فأبدى حقيقته فى أسلوب أكثر عمقاً وأبعد عن التنكيت والدعابة ، يقول .

« **إياك أن تكون آمناً من العلم الذى تدرسه ، فإنه يستطيع أن يقتل روح أمة بأسرها** [١٨١]» .

إنه يعبر عن ذلك الانقلاب الهائل والتحويل الجذرى الذى يحدثه نظام المعارف الحديث بقوله :

« إن التعليم هو « **الحامض** » الذى يذيب شخصية الكائن الحى ، ثم يكوّنها كما يشاء ، إن هذا « الحامض » هو أشد قوة وتأثيراً من أى مادة كيميائية ، هو الذى يستطيع أن يحول جبلا شامخاً إلى كوم تراب [١٨٢] » .

---

(١٨١) أرمغان حجاز .

(١٨٢) ضرب كليم .

إنه يرى نظام التعليم الغربى مؤامرة على الدين والخلق ، كما يقول :

« **إن نظام التعليم الغربى ، إنما هو مؤامرة على الدين والخلق والمروءة** [(١٨٣)] » .

إن إقبال من أولئك الرجال المعدودين الذين خاضوا بحر نظام التعليم الغربى فلم يخرجوا من قعره سالمين فقط ، بل وقد جاءوا معهم بدرر كثيرة ، وازدادوا إيماناً بخلود الإسلام ومضمراته الواسعة ، وازدادوا ثقة بنفسهم ، ولو كان من الصعب أن نحكم على إقبال أنه لم يخضع للتعليم الغربى والفلسفة الغربية فى قليل أو كثير ، وأن فهمه للدين يطابق الكتاب والسنّة وفهم السلف تماماً [(١٨٤)] ولكن الذى لا مرية فيه أنه لم ينصهر فى بوتقة الغرب ، كما انصهر آلاف من معاصريه ، وحق له أن ينشد فى هذه المناسبة شعره الذى معناه :

« **كسرت طلسم العصر الحاضر وأبطلت مكره ، التقطت الحبَّة وأفلت من شبكة الصياد ، يشهد الله أنى كنت فى ذلك مقلداً لإبراهيم فقد خضت فى هذه النار واثقاً بنفسى وخرجت منها سليماً محتفظاً بشخصيتى** [(١٨٥)] » .

أما شهادة الزعيم الإسلامى الهندى مولانا محمد على عن التعليم الحديث وأثره فتحمل قيمة لا تنكر ، وقد تربى فى بيئة مؤمنة دينية ثم بدأ دراسته فى أكبر مراكز التعليم الغربى « **الجامعة الإسلامية فى عليكره** » فى الهند ، إنه يقول فى ترجمة حياته :

« لقد كانت الحكومة البريطانية تحمل لواء الحياد الدينى الكامل ، فقد أقصت دراسة مادة الدين حتى دراسة الأخلاق تماماً من الكليات ، وطبقت هذه السياسة التعليمية عمليا فى ذلك ، ولم يبق من المعلومات الدينية والخلقية

---

(١٨٣) أيضاً ص ٨٥ .

(١٨٤) وفى محاضراته التى ألقاها فى مدراس بعنوان : « تجديد الفكر الاسلامى » نماذج من التفكير أو التعبير الذى تأثر بثقافته الغربية .

(١٨٥) أرمغان حجاز ص ٧٠

إلا ما يتلقفه الطلاب بأنفسهم من الكتب الإنجليزية أو الكتب الدراسية المؤلفة بلغات الشرق .

كما أن نظرية التعليم التى وضعتها الحكومة للشباب الهندى كانت «**حديثة**» وكانت تهدف بجميع ما فيها من عوامل هدامة ، إلى أن يتربى فى الطالب شعور خاطىء بعلمه وكبريائه ، ويقضى على قداسة الرواية والحجة والاسناد بأوهامه التى يرجع تاريخها إلى ما قبل قرون ، ومما لا شك فيه أن هذا التعليم سبب إثارة دافع التحقيق والبحث عن الحقيقة مع مسايرته للزمان ، غير أنه كان هداماً فى حملته على الديانة والأخلاق ، أما ما أعطاه بدلا مما قضى عليه من « **الأوهام الدينية** » كما – يقول الغربيون – فلا يقوم أيضا إلا على أساس من الأوهام والعقائد الخرافية ، ولكن هذه الثقافة التى يتزود بها الطالب كانت حديثة لا شك[١٨٦]

إن مؤلف « **الإسلام فى التاريخ الحديث** » (W. C. Smith) الذى يحمل معلومات جديدة حول نزعات العالم الإسلامى وطباقته المختلفة يعترف بالتأثر العقلى العميق الذى يتركه التعليم الغربى الحديث ومراكزه فى العالم الإسلامى ، إنه يقول ، وهو يتحدث عن حركة التنور والتسامح فى العالم الإسلامى (Liberalism) :

إن من أهم أسباب حركة الحرية والإباحية التى تسود اليوم فى العالم الإسلامى ومن أكبر عواملها نفوذ الغرب ، فقد بلغت هذه الحركة أوجها فى أوروبا من أواخر القرن التاسع عشر إلى الحرب العالمية الأولى ، وهكذا شأن نهضة أوروبا وتقدمها ، وقد سافر كثير من الشباب المسلم إلى الغرب واطلعوا على روح أوروبا وقيمها وأعجبوا بها إلى حد ، وينطبق هذا بخاصة على الطلاب الذين درسوا فى جامعات أوروبا بعدد لم يزل يزداد مع الأيام ، وهم الذين سببوا استيراد كثير من أفكار الغرب وقيمه إلى العالم الإسلامى ، وقد حازت قصب السبق فى هذا المضمار تلك المعاهد الثقافية التى قامت بتربية جيل بأكمله على النمط الغربى الحديث ، وكان مما صدره الغرب إلى

---

(١٨٦) My life, A, Fragment, P. 23-24

العالم الإسلامى تلك الأفكار المتعددة الجديدة التى تقع من الأهمية والدقة بمكان ، والاتجاهات العقلية الدقيقة الفجة ، والميول الحديثة التى كان فى نشرها أوفر نصيب لنمط التعليم الغربى الحديث ، ويفوقها فى ذلك تأثير معاهد الغرب الحقوقية والسياسية والاجتماعية الجديدة ونفوذها الزائد ، ومنها ما يسلط إجباراً ، وما يحاول تسليطه ، وبينما قام بعض المسلمين لمقاومة هذا التيار رحب به البعض الآخر ، إن بعضهم قد وقع تحت تأثير هذه التربية رسمياً ، وبعضهم قد رحب بهذا التيار بدافع من أنفسهم ، وأنتج ذلك أن كثيرا من المسلمين اعترفوا بهذا النظريات والمعاهد كحقيقة ثابتة ، وخضعوا لها بالتدريج ، وهكذا استمر عمل التغريب بسرعة وقوة بالغتين [١٨٧] » .

لقد جرف تيار نظام التعليم الغربى الشباب الإسلامى فى البلاد العربية والعجمية (**الذين كانوا زبدة أمتهم وزهر بلادهم**) وغير عقليتهم إلى حد أن عقولهم أصبحت لا تستطيع أن تسيغ الإسلام الصحيح ، وأصبحوا لا يندمجون فى المجتمع الإسلامى أيضاً ويصبحون جزءاً منه ، ويشير إلى ذلك « **إقبال** » بقوله :

« **إن سحر الإفرنج ، أو فنه أذاب الصخور وأسالها ماء** » .

إن الإلحاح على كون الدين قضية شخصية لا علاقة لها بالدولة والحكم ، والمعاملة مع الإسلام كمعاملة الكنائس المسيحية ، ونظرية فصل الدين عن الدولة ، والاعتقاد بأن الدين عائق فى سبيل النهضة والاكتشافات والتحقيق ، وإقامة علماء الإسلام فى صف ممثلى الكنيسة المسيحية الذين كانوا يملكون السلطة المطلقة فى العصور المتوسطة ، وإعطاء المرأة حق الإسهام فى جميع أمور الحياة فى كفاحها والخروج مع الرجل متكاتفة متساوية ، وجعل الحجاب - فى أى شكل كان - تذكاراً لنظام الحرم القديم فى الشرق ، وعلامة استبداد الرجل بالمرأة ، والقضاء عليه خطوة أولى نحو الاصلاح والتقدم ، والاعتقاد بأن قانون الوراثة والنكاح والطلاق اجتهاد فقهاء المسلمين فى العصور المتوسطة ونتيجة طبيعية للمجتمع البدائى المحدود الذى وجد فى القرنين السابع والثامن الميلاديين ، وإدخال التغيير والاصلاحات فى

---

(١٨٧) المصدر المذكور ص ٦٤ .

ذلك المجتمع وصوغه فى قالب المجتمع الغربى بتطبيق المبادىء الغربية ومعاييرها عليه ، فريضة الساعة وواجب الوقت ، وصرف النظر عن الربا والخمر والميسر ، وعن العلاقات الجنسية المنطلقة ، والإيمان بالقومية والاندفاع نحو إحياء الحضارة القديمة واللغات العتيقة ، والإيمان بأهمية الخط اللاتينى وفوائده ، كل هذه النزعات والاتجاهات وما أشبهها التى تحتل محل الحقائق الثابتة لدى الجيل المثقف وتعد من أمارات التنور والنهضة والتقدم ، كل ذلك نتيجة نظام التعليم الغربى وبيئته الفكرية وجوه العلمى والعقلى وتراثه التاريخى ليس غير .

إن القادة وولاة الحكم فى البلاد المسلمة كلهم إنتاج نظام التعليم الغربى ووليد حضارته ، أما الذين لم يتح لهم أن يتثقفوا فى بلد أوروبى وينشأوا فى بيئته فإنهم تعلموا فى مراكز هذا التعليم فى بلادهم ، وتثقفوا بها تحت إشراف ممثليه الكبار ورقابتهم ، إن بعضهم تخرجوا فى الكليات الحربية التى يعنى فيها بالتعليم والتربية الغربية عناية فائقة .

وذلك هو السر فى أن العالم الإسلامى اليوم يتأرجح بين عقليتين وفلسفتين ووجهتين مختلفتين تتصارعان دائماً ، وهذا الصراع ينتهى فى أغلب الأحوال بانتصار فئة هى أكثر قوة وأكثر تسلحاً ، إنه صراع طبيعى ، وهو إن استحق الأسف فلا يستحق الاستغراب أبداً ، بل كان موضع الدهشة والاستغراب إذا لم ينشأ الصراع ولم توجد هذه النزعة إلى التجدد و« **التغريب** » .

حل المشكلة :

وحل هذه المشكلة – مهما تعقد وطال واحتاج إلى الصبر والمثابرة – ليس إلا أن يصاغ هذا النظام التعليمى صوغاً جديداً يلائم عقائد الأمة المسلمة ومقومات حياتها وأهدافها وحاجاتها ، ويخرج من جميع مواده روح المادية والتمرد على الله ، والثورة على القيم الخلقية والروحية وتعبد الجسم والمادة ، وينفخ فيه روح التقوى والانابة إلى الله ، وتقدير الآخرة ، والعطف على الإنسانية كلها ، فمن اللغة والأدب إلى الفلسفة وعلم النفس ، ومن العلوم العمرانية إلى علوم الاقتصاد والسياسة لاتسيطر إلا روح واحدة ، ويقصى الغرب العقلى ويكفر بإمامته وسيادته ، وتجعل علومه

ونظرياته موضع الفحص والدراسة الجريئة[١٨٨] ويوضح ماذا جنى نفوذ الغرب وسيطرته على الإنسانية والمدنية ، وتدرس علومه بشجاعة وحرية ، وتعتبر كمواد خام (Raw material) نصنع منه ما يوافق حاجاتنا ورغباتنا ، وعقيدتنا وثقافتنا .

إن هذا العمل ، ولو كانت فى طريقه عقبات وعراقيل ، ولو تأخرت نتائجه ، ولكنه حل وحيد للموجة الطاغية التى قد اكتسحت العالم الإسلامى من أقصاه إلى أقصاه ، موجة التجدد والتغرب التى تتحدى الكيان الفكرى للإسلام وجهازه الاجتماعى ، وظلت تهدد حياته وبقاءه ، ونتيجة لذلك أصبحت عاطفة الشعوب المسلمة وتضحياتها وجهودها وإخلاصها ووفاؤها(التى هى السبب المباشر الأساسى فى إنشاء الحكومات الإسلامية وتحرير البلاد المستعمرة) وقوداً حقيراً فى نار التجدد والتغرب ، وأصبحت الجماهير المسلمة المخلصة المتحمسة الصامته قطعانا من الغنم يحكم فى رقابها هؤلاء القادة والولاة وتساق إلى أى هدف فى صمت وهدوء .

لقد كان السر فى نجاح الحكم الأجنبى فى الشرق الإسلامى واستمراره طبقة الضباط والموظفين الكبار والحكام الذين ربوا تربية غربية خالصة ونشأوا على الطاعة والنظام ، إنهم وضعوا نظام هذه البلاد ، ومارسوه مائة سنة حسب رغبة ولاتهم الأجانب وفكرتهم وثقافتهم ، فالطريق إلى تغيير اتجاه البلاد الإسلامية والعودة بها إلى الحياة الإسلامية أن يهتم بتعليم هذه الطبقة الإسلامية وتربيتها على أسس الإسلام ، فإنها الطبقة التى تتحكم فى البلاد ، وأن نصلح التعليم الذى يخرج هؤلاء الأشخاص ! .

لقد أصبح من المقرر فى كل بلد واع حريص على سلامته وشخصيته أن المعارف ليست إلا جهازاً يغرز المعانى والأسس التى يؤمن بها هذا الشعب ودرجت

---

(١٨٨) إن كتاب « القرآن والعلم الحديث » للدكتور رفيع الدين نموذج لهذا الأسلوب ، كما توجد هذه الدراسة الجريئة والنقد الحر فى كتاب : « الاسلام على مفترق الطرق » للأستاذ محمد أسد وكتاب « تنقيحات » بالأردية و « الحجاب » للأستاذ أبى الأعلى المودودى ، و « العدالة الاجتماعية فى الاسلام » لسيد قطب .

عليها أجياله ويعيش بها وفيها فى التاريخ الماضى وفى العالم المعاصر ، فمن أول واجبات نظام التربية فى جميع البلاد المتمدنة الواعية أن يغرز هذه العقائد والحقائق فى قلوب الناشئة ويغذيها حتى يؤمن بها كحقائق علمية ويتحمس فى سبيل الدعوة إليها والمصابرة عليها ، وقد أصبح من المقرر عند أساطين التعليم الحديث فى الغرب أن كل شعب من شعوب العالم إنما يصوغ نظامه التعليمى وفق نظرية الحياة التى يؤمن بها ، فيقول (Sir Percy Neinn) الذى يحتل الصدارة بين خبراء التعليم فى بريطانيا فى مقالة له لدائرة المعارف البريطانية :

« لقد سلك الناس مسالك مختلفة فى التعريف بالتعليم ، ولكن الفكرة الأساسية التى تسيطر عليهم جميعاً أن التعليم هو الجهد الذى يقوم به آباء شعب ومربوه لإنشاء الأجيال القادمة على أساس نظرية الحياة التى يؤمنون بها . »

« إن وظيفة المدرسة أن تمنح للقوى الروحية فرصة التأثير فى التلميذ ، القوى الروحية التى تتصل بنظرية الحياة ، وتربى التلميذ تربية تمكن من الاحتفاظ بحياة الشعب وتمديدها إلى الأمام » .

إن جون ديوى John Dewey الذى كان تأثيره فى نظام التربية الأمريكى أكبر من تأثير كل رجل فى هذا العصر ، يقول فى كتابه « **الديمقراطية والمعارف** » (Democracy and Education) إن الأمة إنما تعيش بالتجديد وإن عمل التجديد يقوم على تعليم الصغار ، إن هذه الأمة بطرق متنوعة تكون من الأفراد الأميين ورثة صالحين لوسائلها ونظرية حياتها وتصوغهم فى قوالب عقائدها ، ومناهج حياتها » .

ويقول البروفسور كلارك (Prf Clark) : « مهما قيل فى تفسير المعارف فمما لامحيص عنه أنه سعى للاحتفاظ بنظرية سبق الإيمان بها ، وعليها تقوم حياة الأمة وجهادها فى سبيل تخليدها ، ونقلها إلى الأجيال القادمة » .

لذلك ليس من المعقول وليس من الجائز أن تستورد أمة لها شخصيتها ورسالتها ، ولها عقائدها ومناهج حياتها ، ولها طبيعتها ونفسيتها ، ولها تاريخها وماضيها ، ولها محيطها الخاص وظروفها الخاصة ، نظاماً تعليمياً من الخارج ، ولا أن

تكل وظيفة التعليم والتربية وتنشئة الأجيال وصياغة العقول إلى أناس – مهما بلغوا من البراعة فى تدريس مواد تعليمية ، وإتقان اللغات والفنون – لا يؤمنون بهذه الأسس والعقائد ، ولا يتحمسون لشرحها وتعضيدها ، يقول الأستاذ الأمريكى الدكتور (Dr. J. B. Cnant) فى كتابه التعليم والحرية (Education and Liberty) :

« إن عملية التعليم ليست عملية تعاط وبيع وشراء ، وليست بضاعة تصدر إلى الخارج أو تستورد إلى الداخل ، وإننا فى فترات من التاريخ خسرنا أكثر مما ربحنا باستيراد نظرية التعليم الإنجليزية أو الأوروبية إلى بلادنا » .

وعلى هذا الأساس يتفق المعسكران الشرقى والغربى ، وقد سبق من أقوال خبراء التربية وقادة الفكر فى أوروبا وأمريكا ما دل على وجهة نظرهم إلى المعارف ، وأنها ليست إلا أداة مؤثرة وفية لترسيخ العقيدة ونظر الأمة إلى الحياة والكون وتعميق جذورها فى قلوب الناشئة ونفوسها ، ونقل التراث العقلى والعقائدى والاجتماعى إلى الأجيال القادمة ، وإقناعها بضرورة الاحتفاظ بها ، والمثابرة عليها ، والجهاد فى سبيلها ، فأما المعسكر الشرقى الذى اشتهر بالثورة على جميع الأسس والقيم ، ونقض القديم ، وبلبلة الأفكار فإنه ليس أقل تمسكاً بهذه النظرية نظرية التطبيق بين التعليم والعقيدة التى يختارها والفلسفة التى آمن بها ، وإخضاع التربية كله لهذا الغرض ، وصوغه فى قالبه صياغة دقيقة متقنة – من المعسكر الرأسمالى المنافس ، فيقول عالم طبيعى من كبار علماء البلاد السوفيتيه (McGovern) :

« إن العلم الروسى ليس قسماً من أقسام العلم العالمى ، يشغل فى البلاد السوفيتية ، إنه قسم منفصل قائم بذاته ، يختلف عن سائر الأقسام كل الاختلاف ، فإن سمة العلم السوفييتى الأساسية ، أنه قائم على فلسفة واضحة متميزة ، إن التحقيقات العلمية لاتزال فى حاجة إلى أساس ، وإن أساس علومنا الطبيعية الفلسفة المادية التى قدمها ماركس وإنجلز ولينين وستالين ، إنا نريد أن نخوض (وفى أيدينا هذه الفلسفة) فى معترك العلم الطبيعى ونصارع جميع التصورات الأجنبية ، التى تناهض فلسفتنا المادية الماركسية بكل عزم وقوة[١٨٩] .

---

(١٨٩) (From Hitler to Britber)

ومن المآسى التى تحير العقل وتجرح القلب أن تظل الأقطار الإسلامية وحدها فى فوضى تعليمية ، وغموض والتباس ، بل فى تناقض ومصارعة بين العقائد والحقائق ، التى تؤمن بها ، والغايات والأهداف التى خلقت لأجلها ، والرسالة والدعوة التى تحتضنها ، وبين نظام التربية الذى تطبقه والنظريات التى تستوردها ، والأساتذة الذين لايؤمنون بها ، وعلى الأقل لا ينشطون فى تدعيمها وتنميتها ، ولاتفكر فى التطبيق بين العقيدة التى تتمسك بها ، وبين التعليم الذى تنفق عليه أكبر جزء من إمكانياتها ، ووسائلها ، مع أنها كانت بحملها الرسالة الأخيرة والأمل الأخير للإنسانية أجدر بهذا التطبيق وأحرص على إزالة جميع العناصر التى تجنى على شخصيتها ، ومقومات حياتها ، ومستقبل أجيالها ، وأغير على عقيدتها ودينها ، من الشعوب الغربية بما فيها من الشيوعية والرأسمالية ، والتى تتناولها دائماً بالتغيير والتحوير ، وتعيش هذه الأقطار متطفلة على مائدة الأمم الأجنبية والنظم الدخيلة ، وتقتبس منها وقد تطبقها بحذافيرها ، ولم تفكر إلى الآن فى إخضاع جهاز التربية لرسالتها السماوية ، وعقائدها الثابتة وعلومها المعصومة عن الخطأ والضلال ، وإزالة جميع العقبات فى سبيل هذا الوئام ، والتعاون بين العلم والدين ، وتتصارعه القوى المضادة ، والموجهون المتنافرون ، ويسيطر عليها الفصام النكد بين العلم والدين ، والصراع المستميت بين الحقائق الغيبية والمحسوسات العادية وبين الايمان والشك وبين الاسلام والنفاق ، وبين الخلق والثبات ، والاستغلال والانتهازية ، وشعر بضرورة ذلك بعض علماء الغرب والمنصفين ، فقال أحد كبار أساتذة الإسلاميات فى أمريكا (Clarles L. Gedder) فى كلمته التى ألقاها فى ١٣ مايو عام ١٩٦٦ م فى كراتشى :

« إن الإسلام يملك جميع الخصائص التى تستطيع أن تنشر السلام والانسجام فى العالم ، إن الغرب يؤمل من المسلمين الذين يحملون الدين الذى أنزله الله ، وكان لهم ماض مجيد مشرق أن يقدموا مبادىء الحياة وفلسفتها إلى الغرب — وبذلك يستطيعون أن يحملوا راية السلام التى عينت لهم فى عالم الغد » .

وذلك لايكون إلا بإنشاء الجيل المؤمن المثقف الذى يجمع بين العقيدة والعلم ، ويؤمن بخلود رسالته وصلاحيتها لكل جيل وعصر ، وإنها هى المنقذة للعالم من النهاية

الأليمة التى ترتقبه ، ومن المستنقع الذى يتردى فيه ، وذلك لايمكن كمالا لايخفى إلا بوجود نظام للتربية يقوم على تطبيق بين العقيدة والثقافة ، وبين قوة العاطفة وإشراق الروح ، وإلهاب جذوة الإيمان ، وبين العلم الواسع ، والفكر النير ، ومعرفة أحدث ماوصلت إليه الأجيال البشرية من تجربة واكتشاف .

المستشرقون ونفوذهم فى ميدان التفكير :

المستشرقون وعلماء الغرب الذين كرسوا حياتهم على دراسة العلوم الإسلامية ، ويملكون إعجاب الأوساط العلمية فى الشرق والغرب وإجلالها وتقديرها ، ويقام لآرائهم ونظرياتهم فى البحوث الإسلامية فى الشرق وزن كبير أثاروا فى قلوب قادة العالم الإسلامى اليوم وزعمائه – ممن تثقفوا فى مراكز الغرب الثقافية الكبرى أو درسوا الإسلام بلغات الغرب – شبهات حول الاسلام والمصادر الاسلامية ، وأحدثوا فى نفوسهم يأساً عن مستقبل الاسلام ومقتاً على حاضره ، وسوء ظن بماضيه ، كما أن لهم سهماً كبيراً فى الحث على نعرة « إصلاح الديانة » و « إصلاح القانون الإسلامى » .

إن تاريخ هذا الاستشراق قديم يرجع إلى القرن السادس عشر الميلادى بالوضوح ، والعوامل التى كونت هذا التاريخ إنما هى دينية وسياسية واقتصادية ، أما العامل الدينى فواضح لا غموض فيه ، وهو يهدف إلى نشر الديانة المسيحية وتبليغ دعوتها ، وتصوير الإسلام تصويراً يثبت فضل المسيحية ورجحانها على الإسلام ، ويبعث فى الطبقة المثقفة إعجاباً بالمسيحية وحرصاً عليها ، ولذلك نرى أن الاستشراق و « التبشير » يسيران معاً فى أغلب الأحوال وأن عدد المستشرقين الأكبر أساقفة ، وعددًا كبيرًا منهم يهود ديانة وجنسا .

والعامل السياسى هو أن المستشرقين بصفة عامة كانوا رواد الدول الغربية فى الشرق ، ومن واجبهم أن يمدوها بمددهم العلمى ، وكانوا مصادر وثيقة للغرب يطلع بها على تفاصيل ومعلومات عن تقاليد الشعوب الشرقية وبلدان الشرق ، وعن طبيعتها ومعيشتها ، ولغاتها وآدابها ، حتى عواطفها ونفسياتها ، وذلك ليتسنى للغرب أن يبسط نفوذه وسلطته فى الشرق .

وزد إلى ذلك ما يقوم به هؤلاء المستشرقون من الرد على الأفكار والعقائد وقمع الحركات والأوضاع التى تسبب للدول الغربية صداعاً وعرقلة، وتحدث لها مشكلات وعقبات ، ويحاولون خلق جو لاتكاد تخطر فيه معارضة، بل تحدث هالة من التقديس والإجلال حول حضارتهم حتى يعترفوا بمآثرهم وجلائل أعمالهم ، ينبعث فيه دافع الاقتداء والتقليد الذى يحملهم على الاقتفاء بآثارهم فى سبيل إصلاح البلاد وترقيتها ، وتظل سلطة حضارتهم وعقليتهم مضمونة على النفوس ، رغم ذهاب دولهم ونهاية حكمهم .

ولذلك فقد شعرت الدول الغربية بقيمة المستشرقين ومكانتهم شعوراً كاملا وساعدهم زعماؤها عن كل طريق ممكن ، ولتحقيق هذا الغرض يصدر المستشرقون من مختلف أقطار الغرب عدة مجلات ورسائل حول العالم الاسلامى وينشرون فيها مقالات تحليلية ومواد تحقيقية تبحث عن مشكلات العالم الاسلامى وميوله ونزعاته ، ولاتزال تصدر مجلة « الشرق الأوسط » (Journal of Near East) ومجلة « العالم الإسلامى » (The Muslim World) من أمريكا، ومجلة (Le Monde Misulmans) من فرنسا .

كما أن هناك عاملا اقتصادياً للاستشراق يتخذه كثير من المثقفين كمهنة ناجحة ، وكثير من أصحاب المكتبات التجارية والقائمين عليها ، يشجعون نشر المؤلفات والكتب التى تدور حول الإسلاميات والشرقيات ويشرفون على نشرها لما يرون لها من سوق نافقة فى أوروبا وآسيا ، وتنال هذه المؤلفات من القبول والإعجاب ما يجعلها عظيمة الانتشار كثيرة الذيوع، وهى لاشك وسيلة لتجارة رابحة ، وكسب أموال خطيرة .

غير أن عدداً من المثقفين يتبنون موضوع الشرقيات والاسلاميات دون تأثير هذه العوامل ، وبمجرد ذوقهم وشغفهم ويبذلون فيه جهوداً ضخمة ، ويكون من المكابرة والتقصير ألا ينطلق اللسان بمدحها والثناء عليها ، وبفضل جهودهم برز كثير من نوادر العلم والمعارف التى لم تر الشمس منذ قرون ، إلى النشر والاذاعة ، وأصبحت مصونة من الورثة الجاهلين ، وعاهة الأرضة ، وكم من مصادر علمية ووثائق

تاريخية لها مكانتها وقيمتها صدرت لأول مرة ، بفضل جهودهم ، وقرت بها عيون العلماء فى الشرق .

ورغم هذا الاعتراف بفضلهم وعلمهم لايمنع الكاتب شيء من أن يصرح أن طائفة المستشرقين هى التى لم يرافقها التوفيق الإلهى فى غالب الأحيان على مادرسته من علوم القرآن والسنة والسيرة النبوية والفقه الإسلامى والأخلاق والتصوف ، وغاصت فى أحشائها ، ولكنها خرجت صفر اليد لا حظ لها من الإيمان واليقين بل وزادت الفجوة بينها وبين هذه الغلوم لما أضمرته فى قلبها من عداوة للإسلام ، وبعد عن الحق ، وأكبر سبب لذلك هو أن ثمرة الأعمال تابعة لغايتها وهدفها ، والمعلوم أن غاية هؤلاء المستشرقين بوجه عام إنما هى البحث عن مواضع الضعف وإبرازها لأجل غاية سياسية أو دينية ، فلا يرون فى مدينة ذات بهجة إلا المزابل والمراحيض ، كما هو دأب مفتشى النظافة فى كل مكان .

وليس حرمان هؤلاء المستشرقين محدوداً إلى ذواتهم فحسب ، ولو كان ذلك وحده لم ينل منا هذا الاهتمام ، ولكن الناحية المهمة ذات التأثير العميق لهذه القضية هى أن المستشرقين يركزون كل جهودهم ومساعيهم على تعريف مواضع الضعف وتمثيلها فى صورة مروعة مضخمة ، إنهم ينظرون إليها عن طريق الآلة المكبرة ويعرضونها كذلك للقراء حتى يروا الذرة جبلا ، والنقطة بحراً ، وقد ظهرت حذاقتهم وذكاؤهم فى تشويه صورة الإسلام .

ومن دأبهم أن يعينوا لهم غاية ويقرروا فى أنفسهم تحقيق تلك الغاية بكل طريق ، ثم يقوموا لها بجمع معلومات - من كل رطب ويابس - ليس لها أى علاقة بالموضوع ، سواء من كتب الديانة والتاريخ أو الأدب والشعر أو الرواية والقصص ، أو المجون والفكاهة ، وإن كانت هذه المواد تافهة لاقيمة لها ويقدمونها بعد التمويه بكل جراءة ويبنون عليها نظرية لايكون لها وجود إلا فى نفوسهم وأذهانهم .

إنهم فى أغلب الأحيان يذكرون عيباً واحداً ويجودون لتمكينه فى النفوس بذكر عشرة محاسن ، وذلك كى يخشع القارىء أمام سعة قلبهم وسماحتهم ، ويسيغ ذلك العيب الواحد الذى يكفى لطمس جميع المحاسن ، وإنهم يصورون بيئة دعوة أو شخصية ، وتاريخهما ، وعواملهما الطبيعية بلباقة وبلاغة تصوران أن هذه الدعوة

والشخصية لم تكن، إلا نتاج هذه البيئة أو العوامل ورد فعلها الطبيعى ،فيذكر القارىء أى اتصال بمصدر غير مادى ولا يعترف لهما بقدس وعظمة ، وكثير من هؤلاء المستشرقين يدسون فى كتاباتهم مقداراً خاصاً من « السم » ويحترسون فى ذلك فلايزيد على النسبة المعينة لديهم حتى لا يستوحش القارىء ولايثير ذلك فيه الحذر ولايضعف ثقته بنزاهة المؤلف ، إن كتابات هؤلاء أشد خطراً على القارىء من كتابات المؤلفين الذين يكاشفون العداء ، ويشحنون كتبهم بالكذب والافتراء ، ويصعب على رجل متوسط فى عقليته أنْ يخرج منها أوينتهى من قراءتها دون الخضوع لها .

لقد قام المستشرقون بعملية التحقيق فى كل موضوع من مواضيع الكتاب والسنة والسيرة النبوية ، والفقه والكلام ، كما تحدثوا عن الصحابة الكرام والتابعين والأئمة المجتهدين ، والمحدثين والفقهاء ، والمشائخ والصوفية ، ورواة الحديث ، وعن فن الجرح والتعديل ، وأسماء الرجال ، وحجية السنة ، وتدوينها ، ومصادر الفقه الإسلامى ، وتطوره فى أسلوب لايخلو عن التشكيك وإثارة الشبهات ، ويكفى لزعزعة العقيدة والترغيب عن الإسلام لرجل ذكى ليس له نظر عميق فى هذا الموضوع ، ولسنا الآن بصدد استعراض علمى وإيضاح تحريفاتهم وأخطائهم الفنية ودجلهم وتلبيسهم ، فإنه لاشك موضوع علمى مهم ، وخدمة دينية عظيمة ، تحتاج إلى مجمع علمى منظم .

ويكفى أن نقدم الآن ملخصاً لدعوتهم وتربيتهم – بغاية إيجاز – التى يعرضونها على قرائهم المثقفين والشباب الناهض مراراً وتكراراً بعناوين مختلفة ، وتسيغها عقول هؤلاء الشباب كحقيقة بديهية معقولة ، ولأن هذه الدعوة والتربية لها صلة قريبة بحركات الاصلاح والتجديد فى الأقطار الاسلامية ، ولا يمكن فهمها والاطلاع على حقيقتها بدون ذلك ، نقدم فى هذه المناسبة ذلك الملخص مقتطفاً من كتاب العالم المصرى الدكتور محمد البهى الذى جمعه فى كتابه « **الفكر الاسلامى الحديث** » ، يقول :

١ – إن المجتمع الإسلامى ، فى صلته بالإسلام لم يكن على نحو قوى إلا فى فترة قصيرة ، هى الفترة الأولى على عهد بدائية المجتمع الإسلامى ، وبدائية هذا

المجتمع هى التى أوجدت نوعاً من التلاؤم بين الحياة فيه وتعاليم الإسلام ، ثم بعد مضى هذه الفترة القصيرة البدائية اتسعت الفجوة بين الطرفين : بين المجتمع والإسلام ، كمصدر توجيه فى الحياة ، وكلما تطورت الحياة للمجتمع الإسلامى بفعل العوامل الخارجية ، والثقافية والسياسية والاقتصادية ، تخلف الإسلام عن أن يجارى تطور الحياة لهذا المجتمع ، ومازالت الفجوة تتسع حتى أعلنت تركيا الحديثة – مقر آخر خلافة إسلامية – إبعاد الإسلام عن مجال الحياة العامة ، وتركه فى ضمير الفرد مستوراً ، لا يعبر عنه الفرد إلا لنفسه فقط ، وفى غير إعلان أو حماسة .

٢ – إن التخلف عن تنفيذ تعاليم الإسلام ، تمليه الضرورة الاجتماعية تحت ضغط ظروف الحياة المتجددة التى لم يستطع الإسلام أن يكيفها فى ضوء تعاليمه ، ولم يستطع أن يلائم بين تعاليمه وبينها ، والتشدد فى تطبيق تعاليم الإسلام معناه إذن : العزلة فى الحياة ، والتخلف فى استخدام وسائل الحضارة ، والترحيب بالفقر والمرض والجهل ، للسكان المسلمين على نحو ما هوالحال ببلاد المملكة العربية السعودية ، إذ هى البلد الوحيد بين بلاد الإسلام التى جعلت الحكومة الرسمية تعبيراً عملياً عن الإسلام ، وإذن هى النموذج فى تطبيق الإسلام .

٣ – إن التطور ، وهو قانون الحياة العام الذى لا مفر من الخضوع له ، يجب أن يستخدمه المسلمون فى إسلامهم ، ليسايروا العالم الغربى الحديث ، ولينجوا من أسباب الضعف والفساد ، ويجب لهذا أن يتطوروا بالاسلام نفسه كدين .

الجماعة الإسلامية – كى تتطور – يجب أن تسير وفق المثل الغربية وتتفاعل معها فى بيئتها الشرقية ، إذ أن اتجاهات الغربيين فى الفكر ، وفى الحياة ، قامت على مجموعة من التجارب الإنسانية ، واستخدموا فى تكوينها الطريقة « **العملية** » وهى الطريقة التى لا تتأثر بخرافة أو عقيدة خاصة ، مستهدفة خير الإنسانية وحدها .

وقد شعر المستشرقون بعد تجربة طويلة امتدت نحو قرنين أن الطريقة التى مارسوها فى تطوير عقلية المسلمين وتسييرها وفق المثل الغربية والاتجاهات المادية لم تنجح حق النجاح ، وعثروا على الخطأ الأساسى الذى سبب لهم بعض الإخفاق وجعل جهودهم لم تثمر كل الإثمار ، بل قد واجهت بعض الأحيان رد فعل عنيف

من الأوساط الإسلامية كان خطراً من وجهة نظر الدعوة التبشيرية ، فما زالوا يستعرضون جهودهم ونتائجها وتأثيرها فى ضوء التجربة والواقع حتى توصلوا إلى أن يحدثوا فى طريقتهم وأساليب دعوتهم تغييراً أساسياً ، وذلك بأن يقدموا للإسلام تعبيرات جديدة ويدعوا إلى حركة إصلاح الديانة بدلا من أن يغيروا عقلية المسلمين ويقوموا بتطويرها ، وأن تنال جميع حركات التجديد وإصلاح الديانة حيثما وجدت تشجيعاً وتأييداً منهم .

ويدل على هذا التغيير فى العقلية ، والطريقة الجديدة التى ابتكروها العبارة التالية التى نقتطفها من كتاب (Towards Understanding Islam) للكاتب (Harry Gaylord Dorman) ، يقول :

« يتوقع من المبشرين فى الأقطار الإسلامية فى ظرف عدة أعوام أن تثمر جهودهم فى تجديد الإسلام وتطويره أكثر من تطوير عقلية المسلمين وتغييرهم ، ومما لاشك فيه أن هذا مجال واسع مفتوح للعمل ، لا يغفل عنه فى أى حال » .

ولوتأملنا قليلا ظهر أن حملة لواء الاصلاح والتقدم (قادة التجديد والتغريب) الذين نشأوا فى العالم الاسلامى فى ظرف نصف قرن مضى ، تتجلى فى أفكارهم وآرائهم وأساليب حياتهم روح هؤلاء المستشرقين ودعوتهم وتربيتهم ، حتى أننا نستطيع القول بأن أفكار المستشرقين إنما هى أساس تفكير هؤلاء القادة ومبدأ عملهم .

إن هؤلاء المستشرقين إنما أضعفوا مثل الاسلام وقيمه العليا فى جانب ، وأثبتوا تفوق المثل الغربية وعظمتها فى جانب آخر ، وإنهم فسروا تعاليم الإسلام تفسيراً يضعف قيمة القيم الإسلامية ، ويضعف علاقة المسلم المثقف بالدين ويقع فريسة الارتياب والشك بالإسلام ، أو يضطر إلى الاعتراف بأن الإسلام لا يتفق وطبيعة الحياة الحاضرة ، وإنما هو عاجز عن مسايرة حاجات العصر ومقتضاياته وبينما يقول هؤلاء المستشرقون : إن من التشبث بالتقاليد والعض عليها بالنواجذ والرجعية أن يعمل الانسان بالاسلام – الذى هو دين الله المختار الخالد – فى هذا العصر الراقى المتقدم المتطور بسرعة وفى استمرار ، إذا هم يدعون الناس إلى إحياء الحضارات العتيقة الغارقة فى التاريخ القديم ، وإحياء اللغات البالية التى فقد كل صلاحيتها للبقاء ، ودفنت تحت أنقاض الماضى السحيق منذ آلاف السنين ، ولم يكن الغرض بمثل هذه البرامج إلا أن

يضطرب حبل المجتمع الاسلامى و تتمزق و حدة الاسلام ، و تواجه الحضارة الاسلامية واللغة العربية ضرراً ، وتنال الجاهلية القديمة حياة من جديد ، وقد نجحت كتاباتهم وجهودهم فى إنشاء طائفة من تلاميذهم الذين قاموا بحركة إحياء الحضارة الفرعونية ولغتها فى مصر ، والحضارة الآشورية ولغتها فى العراق ، والبربرية فى إفريقيا الشمالية ، والفينيقية فى سواحل فلسطين ولبنان ، ووجد لها دعاة وأتباع .

يقول « جب » فى كتابه « **وجهة الإسلام** » :

« .. وقد كان من أهم مظاهر فرنجة العالم الاسلامى تنمية الاهتمام ببعث الحضارات القديمة التى ازدهرت فى البلاد المختلفة التى يشغلها المسلمون الآن ، فمثل هذا الاهتمام موجود فى تركيا وفى مصر وفى إندونيسيا وفى العراق وفى إيران ، وقد تكون أهميته محصورة الآن فى تقوية شعور العداء لأوروبا ، ولكن من الممكن أن يلعب فى المستقبل دوراً فى تقوية الوطنية الشعوبية وتدعيم مقوماتها – (ص ٣٤٢) .

ويقول الأستاذ محمد محمد حسين فى كتابه (الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر) معلقاً على دعوة الفرعونية فى مصر التى نشطت فى مصر فى أوائل هذا القرن :

« ..واجتاحت مصر موجة من الفرعونية تحاول أن تغزو سائر النواحى الثقافية ، وتدعو إلى إقامة الفنون على أسس فرعونية، وتزعمت صحيفة « **السياسة الأسبوعية** » هذا الاتجاه الجديد ، فأفسحت صدرها لدعايته ، وأعان عليه رئيس تحريرها محمد حسين هيكل فى شطر كبير من حياته [١٩٠] .

أولئك هم المستشرقون وتلاميذهم الذين بدأوا يقولون بكل قوة :

« إن لغة القرآن العربية الفصحى هى لا تساير حاجات العصر ، فيجب أن تعم اللغة العامية حتى تصبح لغة الجرائد والمؤلفات » وقد تكررت منهم هذه الدعوة بصورة شائقة جذابة كسبت تأييد المثقفين فى مصر وأوقفتهم بجانبها ، وقد عنيت

(١٩٠) الجزء الثانى من الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر ص ١٣٥

حكومات الاحتلال وبعيدو النظر من الولاة والمستعمرين والمفكرين الغربيين بهذا الموضوع عناية فائقة ، ونشطوا فى تحبيب هذه الفكرة وترويجها ، وقد كان لهذه الدعوة دوى فى مصر فى فجر هذا القرن أفزع كثيراً من المحبين للإسلام والغيارى فى اللغة العربية ، يقول الأستاذ محمد محمد حسين فى كتابه :« **الاتجاهات الوطنية** » :

« .. ثم هاجت المسألة مرة أخرى فى أوائل سنة ١٩٠٢ م حين ألف أحد قضاة محكمة الأستئناف الأهلية فى مصر من الإنجليز – وهو القاضى ولمور – كتاباً سماه لغة القاهرة ، وضع لها فيه قواعد ، واقترح اتخاذه لغة للعلم والأدب ، كما اقترح كتابتها بالحروف اللاتينية ، وتنبه الناس للكتاب حين أشادت به « **المقتطف** » فى « **باب التقريظ والانتقاد** » فحملت عليه الصحف ، مشيرة إلى موضع الخطر من هذه الدعوة التى لا تقصد إلا إلى محاربة الاسلام فى لغته ، وفى ذلك الوقت كتب حافظ إبراهيم قصيدته المشهورة ، التى يقول فيها ، متحدثاً بلسان اللغة العربية [١٩١]

رجعت لنفسى فاتهمت حصاتى

وناديت قومى فاحتسبت حياتى ..الخ ..

ويقول فى موضع آخر :

« وثارت المسألة من جديد ، حين دعا إنجليزى آخر ، كان مهندساً للرى فى مصر – وهو السير وليم ولكوكس – سنة ١٩٢٦ م إلى هجر اللغة العربية ، وخطا بهذا الاقتراح خطوة عملية ، فترجم الانجيل إلى ما سماه « **اللغة المصرية** » ونوه سلامة موسى بالسير ولكوكس وأيده فثارت لذلك الناس من جديد ، وعادوا لمهاجمة الفكرة ، والتنديد بما يكمن وراءها من الدوافع السياسية ، ولكن الدعوة استطاعت أن تجتذب نفراً من دعاة الجديد فى هذه المرة ، فاتخذوا القومية والشعبية ستاراً لدعوتهم ، حين كان لمثل هذه الكلمات رواج ، وكان لها بريق خداع يعشى الأبصار ، وحين كان الناس مفتونين بكل ما يحمل هذا العنوان فى أعقاب ثورة شعبية تمخضت عن

---

(١٩١) ديوان حافظ إبراهيم ١ :٢٥٣ .

« الفرعونية » وحين كانوا يتحدثون بما صنع الكماليون من استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية ، وترجمة القرآن للغة التركية وإلزام الناس بالتعبد به ، وتحريم تدريس العربية فى غير معاهد دينية محدودة وضعت تحت الرقابة الشديدة ، وقد مضوا من بعد فى مطاردة الكلمات العربية الأصل ينفونها من اللغة التركية كلمة بعد كلمة [١٩٢]

ولونجحت هذه الدعوة لأنتجت توزع اللغة العربية بين لغات شتى ، وانقطاع صلة العرب عن القرآن والأدب الإسلامى ، وسبب للغة العربية أن تصبح لغة غريبة لهم ، وتفقد مكانتها ، ويحرم العرب كلهم تراثهم الدينى وروحه ،فيقعوا فريسة الإلحاد والردة والخلافات والاضطرابات بكل سهولة .

كما أنهم دعوا إلى اتخاذ اللاتينية مكان الحروف العربية ، وأثبت تلاميذهم ضرورته من حين لآخر ، وجهروا بذكر فوائده وفضله ، ووقع ذلك فعلا فى مصر كنانة الإسلام ، وحصن العربية ، ويقول الأستاذ محمد محمد حسين :

« تقدم عضو من أبرز أعضاء المجمع العلمى المصرى ، وهو عبد العزيز فهمى – ثالث الثلاثة الذين بنى عليهم الوفد المصرى – فى سنة ١٩٤٣ باقتراح الكتابة العربية بالحروف اللاتينية ، وشغل المجمع ببحث اقتراحه عدة جلسات ، امتدت خلال ثلاث سنوات ، ونشر فى الصحف وأرسل إلى الهيئات العلمية المختلفة ، وخصصت الحكومة جائزة مقدارها ألف جنيه لأحسن اقتراح فى تيسير الكتابة العربية [١٩٣]

والمعلوم أن لا ينتج إلا حرمان الأمة العربية وجهلها بقراءة القرآن على وجه صحيح ، وفقدان التراث العلمى – الذى لايوجد له نظير فى سعته – قيمته وأهميته .

ونستطيع أن نعرف هدف المستشرقين ومدى أفكارهم ، ودقة نظرهم فى

---

(١٩٢) الجزء الثانى : الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر ص ٣٣٦ .

(١٩٣) أيضاً ص ٣٣٨ .

تحقيق غرضهم وعدائهم السافر للإسلام بهذه الاقتراحات والتوصيات الآنفة الذكر ، وإن مؤلفات أغلبية هؤلاء المستشرقين تستأصل أُسس الإسلام وتشكك فى مصادره بما فيها الفقه والحديث ، وتحدث جو الاضطراب الفكرى والارتياب فى المجتمع الإسلامى ، وتبذر فى القلوب بذور الشك والريبة فى تفقه حملة الإسلام وذكائهم (الفقهاء والمحدثين) وقد تحمل مؤلفاتهم من الأخطاء العلمية الفاحشة وسوء الفهم ، وعدم الرسوخ فى اللغة وقواعدها ومن التحريف والتزوير ما يدعو إلى الضحك والعجب ، ولكن أكثر مؤلفاتهم نالت قبولا عاماً فى الشرق والغرب ، وأثارت إعجاباً فى الطبقة المثقفة الحديثة (وفيها عدد من المثقفين الناضجين) بحسن ترتيبهاوالاستنباط الدقيق للنتائج ، وطريقة عرضها العلمية ، وهى طبقة لا تشفى غليلها مؤلفات علماء الشرق الأقحاح .

ولكى نعرف المكانة التى يحتلها علماء الغرب . والثقة التى ينالونها فى الشرق يجب أن نعلم أن المجامع العلمية الثلاثة فى الشرق الأوسط ، أعنى المجمع اللغوى فى مصر ، ومجمع اللغة العربية فى دمشق ، والمجمع اللغوى العراقى فى بغداد ، لكل واحد منها عدد وجيه من الأعضاء المستشرقين الذين يستفاد من آرائهم ودراستهم .

ومما يدل على ضعف العالم الاسلامى والعربى وفقر وسائلهما العلمية أن هذين العالمين كليهما يعتمدان على مؤلفات المستشرقين فى المواضيع الإسلامية الخالصة منذ بعيد ، وهى مؤلفات تحتل مكانة « **الكتاب المقدس** » (Gospel) فى موضوعها ، فإن كتاب ر . أ . نكلسن ، (R.A.Nicholson) فى موضوع تاريخ آداب العرب (A.Literary History) وكتاب الدكتور حتى (Dr.H.P.Hitti) عن تاريخ العرب والإسلام (Hiatory of Arabs) وكتاب كارل بروكلمان (Carl Brocklemann) فى تاريخ الآداب العربية(Ceschtirder Arabichen Lierature) باللغة الألمانية وترجمتها إلى الإنجليزية باسم (The Histoty of Ard Litrtature) وكتاب شاخت (Schacht) فى مصادر الفقه الإسلامـــــــى باسم :(Jurisprufrmce The Hregins of Mohammafans)

كل ذلك مما ينفرد فى موضوعه ، ويعد مصدراً علمياً له أهميته وقيمته بجامعات الشرق فى قسمها العربى والإسلامى ، وعليه أكبر اعتماد المؤلفين فى الأقسام الإسلامية فى الجامعات.

إن « **دائرة المعارف الإسلامية** » التى ألفها المستشرقون ولو كان فيها لبعض المسلمين إسهام ضئيل ، وصدرت منها طبعات متعددة ، فى أوروبا وأمريكا ، تعد أكبر مصدر للمعلومات والحقائق الإسلامية ، وأثمن ذخيرة لها ، وتعتبرها بعض البلاد الإسلامية اليوم (كمصر وباكستان) أساساً للمعلومات الإسلامية وتقوم بترجمتها إلى العربية والأردية .

ولسّد تأثير المستشرقين الهدام ، وإصلاح هذا الفساد يجب أن يقوم علماء الإسلام من رجال البحث والتفكير بالكتابة حول الموضوعات العلمية ، ويقدموا للعالم الإسلامى المعلومات الإسلامية المؤكدة ، ووجهة نظر الإسلام الصحيحة ، مع مراعاة الجوانب المحمودة التى يمتاز بها المستشرقون ، بل والزيادة فيها ، كما يجب أن تكون كتابتهم ومؤلفاتهم ممتازة من حيث أصالة التحقيق ، وسعة الدراسة ، وعمق النظر وتأكد المصادر وصحتها ، واستدلالها اللغوى بالنسبة لكتابات المستشرقين ومؤلفاتهم ، وأن تكون حاملة لجميع نواحى الاستحسان ، بعيدة عن الأخطاء والنقائص العلمية .

ومما يجب أيضاً هو أن يقوم هؤلاء العلماء والمفكرون باستعراض مؤلفات المستشرقين العلمية ومحاسبتها فى ضوء الحقيقة والواقع ، حتى ينكشف الغطاء عن تلبيساتهم ، وأخطائهم فى فهم النصوص وبيان المعنى ، ويبدو للناس ضعف مصادرهم التى يعتمدون عليها وأخطاء النتائج التى يستنبطونها منا ، ويطلعوا على ما يضمرون فى نفوسهم من عداء للإسلام ، وما يكنونه من أغراض سياسية ودينية فى خفايا دعوتهم وتربيتهم ، وكل ذلك مؤامرة على الاسلام والأمة الاسلامية يجب إحباطها .

أما بدون الجمع بين هذا العمل الإيجابى الذى يقتضى تأليف كتب تحليلية وأبحاث عميقة حول المواضيع الاسلامية ، وبين العلم السلبى (بالمحاسبة العلمية) فلا تتحرر الطبقة المثقفة فى العالم الإسلامى من تأثير أفكار المستشرقين المسمومة ، تلك الطبقة التى تعد من أذكى الطبقات فى العالم الاسلامى وأكثرها طموحاً ، والتى تدرس فى جامعات أوروبا وأمريكا الكبرى ، أو فى جامعات بلادها ، وتحب دراسة الإسلام بلغات الغرب التى تتقنها ، وما لم تتحرر هذه الطبقة المثقفة التى ترزح تحت

تأثير أفكار الغرب وعلمائه من تأثيرهم فلا تزال تواجه الأقطار الإسلامية عاصفة الاضطرابات العقلية ، والردة الفكرية ، ويتبنى حملة الجديد والتغريب ، أفكارهم وآراءهم ، حتى إذا تمت لهم سلطة سياسية حاولوا تطبيق كل ما ينافى روح الإسلام على المجتمع وتنفيذه فى الحكم ، ويشكلون بذلك مجتمعاً يشبه المجتمع الإسلامى القديم فى الجنس والقوم فحسب ، ولكنه يتجه نحو الغرب والمادية فى الحقيقة والواقع ، ويصح عند ذاك أن يخطب قادة العالم الإسلامى وعلماؤه بهذا البيت الفارسى الذى معناه ! :

مهلا أيها الأعرابى فإن الطريق الذى اخترته يذهب بك إلى باكستان ، وأنت تريد الكعبة ! .

تخلف العلوم الإسلامية وركود الفكر الإسلامى :

ومن العوامل التى أثرت فى انسياق الطبقة المثقفة فى العالم الاسلامى وقادته – الذين بيدهم أزمة الحكم – مع الحضارة الغربية وبعدهم عن الدين وانصرافهم عنه ، ذلك الجمود العقلى والركود الفكرى الذى يطرأ على مراكز العلوم الإسلامية وعلى علمائها من مدة طويلة ، ومن أجل ذلك عجزت هذه العلوم الحافلة بالحياة والروح ، الصالحة للنمو والازدهار عن إقامة برهان على صلاحيتها التى تتدفق بها ومسايرتها مع الحياة المتطورة ، وذلك فى عصر كانت حاجتها فيه إلى ذلك أشد وأعظم من حاجة كل عصر .

وقد كان المنهج القديم للدراسات الاسلامية فى العصر الماضى يتطور بين حين وآخر يساير الحياة ومطالبها ، ولم تكن هناك ثورات ولا انقلابات إلا نادراً ، ولم يكن فى وضعها فرق جوهرى ، وإنما كانت تلك الثورات عبارة عن تبادل الشخصيات والأسر الحاكمة ، ولكن واضعى المنهج التعليمى فى ذلك العصر وزعماء الحركات العلمية فى العالم الاسلامى آنذاك كانوا يقومون بتعديلات مستمرة فى المناهج تشهد بذكائهم واعترافهم بالواقع .

ولما جاء القرن التاسع عشر الميلادى الذى لم تكن فيه انقلابات الأسر

والشخصيات الحاكمة ، وإنما كانت ثورة حضارية وانقلاباً شاملًا ، فزالت حضارة وجاءت أخرى وذهبت قيم وحلت محلها قيم أخرى ، وأصاب المنهج الدراسى جمود لم يسمح له بالتجاوز عن خطه المرسوم ، وأبى كل تعديل أن يقبله ، وظهر إلحاح شديد على البقاء على الخط القديم والأسلوب الذى اختاره المتقدمون فى وضع المنهج الدراسى فى عصورهم ، ومن بينهم الشيخ نظام الدين اللكهنئوى مؤسس « **الدرس النظامى** » (**١١٦١ هـ**) فى الهند وعلماء الأزهر فى القرن الثامن عشر فى الشرق الأوسط ، فقد أُغلق باب الاجتهاد ، ووقف توسيع نطاق الفقه الإسلامى فى القضايا والمشكلات الجديدة التى خلفتها الحضارة الحديثة والاكتشافات الجديدة ، وبالرغم من أن الاجتهاد بشروطه الضرورية كان فريضة علماء الإسلام ووسيلة لتبليغ رسالة الإسلام إلى العصر المتطور أصبح مقفل الباب مسدود الطريق كما صور ذلك (١٩٤) أحد علماء العرب المعاصرين ببلاغة إذ قال : « **فباب الاجتهاد ليس ممنوع الفتح فى نظرهم ، بل هو مفقود المفتاح** » .

إن أساليب البيان وطرق التعبير الآسرة للقلوب التى كانت خاصة العلوم الاسلامية ومعارف القرآن وشريعته مفقودة أو كادت ، وذلك فى عصر تجدد فيه التعبير وأساليب البيان ، كما ندر وجود العلماء النوابغ الذين يستطيعون إقناع الجيل الجديد بخلود الحقائق الدينية وصلاحية الحياة وتفوق الاسلام ، ويزيحون الستار عن وجه الحضارة الحديثة بنقدهم العلمى المتزن وتحليلهم الدقيق .

الحاجة إلى تدوين الفقه الإسلامى :

ومما لا شك فيه أن العالم الإسلامى فى أجزائه المختلفة أنجب شخصيات دينية ممتازة أثارت الإعجاب فى بعض أوساط العلم الواسعة بنبوغها وفضلها ، وأنقذت طبقة كبيرة من الردة الفكرية ، كما قام بعض العلماء فى بعض الأقطار بخدمة الفقه

---

(١٩٤) الأستاذ مصطفى أحمد الزرقا أستاذ الفقه الاسلامى بجامعة دمشق سابقاً .

الإسلامى ومشكلاته فى إطارهم الشخصى ، وعرضوا الفقه الإسلامى فى ثوب قشيب ، ولكن العالم الإسلامى تعوزه حركة علمية قوية دولية ، تعرّف الطبقة المثقفة الجديدة بذخائر الإسلام العلمية وتراثه المجيد ، وتنفخ فى العلوم الإسلامية روحاً من جديد ، وتثبت على العالم المتمدن أن الفقه الإسلامى وقانونه من أرقى القوانين وأوسعها فى العالم ، وهو يقوم على أساس من المبادىء الخالدة ، التى لن تبلى ولن تفقد صلاحيتها فى يوم من الأيام ، وهى تصلح لمسايرة الحياة الإنسانية فى كل زمان ومكان ، وتغنيها عن كل قانون وضعته أيدى الناس .

إنه عمل ضخم يقتضيه الوقت الحاضر ، وهو نداء الوقت ، وصوت الساعة ، وبذلك نستطيع أن ننقذ العالم الاسلامى والمجتمع الاسلامى المعاصر من الردة الفكرية والاجتماعية ، ونسد تيار التغريب والتجدد الجارف ، الذى يجرف العالم الاسلامى اليوم بكل قوة وشدة وطغيان ، ولقد صدق محمد إقبال ، إذ أبدى أهمية هذا العمل ونتائجه البعيدة المدى ، يقول :

« إننى أومن وأعتقد أن من درس أصول قانون العصر الحاضر ، وأثبت خلود تعاليم القرآن وبقاءها فى ضوء دراسته إنما هو مجدد الاسلام فى عصره وأكبر خادم للنوع البشرى ، والمسلمون فى كل قطر إما مشغولون بحرب الاستقلال والتحرير ، أو عاكفون على دراسة القانون الاسلامى ، وبالجملة فإن هذا وقت العمل ، لأن الاسلام كما أعتقد ينقد اليوم على محك العصر الحديث ولعل التاريخ الاسلامى لم يشهد فترة مثل ما يشهدها اليوم[١٩٥] .

والتدوين الجديد للفقه الاسلامى لا يعنى ابتكار قانون جديد يحتاج إلى وضع مبادىء جديدة ، أو ظهور شىء لا وجود له إلى حيز الوجود ، إن الفقه الاسلامى ثروة غالية للقانون ونموذج عال للذكاء الإنسانى وجهوده ، ويثير الاستغراب ، ولا يوجد له نظير فى ذخائر العالم القانونية ، إنه يحتوى على جزء كبير للحياة ومعظم أحوال العصر القديم وظروفه ، وليست حاجة اليوم إلّا أن تستنبط المسائل الفرعية من أصول الفقه

---

(١٩٥) إقبال نامه ج ١ص ٥٠ – ٥١

الإسلامى وكلياته التى تنبع من القرآن والسنة ، وذلك لتحقيق مطالب الحياة المتطورة الحاضرة ، وتقديم حلول لمشكلاتها الحديثة .

ولتقدير قيمة الفقه الإسلامى وذخيرته التشريعية نقدم مقتطفاً من مقدمة كتاب « **المدخل الفقهى العام إلى الحقوق المدنية** » للأستاذ مصطفى أحمد الزرقا ، أستاذ الحقوق المدنية والشريعة الإسلامية فى كلية الحقوق بدمشق ، وهو يتحدث حول انطباعات رجال القانون الغربيين نحو التشريع الإسلامى ، فى الندوة التى عقدتها شعبة الحقوق الشرقية للبحث فى الفقه الإسلامى فى كلية الحقوق من جامعة باريس ، باسم : « **أسبوع الفقه الإسلامى** » .

إنه يقول :

« عقدت شعبة الحقوق الشرقية من المجمع الدولى للحقوق المقارنة مؤتمراً للبحث فى الفقه الإسلامى فى كلية الحقوق من جامعة باريس تحت اسم « **أسبوع الفقه الإسلامى** » **برئاسة المسيو** (Milliot) أستاذ التشريع الإسلامى فى كلية الحقوق بجامعة باريس ، ودعت إليه عدداً كبيراً من أساتذة كليات الحقوق العربية وغير العربية وكليات الأزهر ، ومن المحامين الفرنسيين والعرب وغيرهم ، ومن المستشرقين ، واشترك فيه من مصر أربعة أعضاء : واثنان من جامعة فؤاد ، وعميد كلية الحقوق فى جامعة إبراهيم ، وأحد أعضاء هيئة كبار العلماء عن الأزهر ، واشتركت فيه أنا مع الاستاذ الدكتور معروف الدواليبى عن كلية الحقوق السورية .

وقد حاضر الأعضاء فى خمسة موضوعات فقهية من الحقوق العامة والخاصة (المدنية والجنائية والاقتصادية) ومن تاريخ التشريع ، عيّنها مكتب المجمع الدولى للحقوق المقارنة قبل عام ووجهت الدعوة للمحاضرة فيها ، وهى :

١ - إثبات الملكية .

٢ - الاستملاك للمصلحة العامة .

٣ - المسئولية الجنائية .

٤ - تأثير المذاهب الاجتهادية بعضها فى بعض .

٥ - نظرية الربا فى الإسلام .

وكانت المحاضرات كلها باللغة الفرنسية ، وخصص لكل موضوع يوم ، وعقب كل محاضرة كانت تفتح مناقشات مهمة مع المحاضر ، وبين المؤتمرين تطول وتقصر بحسب الحاجة ، وتسجل خلاصتها .

وفى خلال بعض المناقشات وقف أحد الأعضاء ، وهو نقيب محاماه سابق فى باريس فقال : .

« أنا لا أعرف كيف أوفق بين ما كان يحكى لنا عن جمود الفقه الإسلامى ، وعدم صلوحه أساساً تشريعياً بحاجات المجتمع العصرى المتطور ، وبين ما نسمعه الآن فى المحاضرات ومناقشاتها مما يثبت خلاف ذلك تماماً ببراهين النصوص والمبادىء » .

وفى الختام وضع المؤتمرون بالإجماع هذا التقرير الذى نترجمه فيما يلى :

« بناء على الفائدة المتحققة من المباحثات التى عرضت أثناء « **أسبوع الفقه الإسلامى** » وما جرى حولها من المناقشات التى تخلص منها بوضوح .

١ – أن مبادىء الفقه الإسلامى لها قيمة (حقوقية تشريعية) لا يمارى فيها .

٢ – وأن اختلاف المذاهب الفقهية فى هذه المجموعة الحقوقية العظمى ينطوى على ثورة من المفاهيم والمعلومات ومن الأصول الحقوقية ، هى مناط الإعجاب ، وبها يتمكن الفقه الإسلامى أن يستجيب لجميع مطالب الحياة الحديثة والتوفيق بين حاجاتها .

يعلنون رغبتهم فى أن يظل أسبوع الفقه الإسلامى يتابع أعماله سنة فسنة ، ويكلفون مكتب المؤتمر وضع قائمة للموضوعات التى أظهرت المناقشات ضرورة جعلها أساساً للبحث فى الدورة القادمة .

ويأمل المؤتمرون أن تؤلف لجنة لوضع معجم للفقه الإسلامى يسهل الرجوع إلى مؤلفات هذا الفقه ، فيكون موسوعة فقهية تعرض فيه المعلومات الحقوقية الإسلامية وفقاً للأساليب الحديثة » .

بارقـة الأمـل :

ولكن الطبقة المثقفة الجديدة التى تحتل اليوم مركز القيادة ، لثقافته العصرية وكفاءاته الحديثة تحمل من سلامة التفكير وصلاحية قبول الحق نصيباً غير منقوص ، بالرغم من علاتها وطبيعتها الخاصة ، بل قد تفوق هذه الطبقة فى عزمها وقوة إرادتها واعترافها بالحقيقة بعض الطبقات الأخرى وتمتاز عنها . إن أفراد هذه الطبقة عندما يؤمنون بمبدأ يرون من الواجب عليهم أن يستنفدوا كل طاقتهم فى تبليغه ونشره ، ويستفرغوا فيه جهودهم وقوتهم إلى آخر مدى ، فيها كثير ممن يحبون الإسلام ويؤمنون به كمبدأ وعقيدة ، وقد منحت هذه الطبقة جامعة المسلمين رجالاً غيارى ، صائبى الفكرة ، بعيدى النظر ، متفانين فى خدمة الإسلام ، مجاهدين فى سبيله ، وكم من حركات إسلامية قامت على أكتاف الأبطال والقادة الذين ينتمون إلى هذه الطبقة .

وفى الشرق الأوسط لم يظفر السيد جمال الدين الأفغانى ، والشيخ محمد عبده والشيخ حسن البنا بخيرة رجالهم إلّا من هذه الطبقة ، كما أن الهند منذ بدء حركة الخلافة إلى الحركات الدينية المعاصرة نالت أفضل رجالها وأقواهم إرادة من هذه الطبقة نفسها ، فإذا قام اليوم دعاة الدين بتبليغ رسالة الاسلام إلى هذه الطبقة بكل إخلاص ونزاهة ، ونجحوا فى تثقيف عقليتهم بثقافة الاسم وإقصاء بذرة الفساد التى بذرتها الثقافة الغربية فى عقولهم ونجحوا فى إشعال شرارة الإيمان التى لا تزال كامنة تحت الرماد ، نشأ فيها رجال أفذاذ متفانون فى حب الإسلام أمثال الشاعر محمد إقبال والزعيم محمد على ، وسيكون ذلك إكتشافاً مدهشاً ، وبالتالى سارّا لدعاة الإسلام .

ولتغيير الوضع العالمى وإحداث ثورة على الأوضاع السائدة فى العالم الاسلامي ، يجب على دعاة الدين أن يوجهوا عنايتهم وجهودهم إلى هذه الطبقة ، فلم يبل العالم الاسلامى بالردّة الفكرية إلا بسوء تفكير هذه الطبقة وانحرافها ، وبذلك اتجه العالم الاسلامى اليوم من الفكر الاسلامى الخالص إلى التفكير الغربى الخالص ، وصار الجمهور بيد القيادة اللادينية كالقطعان من الضأن والغنم ، وعلى إصلاح هذه

الطبقة المثقفة يتوقف انصراف الأقطار الإسلامية من التفكير الغربى إلى الفكر الإسلامى الصحيح .

ولا داعى إلى اليأس والتشاؤم ، فإن هذه الطبقة كما وصفها محمد إقبال :

« إن إقبال ليس يائساً من مزرعته الخربة ، إنها إذاتندّت وابتلّت قليلا [١٩٦] أتت بحاصل كبير » .

---

(١٩٦) يشير إلى أن هذه الطبقة المثقفة ، الثقافة الجديدة التى كان أحد أفرادها - إذا رزقت حظاً من الايمان والحنان وقوة العاطفة ورقة الشعور مع ثقافتها العصرية وقوة الارادة ، وحب الواقع ، لكان لها شأن عظيم ومثلت دوراً فى خدمة الاسلام ، وإنهاض الأمة .

الموقف الثالث

إذن فما هو الموقف الثالث ، وما هو الموقف الذى يجب أن يقفه العالم الإسلامى تجاه هذه الحضارة الغربية ؟ .

إنه لا يمكن تحديد موقف العالم الإسلامى تجاه الحضارة الغربية حتى نعرف طبيعة الأمة الإسلامية ، ومركزها فى هذا العالم ، ثم نعرف موقفها من هذه الحياة التى تصوغ الحضارات ، وتشكل المجتمعات والمدنيات .

مركز الأمة الاسلامية ورسالتها :

إن الأمة الإسلامية هى صاحبة الرسالة الدينية الأخيرة ، وهذه الرسالة هى التى تسيطر – على جميع مواقفها ،وتصرفاتها، مركزها مركز القيادة والتوجيه ، والحسبة على العالم ، والقرآن يعلن بقوة وصراحة : ﴿ **كنتم خير أمة أُخرِجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهَوْن عن المُنكَر ، وتُؤمنون بالله** ﴾ ، فلا يجوز أن يكون مكان هذه الأمة فى مؤخر الركب وفى صف التلاميذ والحاشية ، وأن تعيش على هامش الأمم وترضى – من القيادة والتوجيه ، ولأمر والنهى ، .والخلق والإبداع – بالتقليد والتطبيق، والخضوع والإطاعة ، فلا يكون موقفها الصحيح إلّا موقف الحر الكريم ، القوى الإرادة ، المستقل التفكير ، الذى يأخذ – إذا اضطر واحتاج – من حوله بإرادة واختيار مايلائمه ، وما لايرزؤه فى شخصيته وتفوقه واميتازه ، وثقته بنفسه ومركزه ، وينبذ ما لا يلائمه ويضعف شخصيته ومركزه ويفقده امتيازه ويدمجه فى غيره ، .ولذلك نهيت هذه الأمة عن التشبه بقوم فى شعارهم

وشاراتهم [1] .

وهى أُمة ذات هدف معين فى الحياة ، ورسالة كاملة فى العالم ، وحضارتها وثقافتها ، وكفاحها ، وإنتاجها ، وكل ما يتصل بها من حركة ونشاط خاضع لعقيدتها وغاياتها ورسالتها ، فلا قيمة عندها لفلسفة تقول : « **العلم للعلم** » و « **القوة للقوة** » و « **الاكتشاف للاكتشاف** » وكذلك ليس من مهمتها بسط السيطرة على الإنسان أو على الأكوان ، وتسخير الطاقات البشرية ، أو القوى الطبيعية والفلكية لإثبات قوتها أو تقرير فتوحها المادية والعلمية ، فإن ذلك عندها ضرب من العبث ، ونوع من الأنانية المتضخمة ، والقرآن يتلو عليها ويضبط اتجاهاتها وطموحها بقوله : ﴿ **تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يُريدون علوّاً فى الأرض ولا فساداً ، والعاقبة للمتقين** ﴾ [2]

المؤمن القوى العليم الصالح المصلح :

إنما يسمح لها الإسلام بالكفاح فى سبيل الحياة والطبيعة والعلم — وقد يحث عليه — لصالح البشرية وللغايات الكريمة إلى حدّ الضرورة ، وقد ضرب الله لها مثلاً فى القرآن بالانسان القوى العليم الصالح المصلح الذى يسخّر القوى الكونية والمادية ، ويملك أعظم مقدار من الأسباب والوسائل ويوسع فتوحه ومغامراته ، وهو

---

(١) قال العلامة الحسين بن محمد بن عبد الله الطيبى (م ٧٤٣هـ) فى كتابه الكاشف عن حقائق السنن المحمدية « شرح مشكاة المصابيح » فى شرح « من تشبه بقوم فهو منهم » الذى أخرجه أحمد وأبو داوود « هذا عام فى الخلق والخلق والشعار ، ولما كان الشعار أظهر فى التشبه ذكر هذا الباب » قال العلامة نور الدين على بن سلطان محمد الهروى المعروف بملا على القارى (م ١٠١٤) فى المرقاة » قلت بل الشعار هو المراد بالتشبه لاغير ، فإن الخلق الصورى لايتصور فيه التشبه والخلق المعنوى لايقال فيه التشبه بل هو التخلق » (ص ٤٣١ ج ٤)

(٢) القصص ٨٣ .

فى كل ذلك ، وفى أوج قوته وسلطته وسيادته ، وتسخيره للقوى والأسباب ، مؤمن بربه ، خاضع له ، مؤمن بالآخرة ، ساعٍ لها ، مقر بضعفه ، رحيم بالإنسانية وبالأمم الضعيفة ، حامٍ للحق ، يستخدم كل قوته وجهوده ومواهبه ، وجميع وسائله وذخائره لخدمة الإنسانية ، وتكوين المجتمع الصالح ، وإعلاء كلمة الله ، وإخراج النّاس من الظلمات إلى النور ، ومن عبادة الناس والمادة إلى عبادة الله ، سيرة مثّلها سليمان ابن داود فى عصره ، ومثّلها ذو القرنين فى عصره ، ومثّلها الخلفاء الراشدون والأئمة المهديون فى عصورهم [٣]

الحياة كمرحلة عابرة ووسيلة للآخرة :

أما موقفها من هذه الحياة ، فهو موقف من لا يراها الغاية الأسمى والمثَل الأعلى ، وسدرة المنتهى فى السعادة والتقدم ، إنما ينظر إليها كمرحلة« عابرة » لا بد من اجتيازها ، وكوسيلة للوصول إلى الفوز الأكبر ، والحياة الدائمة ، والعيشة الراضية ، إن القرآن يقرر – بكل وضوح وقوة – قصر هذه الحياة الدنيا ، وتفاهتها وتضاؤلها فى جنب الآخرة ، فيقول مثلا : ﴿ **فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلّا قليل** ﴾ [٤] ويقول : ﴿ **وما هذه الحياة الدنيا إلّا لهو ولعب وإن الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون** ﴾ [٥] ويقول : ﴿ **اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم ، وتكاثر فى الأموال والأولاد ، كمثل غيثٍ أعجب الكفار نباته ، ثم يهيج فتراه مصفراً ، ثم يكون حطاماً ، وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان ، وما الحياة الدنيا إلّا متاع الغرور** ﴾ [٦]

ويقرر كذلك – فى وضوح – أنها قنطرة إلى الآخرة ، وفرصة للعمل ، فيقول : ﴿ **إنّا جعلنا ما على الأرض زينةً لها لنبلُوَهم أيُّهم أحسن عملا** ﴾ [٧]

---

(٣) تفسير سورة الكهف للمؤلف « المسلمون » المجلد السادس عدد ٤ .

(٤) براءة٣٨ .

(٥) العنكبوت ٦٤ .

(٦) الحديد ٢٠ .

(٧) الكهف ٧ .

ويقول ﴿ **الذى خلقَ الموتَ والحياة ليَبلوكم أيكم أحسن عملا ، وهو العزيز الغفور** ﴾ [٨] ويقرر أن الآخرة خير وأبقى ، فيقول : ﴿ **وما الحياة الدنيا إلّا لعبٌ ولهو وللدّار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون** ﴾ [٩] ويقول : ﴿ **وما أُوتيتم من شيء فمتاعُ الحياة الدنيا وزينتُها وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون** ﴾ [١٠] ويذم ويشنع على من يؤثر الدنيا – هذه الفانية العارضة السقيمة الناقصة – على الآخرة الباقية الخالدة ، الواسعة الصافية من الأكدار ، الخالية من الأخطار ، فيقول ﴿ **إنّ الذين لايَرجون لقاءنا ورَضوا بالحياة الدنيا واطمأنّوا بها ، والذين هم عن آياتنا غافلون ، أُولئك مأواهم النّار بما كانوا يكسبون** ﴾[١١] .

ويقول ﴿ **منْ كان يُريد الحياة الدنيا وزينتها نُوفّ إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لايُبخسون ، أُولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار ، وحبطَ ما صنعوا فيها وباطلٌ ما كانوا يعملون** ﴾ [١٢] ، ويقول : ﴿ **وَوَيْل للكافرين من عذاب يوم شديد . الذين يستحبُّون الحياة الدنيا على الآخرة ، ويصدُّون عن سبيل الله ويبغونها عِوَجاً أُولئك فى ضلال بعيد** ﴾ [١٣] ، ويقول : ﴿ **يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ، وهم عن الآخرة هم غافلون** ﴾[١٤] ويقول ﴿ **فأعرض عمَّن تولّى عن ذِكْرنا وَلَم يرِد إلا الحياة الدنيا ، ذلك مَبلغُهم منَ العلم ، إنَّ ربك هو أعلم بِمن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى** ﴾ [١٥] ، ويقول : ﴿ **إن هؤلاء يحبون العاجلة ، ويذرون وراءهم يوماً ثقيلا** ﴾ [١٦] ، ويقول : ﴿ **فأما من طغى ، وآثر الحياة الدنيا ، فإن الجحيم هى المأوى** ﴾ [١٧] .

---

(٨) الملك ٢

(٩) الأنعام٣٢ .

(١٠) القصص ٦١ .

(١١) يونس ٧ – ٨ .

(١٢) هود ١٦ .

(١٣) إبراهيم ٣ .

(١٤) الروم ٧ .

(١٥) النجم ٢٩ – ٣٠ .

(١٦) الإنسان ٢٧ .

(١٧) النازعات ٣٧ – ٣٨ –٣٩ .

ويمدح من يجمع بين الدنيا والآخرة مع إيثار جانب الآخرة على جانب الدنيا ، ومعرفة قيمتها وفضلها والحرص عليها ، فيقول : ﴿ **فَمِنَ الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا وماله فى الآخرة من خلاق ، ومنهم من يقول ربَّنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنةً وقنا عذاب النار** ﴾ (١٨) ، ويقول على لسان نبى الله موسى ﴿ **واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة إنا هُدْنا إليك** ﴾ (١٩) ، ويمدح خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام فيقول : ﴿ **وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين** ﴾ (٢٠) .

وخير ما يمثل موقف المؤمن من هذه الحياة ، ويحدده بدقة ومقدرة ليست فوقها دقة ومقدرة ، هو الجملة الحكيمة المأثورة عن رسول الله ﷺ : ﴿ **إن الدنيا خلقت لكم وإنكم خلقتم للآخرة** ﴾ (٢١) ، فالمسلم يجمع بين الانتفاع بمرافق الحياة وأسباب الدنيا واستخدامها كشىء خُلِق لأجله وسخر له ، وبين السعى للآخرة والكفاح لها كغاية خُلِق لأجلها ، فهو ينظر إلى الدنيا وقواتها ووسائلها كمطية ومركب لا كراكب ومتصرف ، وكمملوك ورقيق لا كمالك وسيد ، ووسيلة لا كغاية ، وينظر إلى الآخرة كغاية ينتهى إليها ووطن يلجأ إليه ، فيجمع عليه همته ويرهق له قواه ويحث إليها مطيته ، وذلك مثل النبوة الذى مثله الرسول ﷺ إذ قال : « مالى وللدنيا وما أنا والدنيا إنما أنا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها» (٢٢) .

وقد تجلت هذه النفسية القرآنية ، والنظرة القرآنية إلى الحياة فى حياة النبى ﷺ وتعاليمه وسلوكه ، وكلامه وعواطفه ، وأمانيه ودعائه وسره وعلنه وتجلت كذلك فى حياة الصحابة الذين تربوا وتكونت سيرتهم وعقليتهم فى حضانته وتحت إشرافه ، ومن كان على نهجهم وعلى غرارهم من التابعين والمؤمنين من هذه الأمة ، بحيث قد صار ذلك طابعاً لحياتهم ، ومزاجاً لا ينفك عنهم ، وأصبح من الحقائق التاريخية التى لا يمارى فيها .

---

(١٨) البقرة ٢٠٠-٢٠١ . (١٩) الأعراف ١٥٦ . (٢٠) النحل ١٢٢ .

(٢١) رواه الطبرانى فى الأوسط . (٢٢) رواه أحمد والترمذى .

وهنا تتعارض الأديان السماوية ، وتعاليم النبوة ، أو مدرسة النبوة – إن صح التعبير – مع الفلسفات المادية ، والتفكير المادى الذى يلح على أن هذه الحياة الدنيا هى كل شىء ، وهى المنتهى ، ويبالغ فى تمجيدها وتقديسها والاحتفاء بها ، والحرص على ترفيهها وتزيينها .

حضارة ثائرة على القيم الدينية والروحية:

وقد كان من المصادفات الأليمة المحزنة ، والمآسى الفاجعة للبشرية أن الحضارة الغربية قد ولدت وترعرعت فى عصر قد ثار على الدين وأسسه من الإيمان بالغيب وغير ذلك ، وفى أمة قد ثارت على الذين تزعموا الدين واستغلوه لشهواتهم وأنانياتهم ، واشتدغضبها عليهم لسوء سيرتهم وهمجيتهم ووقوفهم فى سبيل التقدم وحرية العقل والعلم ، فترافق نشوء الحضارة والصناعة والاتجاه المادى العنيف ، الاتجاه إلى تنظيم الحياة على أسس مادية خالصة ، وقطع صلة المجتمع والبشرية عن فاطرها ومصرف هذا الكون ، وكل ذلك اقتضته سلسلة الأسباب وطبائع الأشياء ووضع أوروبا الخاص ، فشبت هذه الحضارة واختمرت وهى المسيطرة على القوى والأسباب ، قد بلغت الغاية فى التقدم والصناعة وعلوم الطبيعة حتى استطاعت أخيراً أن تعدم المساحات والأبعاد ، وتتجاوز الكرة الهوائية ، إلى غير ذلك من الفتوح فى دائرة العلوم الطبيعية والفلكية » [٢٣] .

سيطرة المادية على قادة التجديد فى الشرق الإسلامى :

وقد انتقلت هذه النفسية المادية إلى قادة حركات التجديد ، وبالأصح التغريب فى الشرق الإسلامى وتواضعوا – من عهد « كمال » إلى عهد

(٢٣) منقول من تفسير سورة الكهف للمؤلف المنشور فى « المسلون » المجلد السادس « ١٣٧٧ هـ » عدد ١ – ٢ – ٣ – ٤ .

« جمال » – على الافتتان بالتقدم المادى ، واتخذوا القوة والرفاهية إلها يقدس ويعبد ويكفر بغيره ، ويضحى على أنصابه بكل القيم الخلقية والروحية ، وما ليست له قيمة مادية ، وحسب القارىء أن يقرأ خطب هؤلاء الزعماء القوميين والقادة السياسيين ، وما يكتبونه بين آونة وأخرى ، وما يدلون به من تصريحات ، وما يتخذونه من إجراءات رسمية وخطوات عملية ، ومايعاملون به الأحزاب التى تفكر غير هذا التفكير ، وتسير غير هذه السيرة ، وتنتقد هذه الاتجاهات ، وحسبه أن يقرأ مشاريع الحكومة والخطط المستهدفة ومجالات النشاط والحركة والحماسة فى الدوائر الرسمية ، ويراها مقتصرة على ترفيه البلاد وتقويتها مادياً ، ورفع مستوى الحياة ، ولمجاراة الشعوب التى لاتعرف غير المادة والمحسوسات حقيقة ، ولا تعرف غير القوة إلهاً ، ولاتعرف غير التقدم المادى والرفاهية الدنيوية هدفاً وغرضاً ، ولا تعرف غير مجموعة الأفراد الذين تربط بينهم رابطة قومية أو معاهدة سياسية – مجموعة بشرية ، تستحق الاحترام والاهتمام ، إن هذه هى النفسية التى جرت على العالم الشقاء والبلاء فى كل زمان ، وهى العقلية الضيقة السقيمة التى حاربتها الأديان ، وجاء يمحوها الإسلام ، وإن احتضان قادة بلد إسلامى لهذه الفكرة والعقيدة المادية الضيقة نكسة عظيمة فى التفكير لاتدل إلا على ضعف الإيمان وسوء التربية ، وسقوط الهمة ، وقصر النظر ، وشقاء هذه البلاد أولا ، وشقاء العالم الإنسانى ثانياً .

إن الاحتفاظ بالشخصية الإسلامية ومركز هذه الأمة فى العالم ، ومعرفة رسالتها والإيمان بقيمتها ، والضغط على قيمة الآخرة وما بعد هذه الحياة – من سعادة وشقاء وجنة ونار – والتركيز على الجانب الخلقى والروحى من الحياة ، هو الخط الفاصل الذى يشكل الحد الفاصل الرسمى بين الحضارتين ، حضارة يوافق عليها الإسلام ، ويتحمل مسئوليتها ، ويباركها ، وتتجلى فيها الشخصية والأصالة والاتباع ، وحضارة يتبرأ منها الإسلام ويخسر فيها المسلمون ، وتتجلى فيها العبودية والرضوخ والاستسلام ، والعبادة التى لاتعرف إلا تقليد الببغوات ، ومحاكاه القرود .

أهمية الحضارة فى حياة الأمة:

والحضارة عميقة الجذور فى أعماق النفس الإنسانية وفى مشاعر الأمة وأحاسيسها وتجريد أمة من حضارتها الخاصة التى نشأت تحت ظلال دينها وتعاليم شريعتها ، وكان فى صياغتها نصيب كبير للذوق الدينى الخاص ، وطابع هذه الأمة الخاص ، مرادف لعزلها عن الحياة وتحديدها فى إطار العقيدة والعبادة والطقوس الدينية الضيق ، وفصل حاضرها عن ماضيها،وأثر هذا التحويل كان عميقاً دائماً فى حياة الأمم والمجتمعات البشرية ، فإنها ذابت تدريجياً فى بوتقة الأمم التى اقتبست منها هذه الحضارة بمعانيها الواسعة ، وكان انسلاخها عن العقيدة التى بقيت متمسكة بها سهلًا.

وليس المقصود من إبراز ناحية خطر الحضارة الغربية واقتباسها على الشخصية الإسلامية وكيان الأمة المسلمة هو تحريم الاستفادة من الحضارة الغربية فى مرافق الحياة واقتباس بعض ما توصل إليه العلم والصناعة والاختراع فى الغرب من وسائل تسهيل وترفيه ، وإغلاق الباب على مصراعيه ، فإن ذلك لا يقوله عاقل فضلا عن مطلع على روح الدين وتعاليمه ، والاسلام لم يزل واسع الأفق متفتح القلب والنظر فى الاستفادة بكل ما يصلح وينفع ، ولكن مفهوم الحضارة الغربية فى هذا المقام هو أوسع من اقتباس الآلات والمخترعات والتجارب المفيدة فى الحياة العامة ، إنها تشمل الأفكار والقيم والمفاهيم والمثل وصبغ الحياة كلها بالصبغة الغربية والتخطيط المدنى الشامل واقتباس أساليب الحياة التى لا تتفق مع تعاليم الإسلام ومعاييره فى الطهارة والنظافة والاعتدال والاقتصاد والوقوف عند الحدود التى رسمتها الشريعة الإسلامية ، ويعسر على المسلم معها التأدب بآداب الشرع والعمل بالسنن النبوية الكثيرة ، ويبتعد بها عن الحياة الاسلامية التى عاشها الرسول ﷺ والصحابة والتابعون لهم بإحسان ابتعاداً كلياً ، وتضفى على الأمة شخصية أجنبية لا تعرف فيها إلا بالأسماء الاسلامية أو بالأزياء التى لا تزال بعض الشعوب العربية أو الاسلامية محافظة عليها ، أو عندما يرتفع صوت الأذان من منائر مساجدها ، أو عندما تدخل فى المساجد على قلة عدد الداخلين فى بعض البلاد وكثرتهم فى بعضها ، فلا يربطها بالاسلام إلّا خيط رقيق من عقيدة وتقاليد دينية ، إذا انقطع هذا الخيط – لا سمح الله بذلك – انقطع كل شيء .

وأعتقد أنه من الميسور جداً الجمع بين التسهيلات المدنية والاستفادة بالآلات والمخترعات وما وصل إليه العلم الحديث ، وبين ما تمتاز به الحضارة الإسلامية من جمال وبساطة وجدية وعناية بالطهارة والنظافة والابتعاد عن الاسراف والتبذير والاغراق فى المظاهر الخارجية ، إذا وفقت لحكومة الاسلامية والمجتمعات الاسلامية للتخطيط المدنى المستقل ، البعيد عن التقليد الأعمى والارتجالية ومركب النقص ، وإذا توافر عندها الذكاء والأصالة والايمان بفضل التعاليم الاسلامية والحضارة الاسلامية التى تنبثق عنها وتقوم عليها ، والاعتداد بشخصيتها ، وكان هذا التخطيط أجمل وأفضل وأكثر جلبا للأنظار واستهواء للقلوب ، وأبعث على الاحترام والتقدير ، ويؤم هذه المدن عدد من السياح بل من قادة الفكر ورواد العلم،وأكبر من العدد الذى يؤمها الآن من المنتزهين ، وربما يكون هذا الطراز الجميل الأصيل من المدنية باعثاً لكثير من الأقطار الغربية على تقليد بعض هذه الجوانب واقتباسها،وعلى الأقل على التفكير فيها وتقديرها ، كما كان الشأن مع الحضارة الاسلامية الأندلسية التى كان لها تأثير عميق فى الحضارة الغربية وفلسفتها وآدابها .

ولكن مع الأسف الشديد لم يوفق لذلك قطر واحد من الأقطار الشرقية والغربية العربية والحكومات الإسلامية ، ولم تكن عند أحدها جراءة كافية تحملها على مجرد هذه التجربة ، وكانت النتيجة أن أصبحت هذه الأقطار كلها نسخة ناقصة من المدنية الغربية وصورة شاحبة لها ، لا تسترعى اهتمام الغربيين ولا تحرك فيهم مشاعر الإجلال والاحترام ، وإنما يقولون إذا زاروا هذه المدن متفرجين أو مشاهدين : (**بضاعتنا ردت إلينا**)

محنة ذكاء وقوة إرادة :

إن التصميم الحضارى محنة ذكاء ، وعصامية وعبقرية ، وقوة إرادة ، وفقه دين ، ليس مجرد عملية نقل وتطبيق ، وتعديل وتحسين ، إن الإسلام قد حدَّ حدود الحلال والحرام ،وحرم تخطى هذه الحدود ، وأفسح المجال بينها للتمتع الكريم النزيه ، فى غير إسراف وإجحاف ومس بحقوق الآخرين وحظوظهم ، ومن غير تعرض لخطر الوقوع فى الإثم والفحشاء والتبذير ، والحياة التى لا تليق بالذكور الرجال ، والكرام

الأقوياء ، وهذه هى الروح التى تسيطر على أحكام اللباس والطعام والعشرة والاجتماع والمتعة واللذة ، وحث على مراعاة المصالح ، والتجنب من المضار والمفاسد ، وإعداد الممكن المستطاع من وسائل القوة والدفاع ، واقتباس الصالح والنافع من العلوم والحكمة ، بشرط ألا يكون ذلك على حساب مقومات الشخصية والكرامة والقومية – الاسلامية – وبشرط ألا ينشىء ذلك فى الأمة شعوراً بالنقص ، وقصوراً فى الثقة ، وروح اندفاع سريع متهور إلى تقليد الآخرين ، والتشبع بروحهم ، وإجلال حياتهم وتقديسها .

نعومة حرير وصلابة حديد :

إنها أساس حضارة تملك نعومة الحرير وصلابة الحديد ، نعومة الحرير فى مسايرة المقتضيات والحاجات والحقائق ، غير مفترضة ولامختلفة ، وغير متخيلة ولامبالغاً فيها وصلابة الحديد ، وثبات الجبال على حدود العقيدة والأخلاق ، إنها مفتوحة العقل والضمير ، منشرحة الصدر ، لاقتباس العلوم النافعة التى نشأت وتكونت فى جانب بعيد فى هذا العالم ، واقتباس النظم والأساليب التى لاتمس جوهر الدين ولاتغير وضع الأخلاق .

الافادة من الغرب ومجالها :

وأحلى هذا الفصل الذى يحدد موقف العالم الإسلامى من حضارة الغرب وثقافته بقطعة جميلة من كتاب : « **الطريق إلى مكة** » للأستاذ محمد أسد ، فقد بدا فيها الاتزان والحصافة الفكرية ، وهى تحدد – بلباقة فائقة ومقدرة كبيرة – الخط العادل المتزن الذى يجب أن يسير عليه العالم الاسلامى فى الإفادة من الغرب ، وتبنى الوسائل الحديثة، يقول محمد أسد :

« إن عالمى الإسلام والغرب لم يكونا يوماً أقرب أحدهما من الآخر ، كما هو اليوم ، وهذا القرب هو صراع ظاهر وخفى ، ذلك أن أرواح الكثيرين من المسلمين

والمسلمات لتتغضن رويداً رويداً تحت تأثير العوامل الثقافية الغربية ، إنهم يتركون أنفسهم ، يبتعدون عن اعتقادهم السابق بأن تحسين مقاييس المعيشة يجب ألا يكون سوى واسطة لتحسين أحاسيس الإنسان الروحية ، وإنهم يسقطون فى وثنية « **التقدم** » نفسها التى تردى فيها العالم الغربى بعد أن صغروا الدين إلى مجرد صلصلة رخيمة فى مكان ما من مؤخرة الأحداث ، ولذلك تراهم يصغرون مقاماً ولا يكبرون ، ذلك أن كل تقليد ثقافى ، بخلاف الخلق والابداع لابد أن يحقر الأمة ويقلل من شأنها .

أنا لا أعنى أن المسلمين لا يستطيعون أن يفيدوا كثيراً من الغرب ، وبخاصة فى مجال العلوم والفنون الصناعية ، ذلك أن اكتساب الأفكار والأساليب العلمية ليس فى الحق « **تقليداً** » وبالتأكيد ليس فى حالة قوم يأمرهم دينهم بطلب العلم حيثما يمكن أن يوجد . إن العلم لاغربى ولا شرقى ، ذلك أن الاكتشافات العلمية ليست إلا حلقات فى سلسلة لا نهاية لها من الجهد العقلى الذى يضم الجنس البشرى بكامله ، إن كل عالم يبنى على الأسس التى يقدمها له أسلافه ، سواء كانوا من بنى أمته أو من أبناء أمة غيرها ، وعملية البناء والإصلاح والتحسين هذه تستمر وتستمر ، من إنسان إلى إنسان ومن عصر إلى عصر ، ومن مدنية إلى مدنية بحيث أن ما يحققه عصر معين أو مدنية معينة من أعمال علمية جليلة لا يمكن مطلقاً أن يقال أنها « **تخص** » و « **تعود إلى** » ذلك العصر أو إلى تلك المدنية ، فقد يحدث فى مختلف الأزمنة والعهود أن تسهم أمة ما ، أمضى عزيمة وأشد همة من غيرها ، بنصيب أكبر فى صندوق المعرفة ، ولكن الجميع مع الزمن يشتركون ، وبصورة شرعية صحيحة فى هذه العملية ، لقد جاء حين كانت مدنية المسلمين أقوى وأمضى من مدنية أوروبا ، فنقلت إلى أوروبا كثيراً من الاختراعات الصناعية والفنية ذات الطبيعة الثورية ، وأكثر من هذا : مبادىء « **تلك الطريقة العلمية** » نفسها التى يرتكز إليها العلم الحديث ، والمدنية الحديثة ، ومع ذلك فإن اكتشافات جابر بن حيان الكيمياوية لم تجعل من الكيمياء علماً « **عربياً** » كذلك لا يمكن أن يقال أن الجبر وعلم المثلثات هما علمان « **إسلاميان** » مع أن الأول منهما بسطه الخوارزمى ، والثانى البتّانى ، وكلاهما كانا مسلمين تماماً ، كما لا يستطيع أحد أن يتكلم عن نظرية الجاذبية « **الانكليزية** » مع أن صاحبها كان إنكليزياً ، كل هذه الأعمال العلمية العظيمة هى ملك مشترك بين

الجنس البشرى كله ، وإذن فإن المسلمين إذا تبنوا ، كما هو من واجبهم أن يفعلوا ، الطريق والوسائل الحديثة فى العلوم والفنون الصناعية ، فإنهم لا يفعلون أكثر من اتباع غريزة التطور والارتقاء التى تجعل الناس يفيدون من خبرات غيرهم ، ولكنهم إذا تبنوا – وهم فى غير حاجة إلى أن يفعلوا ذلك – أشكال الحياة الغربية والآداب والعادات والمفاهيم الاجتماعية الغربية فإنهم لن يفيدوا من ذلك شيئاً ، ذلك أن ما يستطيع الغرب أن يقدمه لهم فى هذا المضمار لن يكون أفضل وأسمى مما قدمته لهم ثقافتهم نفسها ومما يدلهم عليه دينهم نفسه .

ولو أن المسلمين احتفظوا برباطة جأشهم وارتضوا الرقى وسيلة لا غاية فى ذاتها ، إذن لما استطاعوا أن يحتفظوا بحريتهم الباطنية فحسب ، بل ربما استطاعوا أيضاً أن يعطوا إنسان الغرب سر طلاوة الحياة الضائع [٢٤]

الفراغ الأكبر والعبقرى المطلوب :

إن الفراغ الهائل الأكبر فى العالم الإسلامى هو إلى الحاجة ذلك العبقرى العصامى الذى يواجه الحضارة الغربية بشجاعة وإيمان وذكاء ، ويشق له طريقاً بين مناهجها ومذاهبها ، وبين فضائلها ورذائلها ، طريقاً يترفع فيها عن التقليد والمحاكاة وعن التطرف والمغالاة ، غير خاضع فيها للأشكال والمظاهر ، والمفاهيم السطحية ، متمسكاً بالحقائق وأسباب القوة ، وباللباب دون القشور .

العبقرى العصامى الذى يشق له ولبلاده وأمته طريقاً مبتكراً ، ويجمع فيها بين الإيمان الذى اختص به الأنبياء والرسل ، والدين الذى أكرمه الله وأمته به عن طريق محمد ﷺ وبين العلم الذى ليس ملك أمة ولا بلد ولا عصر ، يأخذ من الدين الدوافع الخيرة التى هى أعظم قوة وأغنى ثروة فى خدمة الإنسانية وبناء صرح المدنية ، والغايات الرشيدة الصالحة التى لا يوحيها إلا الدين السماوى والتربية الدينية

---

(٢٤) الطريق إلى مكة للأستاذ محمد أسد « ليوبولد » سابقاً ص ٣٧٤ – ٣٧٦ .

السليمة ، ويأخذ من الحضارة العربيه الآلات والوسائل القوية الكثيرة التى أنتجتها وتوصلت إليها فى سيرها العلمى الطويل وفى جهادها المتواصل الشاق ، ولم ينتفع بها الغرب لإفلاسه فى هذا الإيمان وفقره فى هذه الدوافع الخيرة ، وفى هذه الغايات الصالحة ، بل أصبحت تستخدم فى شقاء الإنسانية وتقويض أركان المدنية أو لغايات تافهة لاقيمة لها .

العبقرى العصامى الذى يعامل الحضارة الغربية – بعلومها ونظرياتها واكتشافاتها وطاقاتها – كمواد خام ، يصوغ منها حضارة قوية عصرية مؤسسة على الإيمان والأخلاق والتقوى والرحمة والعدل فى جانب ، وعلى القوى والإنتاج والرفاهية وحب الابتكار فى جانب آخر ، ولا يعامل الحضارة الغربية كشىء قد تم تكوينه وتركيبه وختم عليه فلا يؤخذ إلا برمته ولا يقبل إلا على علاته ، إنما يأخذها كأجزاء ، يختار منها ما يشاء ، ويركب منها جهازاً يخضع لغاياته وعقيدته ومبادئه ونظام خلقه وما يكلفه به دينه من منهج خاص للحياة ، ونظرة خاصة إلى الدنيا ، وسلوك خاص لبنى النوع ، وسعى خاص للآخرة ، وجهاد دائم « **حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله** » . جهازاً موسساً على الإيمان بنبوة محمد ﷺ وأنه المثل الكامل ، والامام الدائم ، والقائد المطاع ، والنموذج المتبع والسيد المحبوب ، والخضوع لشريعته كدستور للحياة ، وأساس للتقنين ، والدين الوحيد الذى تنال به سعادة الدنيا والآخرة ولا يقبل الله سواه .

العبقرى العصامى الذى يأخذ من علوم الغرب ما تفتقر إليه أمته وبلاده ، وماينفع عملياً وما ليس عليه طابع غرب أو شرق ، إنما هى علوم تجريبية تطبيقية ، وينفض عن كل ما يأخذه من الغرب غباراً لصق به فى القرون المظلمة وفى عصر الثورة على الدين ، وفى حالة توتر أعصاب وقلق نفوس ، يأخذ العلوم المفيدة مجردة من روح الالحاد والعداء للدين ومن النتائج الخاطئة ويطعمها بالإيمان بفاطر الكون ومدبره ، ويستنتج منها نتائج أعظم وأوسع وأعمق وأكثر سعادة للإنسانية مما توصل إليه أساتذتها الغربيون .

العبقرى العصامى الذى لا ينظر إلى الغرب كإمام وزعيم خالد ، وإلى نفسه كمقلد وتلميذ دائم ، إنما ينظر إلى الغرب كزميل سبق ، وكقرين تفوّق فى بعض

العلوم المادية والمعاشية ، فيأخذ منه ما فاته من التجارب ويفيض عليه بدوره ما سعد به من تراث النبوة ، ويعتقد أنه إن كان فى حاجة إلى أن يتعلم من الغرب كثيراً ، فالغرب فى حاجة إلى أن يتعلم منه كثيراً،وربما كان ما يتعلمه الغرب منه أفضل مما يتعلمه هو من الغرب ، ويحاول أن ينهج – بذكائه وجمعه بين حسنات الغرب والشرق وقوى الروحانية والمادية – منهجاً جديداً يجدر بالغرب تقليده وتقديره ، ويضيف إلى المدارس الفكرية والمناهج الحضارية مدرسة جديدة تستحق كل عناية ودراسة وتقليد واتباع .

هذا هو العبقرى العصامى الذى لايزال مفقوداً فى صفوف القادة والزعماء فى العالم الإسلامى على كثرتهم وتنوعهم ، وهذا هو العملاق حقاً الذى يبدو فى جانبه القادة المقلدون المطبقون صغاراً متواضعين كالأقزام .

وإنها أعظم تجربة وأبعدها أثراً ، ليس فى محيط شعب أو بلد ، وليس فى محيط العالم الإسلامى فحسب ، بل فى محيط العالم ، وفى محيط الإنسانية كلها ، وإن التاريخ شاخص ببصره إلى من يقوم بها فى الأقطار الإسلامية والعربية ، ممسك قلمه ليسطر له سطور الثناء والإجلال ، ويقلده الزعامة الحقيقية ، ومركز التجديد فى العالم الإسلامى ، والعبقرية والعصامية فى التاريخ الإنسانى .

خاتمة البحث

إنها حقيقة – مهما كانت مرة وأليمة – أن العالم الإسلامى فقد الثقة بنفسه ، وجهل ذاته ومعنوياته بصورة عامة ، حتى إن الأقطار الحرة المستقلة فى هذا العالم الإسلامى الواسع – بما فيها الدول التى كانت مستقلة منذ قرون وأجيال وما تأخرت فى الاستقلال – ظلت عالة على الغرب علمياً وعقلياً ، كبلاد متأخرة أخرى نشأت فى العبودية والخضوع ، وشبت على العبودية والخنوع ، قد يقوم رؤساء هذه الدول وزعماؤها أحياناً بمواقف تستحق الإعجاب فى المجال السياسى ، ويجازفون فى بعض الأحيان بمستقبل البلاد ، ويغامرون – أو يقامرون – بحياة الشعوب ، ولكن لا يبدو منهم – فى نفس الوقت – أى ثقة بالنفس وحرية فى الاختيار ، وملكة نقد حر وحكم عادل على الأشياء يرجى من أى فرد بلغ رشده ، وعرف يمينه من شماله ، مع أنه من المقرر المعلوم فى فلسفة التاريخ أن العبودية الفكرية والحضارية والتربوية أدهى وأمر وأعمق وأرسخ من العبودية السياسية ، وأن الشعب الظافر المنتصر المحب للواقع يبقى فى غنى عن الاستعباد السياسى واستعمال القوة ، إذا نجح فى الاستعباد الفكرى والعقلى والحضارى .

فى هذه العقود الأخيرة من القرن العشرين التى اكتوت فيها الإنسانية بنار حربين عالميتين ، وهى على أبواب حرب كونية ثالثة ساحقة ماحقة ، والتى أصبح فيها إخضاع دولة سياسياً وعسكرياً ، والتحكم فى رقابها من غير إذن أهلها شاقاً وعسيراً بل شبه المستحيل ، بدأت الدول الكبرى تميل إلى النفوذ الفكرى والحضارى أكثر من النفوذ العسكرى والسياسى ولم تكن فى هذا المجال قوة أو دعوة تتحدى سيطرة الغرب الفكرية والحضارية ، وتواجه وحدته الأساسية والنظرية ، وتعرقل سيره الحثيث إلا شخصية العالم الإسلامى المستقلة الأصيلة ، ودعوته الدينية والخلقية ، وفلسفته

فى الحياة ولكن العالم الإسلامى – لأسباب وعوامل تاريخية قدمناها فى كتابنا : « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟ » – لم يتشجع على مواجهة طاقات الغرب الفائضة المتدفقة ، مواجهة الند للند ، فإن الطبقة التى تربعت على عرشه وملكت زمام أمره كانت تعيش كما كتبنا فى الباب السابق – على هامش الغرب ، بل كانت – فى تعبير أصح – طفلا رضيعاً حملته مرضع الغرب ، وغذته بلبانها ، وتكون لحمه ودمه – معنويا وعقليا – من لحم أمه (الغرب) ودمها ، أضف إلى ذلك محاولة الغرب لإضعاف وازع العقيدة والإيمان فى شعوب هذه الدول ، وتدمير الأخلاق الفاضلة ، ولنسف تقاليد المجتمع الكريمة ، والقوة الباقية للتغلب على الشهوات والإغراءات – التى تجرد عنها الغرب منذ أمد بعيد – استخدم فيها أساليب ووسائل تبدو بريئة سخية أحيانا ، آثمة مجرمة بعض الأحيان ، فحاول البلوغ إلى أهدافه البعيدة عن طريق إعانة اليونسكو ورعايته ، والاستعانة بالخبراء الأجانب فى التربية والتثقيف والإعلام ، وبالمدرسين الأوروبين ، وعلى التربية والتعليم الغربيين ، وعن طريق تلك الموجة العارمة الصارمة من كتب وصحف ومطبوعات ، التى تبذر بذور الشبهات ، وتثير الشهوات ، والتى امتدت وطغت كالسيل الجارف العاتى ، فى جميع أنحاء العالم الإسلامى ، وأراد أخيراً أن يشل جميع قواه ، ويخدر طاقاته بتعميم التلفزيون فى كل منزل وأسرة ، بل فى كل شقة وغرفة ، باسم رفع مستوى المعيشة وإفاضة النور والبهجة ، والمتعة على الحياة ، إنه يقيد – بعض الأحيان – مساعداته السخية لهذه الدول المتأخرة الصغيرة بشروط ، ويطالب هذه الحكومات بتغييرات وتحسينات تتكفل بتطوير المجتمع وطبيعة الجماهير المؤمنة بسهولة وبراعة .

وموجز القول : إن الغرب أحاط بهذه الدول – رغم بعده عنها – إحاطة السوار بالمعصم أو الهالة للقمر ، وافتعل حولها أوضاعا جعلت هذه الدول المستقلة تحت رحمة هذه الدول الغربية الكبرى ، من غير أن تستعمل تلك الأساليب القديمة البالية للإخضاع والاحتلال .

لقد أبدى قادة هذه الدول – وفيهم من يلهج لسانه بالإسلام ، وفيهم من يتزعم إنشاء كتلة إسلامية ، وجبهة إسلامية عالمية – إيماناً وتسليماً بهذه التغييرات ، أو « **التحسينات** » ونشاطا وتحمسا فى تنفيذها ، وتطبيقها على المجتمع والحياة ،

لا يسبقهم فيه الغربيون أنفسهم ، وأن أساليبهم فى قبول المخططات الأمريكية أوالسوفيتية للتربية والتعليم والسماح لخبرائها وعلمائها بوضع خطة دقيقة مدروسة لتطوير عقلية هذه الشعوب وطبيعتها ، والأخذ بكافة الأساليب لتعميم التلفزيون وتسهيل سبله ، واستيراده برمته وعلى علاته ، وإدخاله فى كل أسرة مسلمة ، وتوفير جميع الفرص والوسائل لبعض تلاميذ المستشرقين النجباء الأوفياء ، لإثارة الشبهات والفوضى الفكرية فى المجتمع الإسلامى ، وتقوية الاتجاه الخطر إلى الرفاهية وأسباب الترفيه والتسلية ، ومباهج الحياة وزخارفها ، وتشجيع التبرج والسفور ، والتعليم المختلط ، وصناعة الأفلام والإشراف عليها ، كل ذلك يثير الشبهات فى نفوس كثير من الناس ، إنهم أصبحوا عملاء ، لاقدر الله ذلك – بشعور أو من غير شعور لهذه الدول الكبرى وانساقوامعها فى أهدافها الهدامة ، أو لعلهم يريدون أن يجردوا شعوبهم المسلمة وجماهيرهم المؤمنة عن هذه الغيرة الدينية ، والشعور الخلقى ، وعن التمييز بين الخير والشر ، والحياء والخلاعة ، الذى يحول – أكثر الأحيان – بينهم وبين إباحيتهم الفردية وعبوديتهم للغرب ، والذى يمكنه أن يتحول فى وقت ما ، فى صورة انتفاضة دينية ، وحركة إسلامية ، ويمثل خطراً لسلطة هؤلاء القادة والحكام . ويبدو أن هذه العملية – عملية التغيير والتطوير – إذا استمرت عدة سنوات أخرى ، وأتيحت الفرصة للعناصر الهدامة ووسائل التدمير أن تعمل عملها بحرية وانطلاق ، فإنها تؤثر فى هذا الجيل الجديد ، الذى يقبل على كل طريف لذيذ تأثيراً بالغا لا يترك له أى مجال لمواجهة تيارات التغريب والتجدد ، أما النشء الذى ينشأ فى هذه البيئة والذى يخلف الجيل المعاصر فإنه سيشب على السمع والطاعة ، ولا يعرف معنى المعارضة ، بل إننا نخاف – وقد بدت طلائعه وظهرت بوادره – أن تقع الطبقة الأرستقراطية والفئة الحاكمة فى هذه البلاد فريسة ذلك الجذام الخلقى الذى مسخ الغرب وشوه صورته ، ثم لا ترى على وجه الأرض مجتمعاً سليماً كريماً تناط به الآمال فى تطهير العالم الروحى والخلقى ، ويعتمد عليه فى إنعاش الإنسانية مرة ثانية .

أما الغرب فإنه لا تصح نيته ولا تصلح طويته – أبداً – إزاء العالم الإسلامى ، إنها نتيجة طبيعية ورد فعل طبيعى لتاريخه الطويل الذى امتدت عليه ظلال الحروب الصليبية الكثيفة ، وطبع بطابع الصراع الطويل العنيف الدامى بين الدولة العثمانية والدول الأوروبية .

إن حب الواقعية والعقل العملى يحكمان بأن العالم الاسلامى وحده يستطيع أن يتحدى سيطرة الغرب ويبرز على وجه الأرض كقوة أو كتلة مستقلة تقوم على أساس فلسفة خاصة أصيلة للحياة ، ودعوة عالمية للبشرية ، إنها نتجية الشعور بقيمة تلك الذخائر والوسائل الطبيعية والمواد الخام التى تفيض بها أرض العالم الاسلامى ، والتى تملك أهمية كبيرة حساسة للسيطرة الصناعية والتجارية والسياسية للغرب ، وقد يقتضى ذلك ضعف الطبيعة البشرية أيضاً ، فإن الانسان إذا أصابه داء أو لحقه عار يتمنى – بعض الأحيان – أن يصاب به الآخرون ، يبتلون بذلك ، ويحب أن يستوى هذا وذاك ، ولو على الداء والعار ، ولا يتغلب على هذا الضعف والعيب إلا الذين استقر – بفضل النبوة وتأثيرها – حب الإنسانية فى سويداء قلوبهم ، وتغلغل الإيمان وخشية الله فى أحشائهم ، وذلك ما فقده الغرب – مع الأسف – منذ زمن طويل . إن تاريخ عهد الاستيلاء الغربى وانتصاراته يدل بكل وضوح على أن جميع هذه الدول التى وقعت تحت نير الاستعمار الأوروبى التصق بها ذلك الداء الخلقى الذى رافق الغرب حيثما حل وسار ، وقد حاولت القوى الاستعمارية الغربية – على حد تعبير بعض المؤلفين الغربيين – إثارة الفوضى الخلقية والشبهات العقلية فى البلاد الشرقية تحت خطة مدبرة مرسومة محكمة ، فإن الغرب المسيحى مهما كان متشككاً فى المسيحية ، ومهما وصل بتنوّره الفكرى وتحرره العقلى عن العقائد المسيحية إلى حدود الزندقة والالحاد ، ولكنه مسيحى متصلب متزمت بالنسبة للعالم الإسلامى ، والشعوب الاسلامية ، إنه يسالم اليهود ويتفاهم معهم فى هذه الناحية مع أنهم من ألدّ أعداء المسيحيين ، وعريقون فى العداوة والبغضاء ، ويؤثرهم على المسلمين بكل صراحة وجلاء . وفضلا عن هذا التعصب الدينى الذى نشأ فى حضانته ورضع بلبانه ، وأصبح من طبيعته وشيمته أنه أحرص على مصالحه وأغراضه قبل كل شيء ، وقد جربنا مراراً أنه كلما وقع صدام بين دولة إسلامية ودولة غير إسلامية ، وقف – دائماً مع الجانب الآخر ، وساعده من وراء حجاب حيناً آخر ، وقد أزاحت نكبة ٥ حزيران ١٩٦٧ م الستار عن هذه الحقيقة ، وتقرر أنه لا يجوز لأى شعب إسلامى أو دولة إسلامية أو هيئة إسلامية أن يثق بصداقة كتلة غربية أو شرقية ، بل ينبغى له – فى مثل هذه المراحل الحاسمة – أن يثق بقوته ، ويعتمد على سواعده ووسائله بعد الثقة بالله والاعتماد عليه .

أما بخصوص قادة العالم الإسلامى وزعمائه فيجب عليهم أن يعرفوا أنهم مهما جنوا من منافع شخصيّة لهم ، ولمن يأتى بعدهم وراء هذه السياسة ، سياسة التجدد والتغريب ، والتقليد الأعمى ، وإثارة الفوضى والتبلبل الفكرى فى الشعوب المسلمة ، فإنها تلحق الأمة بخسارة فادحة فى المجموع وبصورة دائمة وتهزّ أركانها وجذورها ومقوماتها هزّاً عنيفاً تبقى آثاره ونتائجه لعدة قرون وأجيال .

إن هذه الشعوب – رغم جميع معائبها وجوانب الضعف فيها – لا تزال تحمل تلك العاطفة الفياضة الجياشة من الإيمان والحنان ، والتضحية والإيثار ، والطاعة والانقياد ، والحب والاخلاص ، التى لا توجد فى أى أُمة مادية على ظهر الأرض ، إن جماهير هذه البلاد الإسلامية رغم جهلها المؤسف وتأخرها المؤلم خامات بشرية ممتازة يصنع منها نماذج إنسانية جميلة ، وطراز رفيع من البشر ، إن أكبر قوتها الإيمان والاخلاص ، والبساطة والحماس ، وهذه القوة لعبت دوراً خطيراً فى التاريخ ، وصنعت العجائب ، وأتت ببطولات ، وخوارق تدهش لها العقول ، وهى التى أنقذت هذه الدول الإسلامية وأمسكت بيدها فى كل وقت عصيب ولحظة حاسمة ، فيجب علينا – بناء على مجرد حب الواقعية والحقيقة – أن نقدر هذه القوة الكبرى حقَّ قدرها ، ونعتبرها أضخم رصيد ، وأمضى سلاح ، وأقوى وسيلة للمحافظة على سلامة البلاد ، وأداء أى واجب كبير ودور خطير على مسرح العالم ، ولكن هذه القوة الشعبية الإيمانية نفسها بدأت تتغضن تحت تأثير التجدد والتغريب ، وبدأ فى هذه الشعوب سرطان خلقى لا ينفع فيه الدواء والعلاج .

وبالنظر إلى تفوق الغرب فى مجال الصناعة والعلم الذى لا ينكر ، ولايسمح بإنكاره وغض البصر عنه العقل والدين ، ولا هو بالمتيسر الممكن ، يقف العالم الإسلامى بين طريقين : فإما أن يقبل – مسحوراً ، مسلوب الإرادة والتفكير – فلسفته عن الحياة ، ونظرته إلى الكون ، وعقائده وأفكاره الما بعد الطبيعية ، ونظرياته الاجتماعية والعمرانية ، وفكرته عن الأخلاق ، وأسلوبه ومنهجه فى الحياة برمته ، وبما فيه من غث وسمين ، ويصهر وجوده وشخصيته فى بوتقته صهراً كاملا ، ويندمج فى تياره الحضارى إندماجا كلياً ، إن هذا الطريق – فضلا عن أنه يعنى ردة عامة شاملة ، وانتحاراً روحياً ومعنوياً ، وخيانة بالإنسانية التى ارتبط مصيرها بهذه الأمة – جهاد لا طائل تحته ، وسعى لا مبرر له ، وهو لا يؤدى إلّا

إلى صراع عقلى ، وقلق روحى ، وضياع المواهب الإنسانية ، والطاقات البشرية ، إنه تدمير صرح مشيد مكتمل البناء ، وإزالته من الأساس ليقام على أنقاضه وركامه بناء جديد ليس له مواد خام ، ومواهب بناءة ، ولا يسمح به الجو والبيئة والمجتمع ، ولا صلة له بالماضى ، وكلما بدت محاولة فى هذا المضمار فى أى دولة إسلامية أخفقت ، وكلما خفّ هذا الضغط الصناعى وغير الطبيعى عن الشعوب ، ووجد الناس فرصة لإبداء رأيهم ومايحبون وما يكرهون ، وخلعوا هذا اللباس الفضفاض الذى لم يفصل على قامتهم ، ولا يتلاءم مع طبيعتهم ، وذلك ما نراه الآن فى تركيا ، وسنراه عما قليل فى مصر وسوريا .

هذا هو الطريق الأولَ ، أما الطريق الثانى فهو أن نستفيد من الغرب فى مضمار العلوم والصناعة والأبحاث العلمية والفنية التى لا تقوم إلّا على التجارب العلمية ، والحقائق العلمية ، وعلى الجهد الإنسانى فحسب بكل حرية وسعة صدر ، ثم نضع هذه العلوم والوسائل - بفهم واجتهاد وذكاء - فى خدمة تلك الأهداف السامية التى منحتها لنا النبوة الأخيرة والكتاب الأخير،ودعانا بخير أُمة وآخر أُمة على وجه الأرض ، إن هذا الجمع بين الوسائل والغايات الذى حُرمه الغرب والشرق على السواء ، فأصبح الغرب محتكراً للوسائل الجبارة القاهرة ، ومفلساً كل الإفلاس فى الغايات النبيلة الصالحة ، وأصبح الشرق « **الإسلامى** » مقتنعاً بالغايات الرشيدة الصالحة ، مفلساً فى الوسائل الجبارة القاهرة ، والغرب يستطيع أن يفعل كل شىء ، ولكنه لا يريد ذلك ، أو فى تعبير أدق لا يعرف الطريق إليه والشرق يحب أن يفعل الكثير ، ولكنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً - هذا الجمع الصالح المتزن العادل يستطيع أن يغير وجه الأرض ، ويأخذ بيد الإنسانية من طريق الانتحار والهلاك إلى طريق السعادة الخالدة ، والفوز المبين فى الدنيا والآخرة ، إنها تكون مأثرة عظيمة خالدة تحول تيار التاريخ ، واتجاه الإنسانية ، وإنها لا تتم إلّا بيد هذه الأمة التى حملت تراث النبوة الأخيرة ، وحافظت على رسالتها وأمانتها ، فيجب أن يكون هتافنا فى الوقت الحاضر والعالم المعاصر ، هتاف ترتج له الجبال ، وتهتز به أوكار الفساد ، هو - كما يقول إقبال « **إن العالم أصبح خراباً يباباً بقسوة الغرب وفظائعه ، فيا أيها الرجل الذى بنيت الحرم قم وابن هذا العالم** » لقد تقدمت دولة فتية طامحة فى

الشرق ، اليابان ، وقامت بهذه الخطوة والإقدام فى إطار ضيق محدود ، وعلى مستوى منحط من وجهة النظر الإسلامية ، وإنها استفادت من الغرب فى مجال العلم والصناعة استفادة وصلت بها التلميذة إلى درجة المعلم والأستاذ ، وأصبح من العسير التمييز بينهما ، وحافظت – فى جانب آخر – على معتقداتها وخصائصها الحضارّية وتقاليدها ، ولكن معتقداتها الدينية – من سوء الحظ – لم تكن تتلاءم مع العصر الحديث ، ولم تكن فيها ناحية لخدمة الإنسانية ، ولم تكن تحمل رسالة عالمية إنها كانت مجموعة تقاليد بالية عتيقة حرصت عليها هذه البلاد وتمسكت بأذيالها .

ولاتزال متمسكة بها بقوة إرادتها وصلتها العميقة الراسخة بالماضى ، ولكن الوضع فى العالم الإسلامى يختلف عن وضع هذا البلد كل الاختلاف ، فعنده دين وشريعة ودستور ، لا اعتبار فيه للقديم والجديد ، وعنده حضارة قامت على الحقائق الخالدة ، إنها شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، تؤتى أُكلها كل حين بإذن ربها ، ولذلك فإن هذه البلاد الإسلامية سوف لا تواجه صعوبة فى إيجاد التفاهم والتعاون بين تلك العلوم والصناعات ، وهذه الحقائق والغايات ، وتستطيع أن تحصل بهذه العملية على نتائج مدهشة تحيط بالعالم كله ، وتشمل البشرية بأسرها، وتتقدم بها على اليابان التى مارست هذه العملية فى نطاقها الضيق المحدود فلم تأت بالنتائج السارة المرجوة ، إن هذه المحاولة العملية فى اليابان وفى أى بلد تقليدى يشبه اللعب بالزجاج والحديد ، والنار والبترول ، ولكن لا تناقض بينهما عند المسلم ، فإنه يرى أن الصراع أو الاصطدام بين الدين الصحيح والعلم الصحيح مستحيل ، وضرب من المحال ، وأن الحكمة ضالة المؤمن حيثما وجدها فهو أحق بها ، العبرة فى الوسائل – عنده – بالغايات التى سخّرت لأجلها واستخدمت فى سبيلها ، إنه يرى أن كل قوة وكل علم ، وكل أداة فعالة ووسيلة ناجحة خلقت لخدمة الدين وصلاح الإنسانية ، وإن واجبه أن يمنح تلك العلوم والوسائل والآلات محلها اللائق ومكانها الصحيح ، ويجعلها أداة للبناء بدلا من التدمير ، ولكن هذا العمل الكبير يحتاج إلى ذكاء متوقد وشجاعة فى التفكير ، ونصيب وافر من إيمان وإخلاص يقاوم كل نزعة تقليدية ، وكل شعار مزوّر ، وكل هتاف فارغ ، وكل مصلحة شخصية أو حزبية ، ويتغلب عليها ، ويقدم له قادة العالم الإسلامى كل نصيحة وإيثار تتطلبه هذه التجربة ، وبذلك ينالون – كنتيجة أو كمنحة – مكانة فريدة من الحب والولاء فى

بلادهم لا ينالونها من أى طريق آخر ، وبالتالى يصلون – وتصل بلادهم – إلى درجة الهداية والإمامة ، وقيادة النوع الانسانى التى لم يحلموا بها .

إن الحضارة الغربية أشرفت على الانهيار ، وآذنت بالأفوال والزوال ، إنها لا تعيش ولا تواصل سيرها بمجرد قوتها الذاتية ، وجدارتها للحياة والبقاء ، بل لأنه ليست فى هذا المجال – من تعاسة الحظ – حضارة تحل محلها وتسد فراغها ، إن جميع الحضارات المعاصرة والقيادات الحديثة اليوم لا تعدو نوعين ، إما هى مقلدة جامدة وصورة باهتة للحضارة الغربية ، وإما هى ضعيفة هزيلة ، مريضة سقيمة ، منسحبة منهزمة ، لا تستطيع أن تواجه هذه الحضارة أو تقف معها جنباً إلى جنب فإذا قامت هذه الدول الاسلامية ، والعالم الاسلامى بصورة عامة لسدّ هذا الفراغ الذى سيحدث بعد نهاية هذه الحضارة وانسحابها عن مسرح القياة رُدّ إليه منصب قيادة الجنس البشرى ، وتوجيه الشعوب المعاصرة مرة ثانية ، المنصب الذى لا يفوض إلّا إلى أمة فتية قوية أبية تحمل كل عناصر البقاء والاستمرار والتقدم والازدهار : سُنة الله فى الأرض ، « **ولن تجد لسنة الله تبديلا** » .

فلينظر هؤلاء القادة والحكام ماهو أولى لهم وأجدر بشأنهم ، التمسك بأذيال الغرب والوقوف على بابه كالشحاذين ، أم منصب قيادة الانسانية وهدأية الشعوب الضالة التى لا كرامة – بعد النبوة – مثل هذه الكرامة ؟ ذلك المنصب العالى السامى الذى تتلاشى عنده جميع هذه الألقاب والشارات والشعارات ، والهتافات والمناصب الرفيعة ، والحياة الناعمة المريحة ، والاغراءات المادية والجنسية ، إنها سلعة غالية لا يخسر بها المشترى ، ولو ضحى بنفسه مائه مرة .

فهل هنا – فى مساحة العالم الإسلامى الكبير – بلد إسلا ى يقوم لهذا العمل الضخم ، العمل الحاسم الفاصل الذى لا يساويه عمل فى هذا العهد الحديث فى الاتساع والعمق ، والشمول ، وفى النتائج والآثار ، والثمرات والخيرات ، وفى تغيير التيارات وتقويم الاتجاهات ، وإصلاح الحضارات والمدنيات ، العمل الذى لا تجدر أمامه نهضة الغرب ، وثورة فرنسا ، والشيوعية والماركسية بالذكر فضلاً عن الاشادة والتنويه ، إن هذه الثورات القديمة تبدو كعبث الأولاد أو طفرة من طفرات الشباب بالنسبة إلى جراءة هذا العمل وذكائه وسحره وتأثيره ، إن هذه التجربة تعطى هذه

الدول التى تقوم بها ، والعالم الانسانى كله مجالا بكراً جديداً فسيحا للتفكير والعمل ، وطريقاً مأموناً مستقيماً إلى السلامة والأمن ، هذا العمل لا تستحقه ولا تجدر به ، ولا تنجح فيه إلا الشعوب التى عاشت فى حوزة الملة الابراهيمية ، واعتزّت ببشارة تكميل الدين وختم النبوة ، إن رسالة السماء تهتف بهؤلاء القادة والزعماء قائلة مجلجلة :

﴿ وجاهدوا فى الله حق جهاده ، هو اجتباكم ، وما جعل عليكم فى الدّين من حرج ، ملّة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ، ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس ، فأقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، واعتصموا بالله ، هو مولاكم ، فنعم المولى ونعم النصير ﴾

المحتويات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة